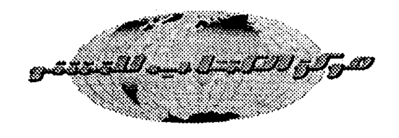
ثورة العقل

تغير واقع الكيان العربى

دكتور

محمد الجزار

٢٠٠٤م

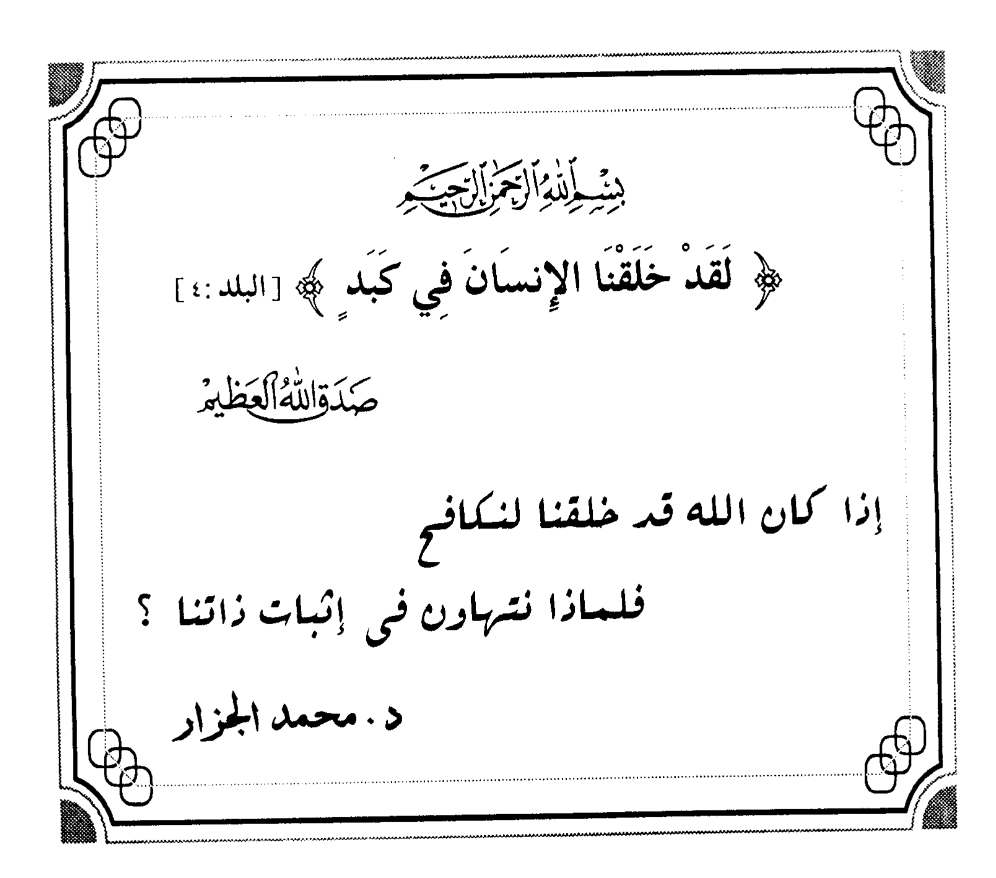


رقم الايداع :
١٦٩٤٦ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى :
977 - 294 - 288 - 7

الطبعة الأولى
٢٠٠٤م



مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠
مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨
http://www.top25books.net/bookcp.asp.
E-mail:bookcp@menanet.net



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤]

صدق الله العظيم

إذا كان الله قد خلقنا لنكافح

فلماذا نتهاون فى إثبات ذاتنا ؟

د. محمد الجزار

محتويات الكتاب

مقدمة

ظهر الإنسان العاقل (Homo Sapiens) على سطح كوكب الأرض منذ مليون أو مليونين من السنوات ، قد يكون أقل أو أكثر ، لا يهم فى هذا المجال تحديد ميعاد الظهور. من إنسان بدائى إلى إنسان ينحت فى الصخور صوراً لقرينه أو لحيوان معتاد على شكله، إلى أن بدأ إنسان يفكر فى الظواهر الطبيعية التى حوله ، وفى تجارب مر بها فى وقت راحة اجتر فيها ذكريات سعيدة وأخرى أليمة من مرض وجروح ، وموت وفناء. عندما عرف الإنسان الزراعة واطمئن إلى حد ما على إشباع احتياجاته الأولية من شراب وطعام، وسكن آمن، ولباس يستره فى الأيام الباردة، وإطفاء شهوة الجنس ، بدأ الإنسان فى التفكير والتحليل بمنطق بدائى بسيط ، ثم بدأ سلوكه وتفكيره يتطور ويتعقد بمرور الزمان، عندما سجل خبراته وتجاربه وأفكاره على الصخور أو على أوراق البردى، ليجيء آخر ليبدأ من حيث انتهى الأول. كون الإنسان العائلة عندما استقر فى مكان واحد وشعر بالملل، واضطر أن يبحث عن شريك يتآنس به ويتصادم معه، ويشبع من خلاله شهواته الجنسية وغريزة الصراع وإثبات الذات ، لقد مضى زمن الترحال الدائم ، سعياً وراء صيد حيوان شارد، أو مورد ماء، فقد كانت العلاقات الاجتماعية فى ذلك الوقت علاقات عابرة لا تستمر طويلاً، ولكن تبدل الحال عندما ارتبط الإنسان بالأرض، فهو يبذر البذور ويروى الأرض كل عدة أيام، وينتظر جنى المحصول بعد عدة شهور، أيضاً عندما تعلم الإنسان الرعى واستأنس الحيوانات الأليفة، وحلب الأبقار والأغنام والجمال، وعرف الإنسان اللبن ومنتجاته ، والدواجن والبيض، عندما عرف الإنسان الراحة تفرغ للتفكير والتحليل، ومن هنا بدأ العقل البشرى فى التطور والخروج من قمقمه.

عرف الإنسان التوحيد والأديان قبل نزول الأديان السماوية، لقد دعى إخناتون إلى عبادة الإله الواحد خالق الكون وباعث كل شيء فيه ، لقد مارس قدماء المصريين وشعوب الشرق الأوسط القديمة التضحية بالقربان، كما مارست هذه

الطقوس قبائل المايا والأنكا فى أمريكا الجنوبية . كانت القرابين إما بشرية أو حيوانية. بزغت فكرة الوليمة المقدسة قبل انتشار الأديان السماوية. لقد سادت طبقة الكهنة على الأجناس البشرية فى جميع بقاع المعمورة دهوراً طويلة من الزمان وسيطرت هذه الطبقة من الكهنة والأفاقين على عقول البشر، ومازالت تسيطر على ضعاف العقول من الإنسان الحديث، الذى يعيش فى زماننا الحالى بعقلية زمن ماضى. ساعدت جغرافية الأرض، والمناخ المعتدل لحوض البحر المتوسط والهند وجنوب الصين فى إضفاء الوازع الدينى على الحكم وعلى طبيعة المعيشة لسكان هذه المناطق من كوكب الأرض منذ قديم الزمان. فظهر الكاهن والساحر، والملك والإله، كما ظهر أيضاً الطغيان والاستبداد والاستعباد.

كانت بداية تاريخ الإنسان المكتوب منذ حوالى سبعة آلاف سنة بظهور أول كتابة سومرية فى منطقة بين النهرين (دجلة والفرات) ثم الكتابة الهيروغليفية فى مصر القديمة، ليبدأ فصل جديد من سفر الكون، وهو الفصل الخاص ببدء الحضارات القديمة التى ظهرت فى أوقات متقاربة فى منطقة الشرق الأوسط، والهند، والصين، وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية (المكسيك وشيلى وبيرو)، ثم الحضارتين الأغريقية والرومانية، ثم فترة سبات، ثم الصحوة العربية الإسلامية، تليها عصر النهضة الأوروبية المسيحية، لتسود الحضارة الغربية فترة طويلة من الزمان، وحتى يومنا الحالى ، مع امتدادها غرباً نحو أمريكا الشمالية، وسعى اليابان للحاق بالحضارة الغربية فى النصف الثانى من القرن العشرين.

كان الجهل والألم سبب مأساة الإنسان مع أساطيره، ومعتقداته التى سيطرت عليه منذ قديم الزمن والتى ما زالت آثارها باقية حتى اليوم يتجرع منها معظم أبناء الإنسان الأول. فالجهل يولد الخوف من المجهول، والألم قوة ضاغطة على الإنسان تسبب له الأرق والمعاناة وعدم الراحة. خاف الإنسان من الظواهر الطبيعية، والموت والمرض، وتفتأ خياله الفطرى على أفكار خيالية، ومعتقدات تريحه نفسياً، وترفع عن كاهله معاناة الخوف والألم. من كان أكثر ذكاءً، وحكمة، وخيالاً، أصبح كاهن وساحر، ورائد يقود خلفه قطيعاً من البشر ضعاف العقول، الذين استسهلوا عدم تشغيل محور بناء الإنسان - المميز عن باقى المخلوقات - وهو المخ.

بزغت من قديم الزمن فكرة النجاسة كنوع من التميز واستفادت طبقة من طبقة أخرى فاستعبد الإنسان أخيه واستبد به، كما كانت عملية تقديم القرابين والضحية فى عصور ما قبل الأديان، للتطهر وإزالة اللعنة والنجاسة، وسيلة للتكسب وإلباس ثوب الألوهية على الكاهن، أو الملك المتسيد . عزفت الكهنة على أوتار تأنيب الضمير، فعاثوا ضغطاً وابتزازاً على عقول البشر. ومن هنا بدأت العبودية والاستغلال وبدأ عصر الإنسان الحديث الحر اسماً والمقيد فعلاً بمعتقداته الموروثة ومحرماته المفروضة.

إذا كان إنسان العصر الحجرى قد عاش دهراً من الزمان فى فردية وحرية، فإن النزعة الجماعية أو الاجتماعية التى بدأت مع بداية عهد الإنسان بالزراعة - وإن كانت قد خففت عنه عبء العمل الفردى والوحدة الموحشة - إلا أن هذا النظام قد فرض عليه نظم فرعية من وجود الطبقات المتباينة، وتقيد لطبيعته الفطرية، ومعتقدات تسيره فى اتجاه مرسوم، يوصم من يشذ عنه بكثير من الصفات التى قد تؤدى إلى موته عقاباً له عن الخروج من زمرة الجماعة حتى لو كانت الأفكار والآراء الشاذة والمختلفة هى الصحيحة وأفكار الآخرين غير منطقية أو غير صحيحة، فكل شيء يخضع لقانون النسبية.

كان الإنسان الأول يبدد طاقته الكامنة فى الجنس وفى صراع مع حيوانات متوحشة تريد أن تفترسه أو يريد أن يفترسها، أو صراع مع إنسان آخر يريد أن يعتدى على ما ملكته يداه، أما الإنسان الحديث وبعد أن تعرف على أهم وأخطر اكتشاف وهو اللغة ، المنطوقة أولاً ثم المكتوبة ثانياً، أصبح العقل أخطر سلاح، اكتشف به الطرق والوسائل إما للتطور والرقى، أو لإبادة البشر قتلاً أو استعباداً ، بقوة السلاح القديم من خناجر وسيوف وسهام ونبال، والسلاح الحديث من قنابل ودبابات ومدرعات، وبقوة وذكاء وحلاوة وسلاسة العقل واللسان لجذب ضعاف البشر وجرفهم نحو أفكار ومعتقدات قد لا يميز الضعيف من البشر - بدنياً أو عقلياً- إذا كان فيها صالح أو كانت ضارة له.

أجناس بشرية متعددة تعيش على سطح البسيطة، تباينت الألسن، وأشكال الجسم والشعر، وتباينت ألوان البشرة، والعينين والشعر، وكنتيجة منطقية لترحال الإنسان منذ العصور القديمة، سعياً وراء صيده ورزقه هارباً من مأساة ملله، مشبعاً لغريزة حب استطلاعه حدث اختلاط بين الأجناس المختلفة، نتج عنها امتزاج وزواج، كما حدث أيضاً فى نفس الوقت تنافر طبيعى ناتج من النعرة الفردية، والنظرة التباينية، والفروق بين أفراد وجماعات مختلفة فى الشكل واللون والقوة والثروة، كل هذا ساعد فى اكتساب معارف جديدة وخبرات مختلفة وصراع مميت، وجدل ومناقشات لا تنتهى.

بدأ الإنسان التفكير فى تغيير أسلوب حياته للاستمتاع بلذات الحياة، وأيضاً التفكير فى أشياء لم تتطرق إلى ذهنه من قبل مثل الظواهر الطبيعية، ومواضيع فلسفية عن أصل الإنسان والحكمة من وجوده، ولغز الموت. لقد بدأت حضارة الإنسان فاخترعت اللغة ثم الكتابة ، وبدأت حقبة جديدة من التاريخ المكتوب، هى حقبة الحضارات وبدأ الإنسان يعتمد على عقله بجانب قوة جسده، وتطورت الحياة حتى أصبح العصر الحالى هو عصر العقل، وتحول مضمون القوة من قوة جسدية إلى قوة عقل ومعلومات. كانت بداية العلم من الكاهن والفلاح، فعندما أمن الكاهن موارد احتياجاته الأساسية من طعام وشراب وملبس بدأ فى التأمل والتفكير، كانت السماء أمامه هى الكتاب الناصع الصفحات فبدأ يخط فيه عصارة تفكير عقله. مثل ما تفتق عقل الفلاح بارتباط التغيرات المناخية ببدء بذر البذور وحصاد المحصول، تفتق عقل الكاهن أيضاً بربط المناسبات الدينية بحركة النجوم والكواكب . تعلم الفلاح الحساب من قياس أرضه وتنظيمها فى صفوف مستقيمة أو مربعات صالحة لزرع المحاصيل المختلفة . بدأ الكاهن بعمليات حسابية بسيطة فى علم الفلك بالتنبؤ بالتغيرات المناخية ، واستغل هذه القدرة باستغلال عامة الناس الذين اعتقدوا أن قدرة الكاهن بالتنبؤ بالغيب نابعة من الآلهة. من الكهانة تولد الاستبداد والطغيان الذى سيطر على عصور الحضارات القديمة ، ومازال يسيطر حتى الآن على شعوب عديدة فى صورة ديكتاتورية تحكم شعوب بلا عقول، تحلم بلا أمل فى كسر قيود الحرية

وانطلاق العقل من محبسه. يقول الفيلسوف اليونانى أنكساجوراس فى القرن الخامس قبل الميلاد :« أن فى البدء كان كل شيء مختلطاً، ثم أتى العقل فميز كل الأشياء ليعيد تنظيمها» . فالعقل هو كاشف الحقيقة الإنسانية بل هو الذات نفسها.

استطاع الإنسان تطوير عقله وفكره عندما نحى الأساطير جانباً، ليلاحظ ويراقب الكون ككل ، ويتسائل ويدون بيانات ومعلومات، ليفسر ويتفهم مكنون عمل الكون، ويستنبط قوانينه. لقد كان أكبر إنجاز للعقل البشرى حين أيقن أن الأسطورة ما هى إلا خيال ساذج ، وأن الكهانة والسحر والتنجيم ما هى إلا ستار يمنع العقل من القيام بنشاطه الطبيعى فى القياس والتحليل، والاستنباط والاستنتاج، والاختراع والابتكار. إذا كانت بعض الأساطير تصف وقائع غير حقيقية، فإن البعض الآخر يروى أحداث تاريخية مع بعض الإضافات والتعديلات والتحوير من أجل غرض ما، وتصاغ فى قالب قصصى أو شعرى منثور لمزيد من التشويق والإثارة.

كتب الدكتور محمد مرحبا فى كتاب (الفلسفة ما قبل عصر الفلسفة) :«إن النظرة الأسطورية هى جزء من تفكيرنا اليومى، وهى ليست نقيض العلم فى حقيقة ما ترمى إليه. فالعلم والأسطورة يلتقيان على هدف واحد هو فهم الكون وتفسير ظواهره ومحاولة التأثير فيه وامتلاكه نفسياً ومادياً. إن العقل العلمى يرفض التفسير الأسطورى للأحداث، ولكنه لا يرفض الغاية التى تتوخاها الأساطير، إنها غاية العلم نفسه : فهم الكون والبحث عن الحقيقة. إن كثيرا من التصورات الأسطورية لاتزال فاعله فى نفوسنا حتى اليوم بالرغم مما استقر فى أذهاننا من حقائق علمية، فكأنما العلم قشرة خارجية، على سطح العقل لا تستطيع أن تبدل شيئاً فى المخزون الأسطورى الكامن تحتها» . بالرغم من أن معظم الأساطير ضد المنطق والتفكير العلمى إلا أن دكتور مرحبا يرى أنها الرحم الذى خرج منه الأدب والفن والفلسفة، فقد كانت الأساطير مصدر أفكار الأولين وملهمة الشعراء ، ومنبع الفلسفة والدين عند الأقدمين.

فى محاولة ربط الدين بالفلسفة من خلال الأساطير ، كتب الدكتور زكريا إبراهيم فى كتاب (مشكلة الفلسفة) : « لو شئنا أن نستعرض تاريخ العلاقات القائمة بين الدين والفلسفة منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا، لكان علينا أن نرتد إلى تلك الأساطير الدينية والخرافات السحرية التى ذهب الكثير من الباحثين إلى أنها كانت الأصل فى نشأة التفكير الفلسفى. بيد أن فلاسفة اليونان الأقدمين لم يلبثوا أن تحققوا من أن تلك الأساطير الدينية لا تخرج عن كونها خيالات بشرية اصطنعها الناس على صورتهم ومثالهم لوصف الآلهة. ولعل هذا ما عناه إكسنوفان حينما كتب يقول: إن الناس هم الذين استحدثوا الآلهة، وخلعوا عليها هيئتهم وعواطفهم ولغتهم».

إذا كانت الأسطورة عنصراً نشطاً فى عواطف البشر وعقيدتهم ، يكتمل بها شكل المنظومة البشرية من خيال غير واقع، وحقيقة واقعية، فإنها يجب ألا تعوق التقدم العلمى، والقيم الأخلاقية الحضارية، فى عصر طغى فيه عمل العقل العلمى، وتطورت فيه القيم الأخلاقية والسلوك الإنسانى ليشعر الإنسان بذاته كإنسان يعبر عن أفكاره وآرائه فى مناخ ديمقراطى ، وحرية لا تؤذى الغير. ما دام العقل البشرى فى سعيه نحو سد الثغرات، أى إيجاد حل لمعضلة يفشل العلم عن حلها، أو محاولة الرد على أسئلة يعجز العلم عن الإجابة عليها، فإن الإنسان غالباً سيلجأ إلى الأساطير والغيبيات.

خلال فترة ظهور الإنسان القصيرة بالنسبة لعمر الكون الذى يقدر بحوالى خمسة عشر ألف مليون سنة، تبلور عمل العقل بصورة فعالة فى فترة لا تزيد عن عشرة آلاف عاماً منذ بداية الحضارات. رتب الفيلسوف الألمانى فيخته فى القرن التاسع عشر عصور التاريخ المرتبطة بالعقل فى خمس فقرات وهى: عصر البراءة حيث كان العقل يظهر فيه فى صورة غريزة عمياء، ثم عصر السلطة الذى تطلب فيه أن يكون العقل عاملاً ثانوياً بالنسبة للطاعة السلبية، ثم عصر اللامبالاة بالحقيقة وهو الذى ألغى فيه تحكيم العقل، ثم عصر العلم الذى تجلت فيه الحقيقة وعلت فيه كل شىء وبدأ الإنسان يشعر فى هذا العصر بقيمة العقل، وأخيراً عصر الغنى العقلى وفيه أصبحت الإنسانية حرة وبدأت تضفى على نفسها من الإبداع والرونق ما ينسب عصر العقل المطلق، فانطلق العقل يبنى ويهدم ، يبدع ويدمر.

يتكون الإنسان من عنصرين هما المادة والفكر. العنصر الأول يتكون من الذرات التى تتشكل فى صورة معينة لتكون الخلايا . تتجمع الخلايا المتماثلة لتكون الأنسجة، وتكون مجموعة من الأنسجة أعضاء الكائن الحى. تتركب الأعضاء لتكون أجهزة الكائن الحى المختلفة. تحتوى كل خلية على نواة (ما عدا كرات الدم الحمراء) ، وتكمن فى هذه النواة الجينات المشفرة التى تمثل بنك المعلومات الأساسى للحياة، تحتفظ بجميع سجلات جسم الكائن الحى والتى تتوارث عبر الأجيال، كما تعتبر الدنا (DNA) مادة الوراثة للمعلومات التى تحوى جميع ما يتوارثه الفرد من والديه وأجداده. إن الطاقة تتمثل فى المادة فتؤدى إلى الحركة التى تؤدى بدورها إلى التغير المستمر والمتواصل، والذى لن ينتهى إلا إذا شاء اللّه. أما العنصر الآخر فهو الفكر والمسئول عن العقل من خلال المخ - العنصر المادى.

دعنا نتخيل فرض وهمى وهو أنه لا توجد مادة، باختفاء المادة سيختفى الفكر، فالمتع والشهوات، والوصال والخصام ، والأخلاق والقيم ، والعقائد ، كلها مرتبطة بكائنات مادية. إذا انعدمت المادية ، انعدم معه الفكر. الفكر وجد لتنظيم المادة. إذا كانت المادة جامدة بدون حركة تجمد الفكر معه، فوجود الفكر فى صورته الحية تتطلب مادة فى صورة حركة وتغيير . فالفكر وجد لتنظيم الحركة نتيجة لتغيرات كيميائية وكهربائية مستمرة داخل جسم الإنسان فيعطى العقل أوامره إلى أعضائه لتبدأ الحركة. عندما تبلور تكوين المجتمع تطور العقل/ الفكر لتنظيم حركة المادة، أى حركة الأفراد. من الخطأ والغباء أن يحدث العكس، أى تقوم الحركة المادية بتنظيم الأفكار. مثلاً يعتدى إنسان على آخر بلكمة دون سبب، ثم يبدأ العقل فى العمل - هذا إذا عمل فالحركة دون فكر تعنى فعل أعمال عشوائية، غير منطقية فى أكثرها - الجزء المنطقى قد يجىء من عشوائية الفعل / الحركة . هذا النوع من الأعمال أو الأفعال يؤدى إلى تدهور منظومة الإنسان فى جميع المجالات، اجتماعياً ، وسلوكياً، وأخلاقياً، وسياسياً، واقتصادياً. . إلخ، وفى النهاية تدهور المجتمع أو الشعب ككل . هذا ما يحدث فعلاً فى المجتمعات أو الشعوب المتخلفة . . انعدام استخدام العقل أو استخدامه بكفاءة منخفضة.

لم يتخلف العقل العربى الإسلامى فى القرون الهجرية الأولى، فى تقدير قيمة العقل. كتب الدكتور أحمد صبحى فى كتابه (الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى) : « المعتزلة هم المعبرون عن النزعة العقلية فى التفكير الإسلامى ليس ذلك لأنهم استدلوا على العقائد السمعية بأدلة عقلية فحسب ولكن لأنهم وثقوا بالعقل إلى حد أنه لو تعارض النص مع العقل رجحوا دليل العقل ولجأوا إلى تأويل النص، فقد أقاموا مذهبهم على النظر العقلى، لقد كان لهم الفضل فى أن كانوا الأوائل فى الإسلام الذين رفعوا العقل إلى منزلة أن يكون مصدرا للمعرفة الدينية، فإن الإنسان إذا كان مفكراً عاقلاً فقد وجب عليه تحصيل معرفة البارى بالنظر والاستدلال قبل ورود السمع». فى ذلك العصر أيضاً تعددت المذاهب العقلية التى تدعو إلى حرية الفكر، والبحث والاجتهاد. كتب الدكتور إبراهيم مدكور فى كتاب (فى الفلسفة الإسلامية) : « المدارس الكلامية الكبرى ثلاث : المعتزلة، والأشاعرة، والماتريدية، وللمعتزلة فضل السبق. . وقد قادوا فى القرنين الثانى والثالث حركة فكرية واسعة، كان لها شأنها فى البحث الإسلامى عامة، ويوم أن غالوا فى قولهم وفعلهم، وادخلوا السياسة فى الدين، وحاولوا أن يفرضوا على الناس بعض أرائهم بالقوة ، أغضبوا السلف، واستنكرت الجماهير فعلهم. وكان لا بد من اتجاه وسط يقرب المسافة بين القديم والجديد، بين المنقول والمعقول، وحمل راية هذا الاتجاه الأشاعرة من جانب ، والماتريدية من جانب آخر. . وآمن المعتزلة أيضاً بالحرية، حرية الفكر والقول، والعمل، طبقوها على أنفسهم فى بحثهم ودرسهم وفى حوارهم وجدلهم، فذهبوا إلى آراء جديدة وغريبة أحياناً، وقالوا بما لم يجرؤ أحد غيرهم أن يقوله، وعدوا الفعل الحق ذلك الذى يصدر عن حرية تامة، ويوجب المسئولية» . لم تسلم هذه المذاهب - مع الخوارج التى تعتبر من أوائل فرق المعارضة- من التنكيل والتعذيب والقتل بواسطة السلطة الحاكمة فى العصرين الأموى والعباسى. استمر الضغط لإضعاف الأفكار الجديدة أو الأفكار المخالفة حتى أصبح القيام من سبات الجمود فى الوقت الحالى يحتاج إلى معجزة أو ثورة عقلية.

وجدت الأخلاق عندما وجد الاختلاف والتباين فبدأ الصراع والنزاع، والتعارض والتصادم بين فئات البشر المختلفة . تطورت الأخلاق مع تقدم الحضارة لتحد من الحرية الطبيعية للإنسان ولتنظيم متعه وشهواته، وحقوق الملكية . بدأ علم الاجتماع عندما عاش الإنسان فى مجتمع يحميه ويؤذيه، يساعده وينتظر منه المساعدة، يعطى الحب والحنان ويسعد من حب وحنان الآخرين له، وأصبحت المنافع تبادلية، أخذ وعطاء، فبدأ علم الاجتماع فى تنظيم العلاقات بين الأفراد أو بين الفرد والمجتمع ، ارتبطت العقائد الدينية بمكارم الأخلاق والإيثار، كما ارتبطت بالدعوة إلى عدم ظلم الإنسان لأخيه الإنسان. وتشدق الإنسان بالدين، وتفاخر وتصادم بالدين أيضاً وأضيف إلى قائمة أسباب الصراعات الصراع الدينى أو الصراع العقائدى، وزاد حمل الإنسان ببعده عن الديمقراطية والتفاهم الهادئ العقلانى، والمودة والحب، وبعده عما أنزله الدين من مودة وسلام وتعاون وتكافل.

نبعت الأخلاق من ضمير الإنسان المصرى القديم قبل ظهور الأديان السماوية، ففى مصر بزغ الضمير الإنسانى، ومن حكمة قدماء المصريين تكونت الأخلاق. كتب العالم الأثرى سليم حسن فى مقدمة كتاب (فجر الضمير) للمستشرق الأمريكى جيمس برستيد « فى مصر شعر الإنسان لأول مرة بنداء الضمير فنشأ الضمير الإنسانى بمصر وترعرع ، وبها تكونت الأخلاق النفيسة» وفى نفس المرجع كتب المؤلف : « الوظيفة الجديدة للعقل الإنسانى هى التى سهلت علينا إدراك معنى الأخلاق أو الخلق . وأنه لمن الممتع حقاً أن نعرف الوقت الذى بدأت تظهر فيه نفس كلمة أخلاق أو خلق لأول مرة فى كلام أبناء البشر. لقد بدأ ذلك فى عصر الأهرام، وسرعان ما صارت متداولة فى موضوعات التعليق والتأمل. ففى حكم (بتاح حتب) نرى ذلك الوزير الحكيم المسن يذكر ابنه بأن الفضيلة فى الابن لها قيمة عظيمة عند الوالد، وأن الأخلاق الحسنة شيء جدير بالذكر» . أيضاً جاء فى بردية أمنحوتب : «لا تطمع فى ذراع من الأرض، إن قدحاً من الحب أعطاه لك الله لخير من خمسة آلاف تنالها بالعدوان . . إن الرغيف والقلب مبتهج لخير من الغنى مع الشقاء».

العقل هو معان مجتمعه فى الذهن - تكونت من تجارب سابقة وتفاعلت مع موروثات عن طريق الجينات لتحدد مسالك وقدرات (الذكاء) العقل - ومن هذه المعان تبزغ الأفكار. وبالتفكير العقلانى المنطقى (المنطق هو من التفكير أى كيف ينبغى أن نحلل ونبحث لكى نميز بين خطأ الفكر وصوابه، ثم تطويره وتحديثه) نميز بين الخير والشر، وبين الهدى والضلالة ، وبين السلوك الحسن والسلوك السىء، وبين ما فيه نفع وما فيه ضرر، وان الفرد هو جزء من المجتمع / الشعب، وعليه فإن المجتمع / الشعب يتكون من مجموعة أفراد، وحرية الفرد - دون مساس بحرية الآخرين - تعنى حرية المجتمع ككل، وأن الديمقراطية تعنى إثبات ذات وإرادة الفرد واحترامه لفكر الآخرين وكذلك احترام الآخرين لفكره.

من الواجب توضيح تعبير ثورة العقل أو الاستخدام الأمثل للعقل. ان مخ الإنسان المادى الذى من خلاله يتم عمليات التعرف على البيئة عن طريق الحواس الخمس، ومن خلاله أيضاً تتم عمليات الاستدراك والتحليل والتفكير، هذا المخ كائن فى جمجمة الإنسان منذ أن وجد ولكن لم يكن يستغل بكفاءة وبالاستخدام المنطقى والواسع النطاق. مثالاً للتفكير العقلى المنطقى : قد يمتلك إنسان سيارة ثم يتركها أمام منزله لا يستخدمها إلا للجلوس فيها وحده أو مع أصدقائه غير مدرك أن السيارة لها استخدامات ومنافع أخرى مثل السير بسرعات أكبر من سرعة البشر أو الدواب وبذلك يمكن التنقل بها بدلاً من السير مترجلاً أو استخدام الدواب، فيوفر الجهد والوقت لعمل أشياء أخرى مفيدة. يستطيع الفرد أن يقود السيارة فى حيز مكانى ضيق ويستطيع أيضاً أن يستغلها أكثر بالسفر بها لمسافات طويلة. يستطيع الإنسان أن يستخدم السيارة كما هى دون تطوير أو كماليات، كما يمكنه أن يرفع من كفاءة السيارة عن طريق رفع كفاءة المحرك باستخدام وقود أفضل أو تطوير شمعة الاحتراق أو استخدام محرك أكبر وذو كفاءة عالية. يستطيع الإنسان أن يسير بالسيارة فى الأيام الحارة شاكياً من حرارة شمس الظهيرة، ويمكن أيضاً تطوير عمل السيارة لاستيعابها مكيف بارد. إذ تلفت السيارة لأى سبب قد يتركها صاحبها، وآخر يبدأ فى إصلاحها ومحاولة إرجاعها كحالتها الأولى قبل أن تتلف وتتعطل عن الحركة.

أما من أمثلة التفكير اللاعقلانى، استصلاح الأراضى الزراعية ذات التربة الطينية والقريبة من مصادر المياه، وذلك لإنشاء مشاريع إسكانية أو مشاريع صناعية أو مجمعات تجارية. هل من المنطق والتفكير السليم بناء وحدات سكنية بآلاف الملايين من الأموال على السواحل للاستمتاع بها شهرين فقط من كل عام، أى أن كفاءة تشغيلها واستغلالها لاتزيد عن عشرين بالمائة من الأمثلة الأخرى للتفكير الأحمق، تقبل التلوث البيئى والسمعى دون بذل المجهود للقضاء على كل مصادر التلوث. ومن أسوأ التفكير العقلانى، الاستسلام لكبت حريتنا ، والتهاون فى المطالبة بحقوقنا فى إثبات ذاتنا الفردية دون المساس بحق المجتمع.

كان الإنسان يستخدم العقل منذ أن وجد ولكن ليس بكفاءة ، لم يستخدم المخ الاستخدام الأمثل فى التفكير المنطقى المرن الذى يتجه إلى التساؤل والشك فيفكر ويبحث ، إذ تعرض الإنسان لمشكلة قد يتركها فرد بدون حل ، وقد يحاول آخر فى إيجاد حل أو حلول عديدة لاختيار الأصلح والمناسب له. قد يأنس البليد الخامل إلى اليأس، أما الإنسان النشيط ذو العقل الراجح فإنه يفكر ويسأل ذو العلم، ثم يحاول مرة ومرات حتى يتوصل إلى حل ثم يحاول مرة أخرى فى تحسين الحل إذا وجدت فرصة للتحسين وإظهار الحل فى صورة أفضل. يركن الخامل إلى أحلام اليقظة ولا يتجاوزها، أما الإنسان العاقل النشيط فيحقق هذه الأحلام . يبدد الغبى مجهوده فى صراع سلبى يؤدى إلى تدميره أما الإنسان العاقل فيبنى ولا يهدم، يتعاون ولا يتنافر، يحبذ مصلحة المجتمع عن مصلحته الشخصية.

مثال آخر لاستخدام العقل، بفرض أنك حصلت على مبلغ من المال، يمكنك صرف هذا المال فى أوجه عديدة، مثل دعوة العائلة وعدد كبير من الأصدقاء على وجبة غذائية فاخرة، أو صرفه فى مجال اللهو والمتعة الحسية، ولكن التفكير العقلانى السليم يتطلب منا وضع أولويات الإنفاق بما يعود بالفائدة على صاحب المال مستقبلاً وحاضراً. قد تحتاج العائلة بعض المصروفات الدراسية أو المنزلية أو خلافه، مع وجوب تجنيب مبلغ من المال يمكن استثماره لمواجهة أى طارئ مستقبلى. إن إشباع الرغبات والشهوات والاحتياجات اللحظية فقط يتنافى مع مفهوم استعمال العقل

والمنطق. ليس المطلوب إلغاء المتع وحرمان النفس من لذات الحياة، بل من المفروض الترويح عن النفس حتى يمكنها تحمل شقاء المسيرة الحياتية، المطلوب فقط استعمال العقل واستثماره للحصول على أكبر فائدة من السعادة والمتع المتنوعة حاضراً ومستقبلاً. إن العمل للمستقبل يتطلب التضحية بمتع الحاضر وعليه يحد - وليس يمنع - الإنسان من إشباع بعض احتياجاته ورغباته الحاضرية فى سبيل فوائد أكبر وأكثر مستقبلاً، ومن أجل رفاهية أجيال قادمة ومستقبل يحيا فيه أولاده وأحفاده. كتب روبرت دال فى كتابه (التحليل السياسى الحديث) : «ان الناس تدفعهم عواطفهم ويرشدهم عقلهم، وان العاطفة هى بمثابة الريح التى تملأ أشرعة السفن، فى حين أن العقل هو بمثابة اليد الممسكة بالدفة. وفى مجاز آخر، نجد أن الإنسان بمثابة المركبة التى تجرها جياد العاطفة غير المستأنسة ويوجهها العقل، والرغبات الإنسانية شرسة، ولكن العقل يفرض الاعتدال. وبمساعدة العقل يستطيع الناس أن يكتشفوا قواعد أو مدركات عامة تمكنهم من تحسين فرص الوصول إلى الغايات التى تمليها عليهم عواطفهم . ومن ثم فإن كل الناس يسعون إلى القوة من أجل إشباع عواطفهم، ولكن عقولهم هى التى تدلهم إلى كيف يسعون إلى القوة بصورة تقلل من الإحباطات والهزائم واحتمالات الموت العنيف».

كيف يتم التفكير العقلانى المنطقى، الجواب فى صورته العامة هو: من خلال التطور فى جميع مجالات وأنشطة الكون شاملاً الطبيعة والإنسان . فالتقدم فى علوم الاجتماع والنفس والأنثربولوچى يؤدى إلى تحليل ودراسة سلوك وطباع الإنسان فى البيئات المختلفة والذى يعيش فى ثقافات مختلفة ، فيأتى قرار التفكير العقلى ليشمل ليس فقط كيفية الوصول إلى احتياجات أكبر قدر من المجتمع بل أيضاً احتياجات الأقليات وكذلك مواجهة ومواكبة التغيرات التى قد تحدث نتيجة للتطور الطبيعى وما يترتب على القرارات التى تتخذ. أيضاً التقدم فى العلوم الطبيعية والطب والصيدلة والزراعة والهندسة والاقتصاد، يؤدى إلى الوصول إلى القرار الأصوب لما فيه مصلحة لصحة جسده ورفاهيته، المعلومة والمعرفة تتيح لصاحب القرار مرونة أكبر فى اتخاذ القرار، ولكن تصيبه أيضاً بالحيرة من تعدد الحلول والقرارات المتاحة،

ويأتى دور علوم بحوث العمليات والمعظمة لاختيار القرار الأصوب والأفيد للوصول إلى هدف أو أهداف معينة ، فى ظل محددات مفروضة قسراً ممثلة فى الطبيعة أو اختيارياً مثل اختلاف أهواء وأفكار وآراء البشر.

التفكير العقلانى والمنطقى هو مراعاة شعور الآخرين حتى يراعوا شعورنا نحن الآخرين بالنسبة لهم، وهو السلوك السوى والتمسك بالقيم والأخلاق الحميدة. يجب أن ينطلق العقل بعد أن يتحرر من الخوف، وقيود التخلف، وأغلال تقاليد بالية لا تصلح فى عالم تقفز فيه حضارات جديدة إلى خارج كوكب الأرض. مازلنا نتمسك نحن العرب بتفاهات الأمور، تاركين الآخرين يتحكموا فى مصيرنا، ويستغلوا ثرواتنا. لقد رضينا بالقمع والاستعباد ، واستعذبنا الكسل والخمول، وتوارينا وراء تلال من الجهل وقشور الأراء والتفكير، وتلحفنا بغطاء الأساطير، واجتررنا حضاراتنا العتيقة دون تقدم أو تطوير. وصفونا بالتخلف ، ووصمونا بالإرهاب. لم يتبق لهم إلا حشرنا فى حظيرة الشاردين والمنبوذين ، ولم يتبق لنا إلا الموت بعد الذل والهوان.

مراكز التفكير عند الإنسان

العقل هو الكلمة المعنوية للمخ المادى، أى أن المخ هو الجزء المادى الذى يقوم العقل بعمله، وفيه تتحدد شخصية الفرد المنفردة عن غيره. يتكون المخ من نصفين كرويين متماثلين تقريباً، يرتبطان فيما بينهما بالعديد من المسارات الليفية. يحتل المخ حيزاً متميزاً فى رأس الإنسان، تغلفه جمجمة عظمية صلدة تحميه من الصدمات التى قد يتعرض لها. يحتوى المخ على خلايا عصبية (نيورونات) تشكل أساس التفكير وتتحكم فى السلوك، وهى تقوم بالتمثيل الغذائى للكربوهيدرات التى تحصل عليها من مجرى الدم لكى تستمد الطاقة اللازمة لأداء وظائفها. تحتاج الخلايا العصبية أيضاً إلى الأوكسچين لكى تواصل الحياة، فإذا تعذرت تغذية منطقة ما من المخ بالدم - مثلما يحدث فى حالة الجلطة الدماغية - فإن الخلايا العصبية لتلك المنطقة تموت نتيجة لحرمانها من الأوكسچين ، فإذا كانت هذه المنطقة مختصة بالتحكم فى حركة عضو ما ، أصيب هذا العضو بالشلل، وإذا كانت مختصة بوظيفة لغوية معينة، فإنه تحدث مشاكل فى الكلام وفى الفهم. إن الدلالة على ذكاء الكائن الحى هو حجم الطبقة الخلوية التى تكسو المخ من الخارج والتى تسمى بالقشرة المخية، وهى طبقة رقيقة من النسيج القشرى تتثنى إلى أعلى وإلى أسفل مكونة ثنيات تعرف بالأخاديد، وبروزات تعرف بالتلافيف . بالرغم من أن حجم المخ لدى بعض الحيوانات أكبر كثيراً من مخ الإنسان، إلا أن نسبة حجم القشرة المخية إلى المخ عند الإنسان أكبر من نفس النسبة لدى الكائنات الحية الأخرى. إن الفصوص الأمامية للمخ - والتى لها دوراً مهما فى عمليات التخطيط والتنظيم والمهارات العقلية عالية المستوى - تنمو فى الإنسان بدرجة كبيرة، بالنسبة لغيرها من الأجزاء لتمنح البشر قدرتهم العقلية المتميزة.

يعتبر المخ مركز القيادة الرئيسية الذى يتم فيه تجميع المعلومات من العالم الخارجى عن طريق الأعضاء المتصلة بالبيئة الخارجية مثل العينين والأذنين والجلد واللسان والأنف، ثم تجرى فيه عمليات التفاعلات المختلفة مثل العمليات الحسابية

فى الحاسب الآلى ليتم الفكر والتحليل واتخاذ القرارات اللازمة ليتمكن الجسم من القيام بعمليات مناسبة للموقف. تأخذ هذه العمليات الشكل الحركى أو الشكل التحليلى والتفكيرى (والأخير ما نسميه دارجاً بالعقل) . فى الشكل الحركى تقوم الأجزاء المختلفة من جهاز التوصيل بنقل قرارات المخ إلى الأعضاء المختصة فى الجسم لتنفيذ هذه القرارات ، أما بالنسبة للعمليات الخاصة التى تؤدى داخل جسم الإنسان مثل التنفس والدورة الدموية وهضم الطعام وإخراج النفايات، فتتولاها أجزاء معينة من الجهاز العصبى لها مستوى مختلف يسمى المستوى الانعكاسى.

يحتوى المخ البشرى على شبكة اتصالات فائقة التعقيد بالنسبة لقدرات الإنسان فى هذا المجال، حيث يحتوى على حوالى مائة بليون خلية عصبية يربط بينها ما يقرب من البلايين من الألياف العصبية، تنساب منها الإشارات الحسية المختلفة فى نظام فائق الدقة. يوجد أيضاً بلايين من محطات التقوية المتراصة بنظام دقيق حول الخلايا العصبية التى تقوم بتوصيل النبضات الحسية بين مختلف خلايا المخ. إن الحواس المختلفة مثل الرؤية والسمع والشم والتذوق والإحساس بعوامل الطبيعة من درجة حرارة وضغط وخلافه، لها مسارات ثابتة داخل المخ، فتنتقل هذه الأحاسيس عبر ألياف عصبية، ثم محطات ربط وتوصيل، من خلال الكثير من الخلايا العصبية حتى تصل الأحاسيس إلى المراكز الخاصة بها داخل المخ مثل مراكز الإبصار والسمع والشم والتذوق. إن انتقال الإشارات النفسية والعصبية المختلفة تتم على شكل رسائل ونبضات عصبية خلال الخلايا ثم الألياف العصبية حيث تؤدى فى النهاية إلى إفراز العديد من المواد الكيميائية فى نهاية الألياف العصبية، ينتج من نشاط الخلايا العصبية توليد تيارات كهربية إيقاعية فى صورة موجات كهربية وهى: ألفا وبيتا وثيتا ودلتا.

تعتبر مراكز الكلام والتفكير والكتابة من أكثر الملكات النفسية غموضاً وتعقيداً كما جاء فى كتاب (علم النفس الفسيولوجى) للدكتور أحمد عكاشة. تكمن فى هذه المراكز شخصية الإنسان من مهارات وتخيل وتفكير وإدراك نفسى، وعليه فهى مراكز تقدير وتقييم للأمور للتصرف المناسب الذى يقتضيه الموقف من خلال معلومات تم

الحصول عليها عن طريق الحواس الخمس. تكمن هذه المراكز فى الفص الجبهى، فى الجانب الأيسر للمخ حيث مركز بروكا ومركز ورنيكا. يقتصر وجود هذه المراكز على الإنسان الذى يعتبر هو المخلوق الوحيد - المعروف حتى الآن - الذى يتفاهم مع بنى جنسه باللغة والكلام. تتعاون مراكز الإبصار التى تنقل صور الحروف والكلمات وتحدد مسمياتها، والمناطق السمعية التى تنقل موجات الصوت لتصيغها كلمات، والمراكز اللمسية التى تنقل نوع الحس للشكل. تتعاون هذه المراكز مع مركزى ورنيكا وبروكا لتكونا فى قشرة المخ عدداً من الصور المختلفة.

بالتنسيق والربط بين هذه المراكز جميعاً يستطيع الإنسان أن يفكر ويعبر عن أفكاره وآرائه، وينطق، ويكتب. ويقوم مركز بروكا بتنسيق حركات العضلات اللازمة للكتابة والكلام، وضبطها بمقاييس دقيقة ومحددة. يرسل مركز بروكا تعليماته إلى المناطق الحركية فى القشرة المخية التى تمررها بدورها كسيالات عصبية إلى عضلات الحنجرة والشفة واللسان واليد، فتتحرك هذه الأجهزة حسب الإشارات الواردة من المخ.

يبحث علم النفس فى سلوك الإنسان الناتج من محصلة تفاعل الوراثة والبيئة المحيطة. يكتسب الفرد موروثاته عن طريق الجينات الموروثة من الأبوين والأجداد. قاد العالم الإنجليزى تشارلز داروين والعالم النمساوى جريجول مندل فى منتصف القرن التاسع عشر أبحاث علم جديد ينظر فى طلاسم التوارث واكتساب صفات من الوالدين والأجداد، وتطورت الأبحاث لتشمل الخلية الحية التى تعتبر الوحدة البنائية للكائن الحى.

يوجد داخل الخلية نواة تتكون من شبكة كروماتينية ملتفة ومتداخلة ، تتحول إلى كروموسومات عند الانقسام. تحمل الكروموسومات الجينات التى تحمل عوامل الوراثة. انكب علماء الوراثة على دراسة الجين فتوصلوا بالتحليل الكيميائى أنه يتكون من بروتين ومادة حمض نووى تسمى بالدنا (DNA) التى تعتبر المادة الوراثية لجميع صور الحياة تقريباً، مع وجود مادة وراثية أخرى لا تمثل إلا جزئ ضئيل جداً

تسمى الرنا (RNA) توجد فى بعض الكائنات مثل الفيروسات. تسمى المجموعة الكاملة من الجينات البشرية بالجينوم البشرى، الذى يأخذ شكل مصفوفة تتكون من ثلاثة وعشرين زوجاً منفصلاً من الكروموسومات ، ويرقم اثنان وعشرون زوجاً من هذه الكروموسومات حسب الترتيب التقريبى لحجمها ، ابتداءً من أكبرها برقم (١) وحتى أصغرها برقم (٢٢) ، أما الزوج المتبقى فهو كروموسوم الجنس وهما كروموسومان كبيران من (X) فى النساء، وكروموسوم (X) مع كروموسوم (Y) فى الرجال. يوجد على الكروموسوم (H) جين اسمه (D4 DR) ، وهو وصفه لبروتين يسمى مستقبل الدوبامين (Dopamine Receptor) ويضغط زر تشغيله فى خلايا أجزاء معينة من المخ. ومهمة هذا البروتين أن يبرز خارج غشاء عصبون عند اتصاله بعصبون آخر أى ما يعرف بالمشبك بحيث يكون مستعدا لأن يمسك بمادة كيماوية صغيرة تسمى دوبامين الذى يعتبر ناقل عصبى، يطلق عند أطراف عصبونات أخرى بواسطة إشارة كهربائية. عندما يلاقى مستقبل الدوبامين مادة الدوبامين فإنه يجعل عصبونه الخاص يطلق إشارة كهربائية خاصة به، أى أن طريقة عمل المخ هى إشارات كهربائية تسبب إشارات كيميائية ، تسبب إشارة كهربائية. يستطيع المخ باستخدام ما لا يقل عن خمسين إشارة كيميائية مختلفة أن يجرى حوارات كثيرة مختلفة فى نفس الوقت، فكل مادة ناقلة عصبياً تنبه مجموعة مختلفة من الخلايا أو تغير من حساسيتها للرسائل الكيميائية المختلفة.

ظهر فى العقود الأخيرة من القرن الماضى علم حديث يسمى بالهندسة الوراثية يختص بتكنولوچيا الجينات. تطورت أبحاث الهندسة الوراثية فى العقود الأخيرة كنتيجة للتطور السريع فى تكنولوچيا الحاسبات الآلية، وأمكن لعلماء الهندسة الوراثية وضع خرائط وراثية (Genetic Maps) تيسر عملية التعرف على الجينات ومعرفة قوة الترابط بينهما، فبعض الجينات تميل للارتباط الكامل مع بعضها مما يؤدى إلى ظهور بعض الصفات الوراثية أو عدم الارتباط فلا تظهر السلوك الجينى بالبيئة، فبعض خلايا الكائن الحى يمكنها تحمل تغير الظروف البيئية وتستمر فاعليتها،

بينما لاتستطيع بعض الخلايا التلائم مع التغيرات الجوهرية العنيفة فى البيئة المحيطة مثل التغيرات فى درجات الحرارة أو أشعة الشمس الحارقة.

تسابقت الدول المتقدمة فى إنشاء مراكز للأبحاث فى مجال الهندسة الوراثية لما له من أهمية كبرى فى مجالات كثيرة تخص الكائن الحى والزراعة. ويسير التقدم العلمى فى هذه التكنولوچيا بقفزات ملموسة حتى أنه فى العقد الأخير من الألفية الثانية استطاع الإنسان القيام بعملية الاستنساخ وتطبيقها على الحيوان كما استطاع اكتشاف معظم جينات الجنس البشرى، وتجرى الأبحاث حالياً لاكتشاف جميع الجينات المسئولة على أداء وسلوك الإنسان، ورسم خريطة كاملة لكل جينات الإنسان مما يساعد فى عملية الجراحة الجينية ، وإدخال الجينات الموجهة لتكوين مواد تجلط الدم عند حدوث جرح بأنسجة الجسم، كما تجرى حالياً فى مراكز الأبحاث زيادة كفاءة الجهاز المناعى بواسطة المنشطات الجينية، وإدخال جينات مناعية جديدة داخل جسم الإنسان.

تتلخص العوامل البيئية المؤثرة على تكوين الجهاز العصبى والسلوك على أربعة عوامل هى: الإجهاد أو الشدة، عطب أو تلف المخ ، الحرمان الحسى، وأخيراً إثراء أو افتقار البيئة. إن التعب والإرهاق والحرمان يحولوك عقل الإنسان إلى جهاز قابل للإيحاء وتغير المعتقدات. لافتقار البيئة دوراً هاماً فى التأثير السلبى على عمل المخ، فالمجتمع الفقير اقتصادياً وثقافياً ينتج أفراداً ذوى كفاءة عقلية محدودة وذكاء عام منخفض .إنها حلقة شبة مفرغة فالاستبداد والطغيان ، والاقتصاد المتدنى والثقافة المتخلفة كلها عوامل تؤدى إلى تدنى الذكاء العام للمجتمع وبالتالى مزيد من الفقر والتدهور والخضوع ، والعكس صحيح، فالاقتصاد المرتفع، والحرية، والثقافة المتحضر عوامل تؤدى إلى التطور والرقى والازدهار.

تعتبر الذاكرة إحدى الوظائف العقلية المختصة بذكريات الإنسان، وما مر به من تجارب وما تعلمه من معلومات . إن قوة أو ضعف الذاكرة تتأثر عادة بدوافع الفرد وتكوينه النفسى، فتعمل دوافع الفرد الشعورية واللاشعورية على الاحتفاظ فى

ذاكرته ببعض المعلومات أو نسيان البعض الآخر. أما الذكاء فهو قدرة عقلية أخرى ويعتبر الوظيفة الأساسية للذهن أو العقل، ويتدخل فى كافــة الأنشطة العقلية أو الذهنية بدرجات متفاوتة. والذكاء من أبرز مكونات الشخصية الفردية وأقواها تأثيراً على الفرد.

يعرف الذكاء بأنه القدرة على حل عملية عقلية بشكل صحيح - قد تكون العملية منطقية أو رياضية أو فلسفية أو فى أى مجال آخر يتطلب التفكير والتصرف واتخاذ قرار. . الذكاء أيضاً هو القدرة على الاستجابة الصحيحة ، للحقائق القائمة فى الحياة بصفة عامة وفى المجتمع الذى يعيش فيه الإنسان بصفة خاصة. لقد كثرت تعريفات ومقاييس الذكاء ولكن يمكن تلخيص هذه التعريفات فى النقاط التالية:

- القدرة على التفكير المجرد والقدرة على الاستجابة لأى مؤثر بشكل صحيح.

- القدرة على كبت الغرائز تحت ظروف معينة.

- القدرة على اكتساب المعلومات والقدرات والتعلم والاستفادة من التجربة والتكيف مع المجتمع المحيط والتكيف مع بيئة دائمة التغير، فإن أكثر الناس نجاحاً فى الحياة هم الأكثر مرونة لمواكبة أى تغير يحدث فى البيئة المحيطة أو المجتمع الذى يحيوا فيه.

- القدرة على التمييز بين القضايا المختلفة والتوصل إلى العموميات من الجزئيات واستبعاد الشاذ أو المختلف.

- القدرة على الاستجابة بمرونة وسرعة لمختلف المواقف مع عدم الانحياز الخاطئ، أى عدم التقيد باتباع سلوك معين عند التعرض لنفس الموقف بطريقة تكرارية مشابهة وإلا سيتحول سلوك الإنسان إلى سلوك آلى نمطى وليس سلوكاً بشرياً ذكياً.

- القدرة على اتخاذ القرارات الصحيحة بناء على الإدراك الحسى والعقلى لجوانب المشكلة والاحتمالات الواردة ونتائج جميع الاحتمالات واتخاذ أفضل القرارات التى تؤدى إلى تحقيق أفضل النتائج.

- القدرة على استنباط القوانين العامة من الأمثلة المحدودة ومعرفة جوهر الأشياء بالتمييز بين أنواع المعلومات المختلفة.

- نقل التجربة والخبرة الذاتية إلى مواقف ومجالات جديدة للتعرف على أوجه التشابه فى هذه المواقف والتعامل معها.

- القدرة على اكتشاف الأخطاء وتصحيحها وصولاً إلى تحسين الآداء.

- القدرة على فهم وتحليل المواقف الغامضة وغير التقليدية باستخدام أسلوب الاستنتاج المنطقى وكذلك القدرة على ربطها بالمواقف المشابهة.

دلت الدراسات التى أجريت على ارتباط الذكاء بمراحل العمر على زيادة القدرات العقلية للشخص الطبيعى بتقدم العمر حتى حول سن السابعة عشر، ويصل معدل الذكاء إلى ذروته من سن الثامنة عشر حتى حول سن الثلاثين ثم يبدأ مستوى الذكاء فى الانخفاض التدريجى.

قد يكون الشخص ذكيا فى أوقات معينة وذو ذكاء متدنى فى أوقات أخرى نتيجة لعوامل خارجية مثل الإجهاد أو القلق أو الخوف أو الإثارة أو المرور بالجزء السلبى من الدورة العقلية التى تستمر لحوالى ١٧ يوماً سلبياً (يمر الإنسان زمنياً بثلاث دورات وهى : الدورة المزاجية أو العاطفية (Emotional) بطول ٢٨ يوما، والدورة الذهنية أو العقلية (Intellectual) بطول ٣٣ يوماً، ودورة النشاط الجسمانى أو الفيزيائية (Physical) بطول ٢٣ يوماً، وتنقسم هذه الدورات إلى نصفين، الأول إيجابياً والآخر سلبياً.

ان جزء من الذكاء وراثى والجزء الآخر مكتسب من البيئة والمجتمع الذى يعيش فيه، ويختلف العلماء على النسبة المئوية لكل من الجزئين فالبعض يعتقد أن الجزء المكتسب يصل إلى الثلث والجزء الوراثى ثلثين والبعض الآخر يعكس النسبة إلى ثلثين للجزء المكتسب وثلث للوراثة، ويمكن القول بصفة عامة أن نصف الذكاء وراثى والنصف الآخر مكتسب.

يختلف نمط التفكير من شخص لآخر ، وعلى وجه العموم يوجد أربعة أنواع من أنواع التفكير وهو التفكير المرتبط بالعوامل الخارجية والتفكير المستقل النابع من الوحى الداخلى والتفكير المتجمع الذى يركز على حل وحيد لمسائل معينة، والتفكير المنفرج الذى يتميز بالقدرة على خلق عديد من الأفكار الجديدة، ويميل التفكير المتجمع إلى العلوم الفيزيائية والرياضيات وأصحاب التفكير المتجمع لهم آراء وميول تقليدية كما يميلون للكبت العاطفى ، أما أصحاب التفكير المنفرج فهم المتخصصون فى الفنون وعلم الأحياء ولهم ميول غير تقليدية ونشاط اجتماعى متميز ومنطلقين عاطفياً. توجد عوامل كثيرة تؤثر على مستوى ذكاء الجنس البشرى، وتشمل هذه العوامل:

- قلة الاستخدام الذهنى الذى يقلل من النشاط الكيماوى للمخ.

- الاكتئاب والقلق والإجهاد الحاد.

- الطرق المعيشية من كسل وخمول والتى تقلل من استنشاق كمية أكبر من الأوكسجين.

- المخدرات بصفة عامة.

- النظام الغذائى ، فيوجد أنواع معينة من الفيتامينات والمعادن التى تتوافر فى بعض الأطعمة من فاكهة وخضروات ولحوم تزيد من النشاط العقلى وقوة الذاكرة وسرعة رد الفعل.

ان الذكاء عامل رئيسى فى فهم نظام الحياة والتكيف مع المجتمع والتكيف مع التغير الذى يعتبر سمة الحياة، وبذلك يمكن اعتبار الذكاء من العوامل الهامة للتمتع بالحياة والحصول على السعادة وكذلك التطور والتقدم، هذا إذا استخدم فى الطريق الصحيح بما فيه من خير وصالح للمجتمع والفرد.

العقل هو العنصر الجوهرى فى كيان الإنسان، فهو الذى يقود الإنسان فى جميع مجالات حياته، من حب وكره، وعقيدة ودين، وسعادة وتعاسة ، وتقدم ورفاهية

أو تأخر واضمحلال.. إلخ. وبتنمية العقل الإنسانى تنمو المجتمعات والشعوب حضارياً بسلوك وضعه المجتمع وفقاً لمعايير تكونت على مر التاريخ وتطورت مع الزمان.

تعددت واختلفت المذاهب والآراء التى تطرقت إلى فلسفة العلاقة بين العقل والجسم. يرى المذهب المادى أن الإنسان برمته مثل أى شىء آخر هو كيان فيزيائى بحت فى كون مكون من جسيمات مادية تتحرك فى المكان، ثم قام العالم الألمانى أينشتين فى أوائل القرن العشرين، من خلال نظريته النسبية من ربط الزمان بالمكان ليصبح الزمان بعد رابع مع الأبعاد الثلاثة التقليدية. يزعم أصحاب هذا المذهب أيضاً بخرافة الاعتقاد بأن الإنسان له روح أو عقل، وتنسب حقيقة إمكان قيام الإنسان بأفعال مثل الكلام أو الاستدلال إلى كونه المادى وجهازه العصبى الشديد التعقيد والارتقاء . يعارض المذهب المادى المذهب التقليدى المتعارف عليه بأن الإنسان له عقل وروح لا تموت ولكنها خالدة بعد الوفاة، أى بعد أن ينتهى عمل أو وظيفة الجسم المادى. ساوى بعض فلاسفة العصر الحديث - أو ما يسمون بأنصار المذهب الثنائى - بين الروح والعقل، زاعمين أنه جزء منها، يفكر وله تخيلات وإحساسات، وأن العقل لا مادى، ووجوده ضرورى لتفسير السلوك الهادف الذى يحدده إدراك الإنسان ورغبته فى تحقيق هدفه فى المستقبل، على نقيض السلوك الذى يتحدد بفعل علل فيزيائية مسبقة . يرى أنصار المذهب التفاعلى (Interactionism) ان العقل والجسم قادران على تبادل التأثير العلنى، وعليه فإن أى حدث ذهنى يؤثر على الجسم، والعكس صحيح أيضاً، عارض هذا المذهب بعض الفلاسفة الذين يعتقدون أن الظواهر الذهنية لا يمكن ردها إلى ظواهر فيزيائية. ظهر مذهب آخر يسمى بالظاهريات الثانوية (Epiphenomenalism) يرى أصحاب هذا المذهب أن بمقدور الأحداث الفيزيائية أن تحدث أحداثاً ذهنية، فبدلاً من حدوث تفاعل فأنه يوجد علاقة عليّه من جانب واحد، أى من الجسم إلى العقل. عارض هذا المذهب بعض الفلاسفة الذين يرون أن جميع الأفكار ليس لها دور فى تحديد السلوك. قامت النظرية المثالية (Idealism) على وجود عقل، بالإضافة إلى مدركات ومشاعر، ولكنه

لا يوجد أشياء مادية منفصلة عن العقل، فالأشياء التى اعتاد الإنسان أن يعتبرها موجودة فى العالم الخارجى ما هى إلا علامات ظاهرية تتراءى للعقول، فالعقل فى نظر أصحاب هذه النظرية مجرد من الجسمانية ، أى بمعنى آخر مجرد من المادية. خلاصة القول أن الأفكار تعددت واختلفت ، وجميع هذه الأفكار والمذاهب والنظريات أساسها العقل بأى شكل من أشكاله.

ان العقل بالتفكير البيوسيكولوجى كما ورد فى مقال للكاتب الأردنى باتر محمد وردم هو الوعى الذى ينتج فى المخ ويظهر من خلال الفكر والإرادة والإدراك والذاكرة والعواطف والأحلام . يعرف الكاتب الفكر بأنه الآلية التى يتم من خلالها التفكير والذى يحتاج إلى ثلاثة عناصر هى الحواس، والقدرة على التعليم أى تنظيم المعرفة الواردة من الحواس إلى المخ بأساليب تصنيفية لتستخدم فى ذات الوقت أو لاحقا، ثم الوعى الذى يعرف بالإحساس والمعرفة بالذات والقدرة على التفكير. يوضح الكاتب تمييز الإنسان عن بقية المخلوقات بالإرادة الواضحة المعالم والقدرة على الاختيار بين البدائل ودراستها والطموح وراء تحقيق المفيد منها، وذلك بالتعاون والامتزاج بين جميع الملكات العقلية للإنسان مثل الوعى والفكر والتعلم والذاكرة والذكاء والعواطف والأحلام والخيال والإرادة. استطرد الكاتب فى نفس المقال: «قد لا تتجاوز حكم الغريزة والجينات فى الباطن، ولكنها تتحقق ضمن مجال من الوعى بالذات يجعل الإنسان يحس بأنه يمتلك حرية الاختيار على المدى البعيد. إلا أن التحليل الدقيق لدوافع الاختيارات فى الغالب لا تتجاوز غريزة البقاء والمصلحة الذاتية . وحتى سلوك الإيثار أو التضحية فإنه يهدف إلى بقاء النوع أو الجنس أو الحظ الوراثى الجينى».

تطرق الكاتب إلى النظرية الكلاسيكية لطبيعة الإنسان فى علم النفس والمعروفة بهرم ماسلو والذى يصنف دوافع الإنسان الرئيسية على شكل هرم مكون من خمس طبقات مرتبة من القاعدة إلى القمة كالتالى:

- الاحتياجات الفسيولوچية الأساسية (الجوع ، العطش، النوم، . . إلخ).

- متطلبات الأمن والاستقرار والتى تؤدى إلى حماية الذات والبقاء على قيد الحياة ومواجهة الأخطار.

- متطلبات الحب والحنان والارتباط العاطفى والحصول على الاهتمام من الآخرين.

- تقدير الذات (Self Esteem) وهو ما يتضمن أحساس الشخص الإيجابى تجاه شخصيته وآدائه المهنى والاجتماعى والرضا العام عن سير حياته وعلاقاته مع الآخرين.

- تحقيق الذات (Self Actualization) أو وصول الفرد إلى الإحساس الذاتى بتحقيقه لغالبية أهدافه فى الحياة وبالتالى تحقيقه لأقصى طاقة كامنة فى شخصيته الفعالة.

ويستطرد الكاتب: « ان الترابط العضوى بين هدم الدوافع الذى يعتبر أحد أعمدة علم النفس الحديثة مع النظرية البيوسيكولوچية يعطى تصوراً علمياً محكماً حول الطبيعة البشرية وتمحورها حول الذات الفردية للإنسان حتى فى أعماق اللاوعى وهيمنة الذات على كل مظاهر السلوك البشرى. وهذا من الأسباب الجوهرية التى جعلت نظام الحكم الديمقراطى الانتخابى - بمختلف أساليبه - الأكثر نجاحاً فى التعامل مع طبيعة الإنسان واستغلال طاقاته الإنتاجية مقابل مردود يشبه دوافعه بنسبه متفاوتة وتراجع مد النظرية الشمولية القهرية دينية كانت أو قومية أو أيدلوچية» . ان تطبيق النظام الديمقراطى بصفة عامة هو الأفضل، بشرط أن يرتبط تطبيق النظام الديمقراطى بالقيم السلوكية والأخلاقية المتحضرة والتى تدعو إليها جميع الأديان السماوية والغير سماوية، والفلسفات الراقية، فبدون تسيد العدل والصدق والإخلاص والإيثار وسائر الأخلاقيات الحميدة، وكذلك التفكير العقلانى تصبح الديمقراطية أداة هدامة فى أيدى زمرة من المنتفعين الذين يطوعون الديموقراطية لمصلحتهم الذاتية. ان تطبيق الديمقراطية يتطلب إعداد حضارى مسبق من خلال الأسرة ودور التعليم والإعلام، لتتحول الديمقراطية إلى أداة فعالة إيجابية لصالح المجموع.

حتمية الاختلاف

عند البحث فى طبيعة عمل العقل البشرى، يظهر سؤال فلسفى وهو ما إذا كان الإنسان حر فى اختيار القرار أم أن المنظومة الكونية بكاملها بما فيها النظام البشرى من عمل الأجهزة المختلفة للجسم (دورة دموية ، تنفس، هضم. . .) وكذلك عمل العقل لها صفة الحتمية (Determinism) تولدت قضية حرية السلوك الإنسانى أو حتميته مع تقدم العلوم الطبيعية فى القرن السادس عشر مع اعتماد العلوم المتطورة فى ذلك الوقت على فكرة العليّة، بمعنى أن لكل حادث علة. لقد اعتقد علماء هذا العصر أن الأحداث تحدث فى أنماط يمكن صياغتها صياغة عليه، أو فى صورة قوانين طبيعية، يمكن من خلالها الوصول إلى تنبؤات دقيقة إذا عرف المعطيات، أو العلل التى تؤثر فى الحدث. بمعنى آخر، إذا عرفت جميع القوانين مع جميع أحداث الماضى فمن الممكن التنبؤ بما سيحدث فى المستقبل، فالحدث الحالى هو نتيجة أو محصلة حتمية لجميع الأحداث السابقة التى هى بدورها محصلة لجميع الأحداث التى سبقتها. ومن هنا ظهرت نظرية الحتمية بصورتها الحديثة بعد أن كانت تعرف من قبل بالقدرية. ومع ظهور الثورة العلمية فى أوروبا فى القرن السابع عشر بدأ العلماء فى تطوير نظريات التنبؤ (Forecast/Prediction) القائمة على بيانات ومعلومات تاريخية مع فرض مكون للعشوائية (Stochastic/Random Component) ، ويتبع هذا المكون العشوائى المقابل لعدم التأكد (Uncertainty) لنظرية الاحتمالات (Probability Theory) . تطورت نظـــرية تحليل الدالة الزمنية (Time Series Analysis) واستنباط النماذج الرياضية الخطية والغير خطية للاتجاه العام (Trend) بالطرق الاستقرائية لتوفيق أفضل منحنى للبيانات التاريخية وتحليل الدورات الاقتصادية طويلة المدى وقصيرة المدى وكذلك الدورات الموسمية. ساعد على تقدم ودقة التحليل العددى ظهور الحاسبات الآلية فى منتصف القرن العشرين ولكن يظل المكون العشوائى قائماً لينتقص من نظرية الحتمية، أو ينتقص من قدرة الإنسان بالنسبة

للخالق إذا كانت النظرية الحتمية هى الصحيحة حيث أن المكون العشوائى مازال -حتى الآن- مجهولاً للإنسان معلوماً للخالق . ان عملية التنبؤ هى استدلال لما قد يحدث فى المستقبل ، ولكن يمكنها أن ترتد إلى الماضى فى حالة تطبيقها فى بعض العلوم مثل الجيولوچيا والبيولوچيا.

تختلف الجبرية عن الحتمية فى أن الجبرية تجعل المستقبل هو الذى يحكم الماضى عن طريق الغاية، بينما تجعل الحتمية الماضى هو الذى يحتم المستقبل عن طريق العلة، فالجبرية كما ورد فى كتاب د. يمنى طريف الخولى (العلم والاغتراب والحرية- مقال فى فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية):

«الجبرية تعنى أن ما يحدث قد قدّر أزلا وكان حدوثه محتوماً . غير أنها نتيجة للقول بقدرة الله على كل شيء، وإحاطته علماً بالأشياء كلها. ومعنى هذا أن ما يحدث إنما يحدث وفقاً لإرادة الله. وان المستقبل إذا كان داخلاً فى علمه تعالى، كان حدوثه بحسب علمه واجباً». تعتبر العليّة (Causality) أساس الاختلاف بين الحتمية والجبرية، إن العلية كما ورد فى المرجع السابق ذكره، وإن كانت رفضاً للغائية التى تقوم على أن الكون يهدف إلى تحقيق شيء لم يوجد بعد - فإنها (العليّة) مثل كل مبادئ العلم الحتمى تؤكد تناسق الطبيعة وانتظامها فى منظومة شاملة بحيث يكون الحاضر هو نتيجة أحداث الماضى، والمستقبل محتم وفقاً للقوانين الطبيعية، وعلى ذلك يمكن من له القدرة على الإلمام بجميع حوادث الماضى وجميع قوانين الكون التنبؤ بما سيحدث فى المستقبل دون وجود المكون الاحتمالى العشوائى.

من خلال المحاكاة والتمثيل دعنا نتناول ونحلل عمل الحاسب الآلى كمثال لما يحدث للإنسان، فالذى ينطبق على الحاسب الآلى قد ينطبق على الإنسان أيضاً، يوجد مقولة شهيرة عن الحاسب الآلى تقول (على حسب الداخل ، يكون الخارج)، دعنا نحاكى ونمثل الحاسب الآلى بالإنسان ونفرض أن نظير الجسد المادى للإنسان هو مكونات الحاسب المادية (Hardware) وهى تمثل الأجزاء المادية المكونة لجهاز الحاسب وتشمل أجهزة الإدخال وأجهزة الإخراج وأجزاء الحاسب الداخلية

مثل المعالج الدقيق (Microprocessor) والذاكرة والدوائر الإلكترونية والأسلاك. إن نظير الجينات الوراثية التى تحمل طرق عمل وظائف الجسد فى الإنسان هى برامج النظام فى الحاسب الآلى (System Software) وهى البرامج التى تستخدم فى تجهيز مكونات الحاسب للتشغيل ، أما البرامج التى تصمم لتنفيذ وظائف محددة إدارية أو محاسبية أو علمية أى البرامج التطبيقية (Application Software) فهى بعض الخبرات التى يكتسبها الإنسان والتى تستخدم التفاعل مع ما ورثه الإنسان فى جيناته لتنفيذ عملية حسابية أو منطقية.

إن البيانات الداخلة للحاسب هى الخبرات والمعلومات والبيانات التى يكتسبها الإنسان طوال الوقت. بدون تفكير أو تحليل كبير نستطيع أن نقول بأن مخرجات الحاسب تعتمد على المدخلات من بيانات وعلى البرامج المحملة عليه، ان هذا الحاسب ما هو إلا آداة تعمل عن طريق عقولنا وأيدينا، فالحاسب فى الحقيقة لا يفكر ولا يبتكر ولا يختار، فنحن الذين صنعناه وأدخلنا فى ذاكرته البرامج والمعلومات، البرامج المكونة من الطرق والدروب، فالاختيار والقرار أولاً وأخيراً ليس اختيار أو قرار الحاسب بل اختيارنا نحن وقرارنا نحن. . والإنسان فى النظام الكونى مثل الحاسب فرض عليه موروثاته من خلال الجينات وفرض عليه بيئته وعقيدته وأساطيره، حتى تجاربه ومعلوماته المكتسبة هى أيضاً مفروضة، أى جميع القرارات والأفعال من وجهة النظر هذه هى قرارات وأفعال حتمية وأن إرادة الإنسان لا وجود لها، أى أن الإنسان ليس حراً بل أداة لفعل البيئة والظروف المحيطة به ، بمعنى آخر فإن بداية الخلق بمكوناته وظروفه (Universe Start set) يحتم شكل النهاية وكذلك المسار من البداية وحتى النهاية.

فى القرن العشرين عرف الفيلسوف الأمريكى كورليس لامونت الحتمية بمقولته :«ان تيار التاريخ، وما يحمله من شتى مظاهر الاختيارات والأفعال الإنسانية، تحدد مساره مسبقاً تحديداً كاملاً منذ بداية الزمان» . يرى لامونت ان أى إنسان مقتنع بحيازته لحرية الاختيار أو حرية الإرادة يتميز بإحساس أعظم بالمسئولية يفوق الشخص الذى يعتقد أن الحتمية الشاملة تسود العالم وتتحكم فى حياة البشر، كما

يرى لامونت أن كل ما هو كائن قد تحددت له كينونة ما بمقدوره أن يحاول التنصل من المسئولية الأخلاقية المترتبة على ارتكاب الفعل الخاطئ، كالزعم بأنه كان مجبراً على فعل ما فعله، لأن هذا الفعل كان مقدراً تبعاً للقوانين التى تربط السبب بالنتيجة.

فى النصف الأول من القرن العشرين أيضاً ربط الفيلسوف هرمان هورن فى كتابه (الإرادة الحرة والمسئولية الإنسانية) بين الحرية ، وعناصر علم الأخلاق من أداء الواجب والالتزام السلوكى والضمير والثواب وخلافه. أيد هورن حتمية علم الأخلاق من المنطوق الذى جاء فى كتاب الفلسفة وقضايا العصر : « أن شخصية أى إنسان هى التى تحدد أفعاله ، وهى مسئولة عنها لأن هذه الأفعال قد صدرت عنها، لأنه قام بها اعتماداً على كونه هذا الشخص بالذات».

ربط الفيلسوف البريطانى والتر ستيس فى منتصف القرن العشرين بين الإرادة الحرة والأخلاق « بمعنى النواحى التى يتعين على البشر القيام بها من عدمه» ، فمن وجهة نظر ستيس أنه إذا لم تتوفر حرية اختيار للإنسان لما ينوى أن يفعله، وإذا كان ما يفعله يتم بفعل الإجبار أو الإلزام، فلا معنى لأن يقال أنه كان من الواجب أن لايفعل ما فعله، وأنه كان عليه أن يفعل شيئاً آخر مختلفاً، وعليه تكون جميع القواعد الأخلاقية من وجهة نظر ستيس - بلا معنى . لو كانت جميع أفعال الإنسان تتم وهو مجبر عليها فلن يكون مسئولاً عن أفعاله، كما لا يمكن توقيع عقوبة عليه، على فعل ما كان بمقدوره أن لا يفعله. يمكن الرد على أحاجى ستيس بأن الذى يؤمن بنظرية الحتمية، وبالتالى على عدم مساءلة الفرد أخلاقياً على عمل مشين، فأن بالحتمية أيضاً يكون الفرد الذى حكم على الفعل المشين بالنسبة له، مجبراً على هذا الحكم، أى كلا من فاعل العمل المشين والذى يحكم على هذا العمل بأنه مشين مجبرين فى الفعل بالنسبة للأول وفى الحكم بالنسبة للثانى، وعليه يصبح كل من الفعل المشين والحكم على الفعل المشين حتمياً.

تطرق ستيس فى كتاباته للحجج والمعارضة للمذهب الأخلاقى المطلق، والنسبية الأخلاقية. رفض ستيس النسبية الأخلاقية، ورأى أن المذهب المطلق هو

الأفضل بالرغم من صعوبة إثبات المبدأ الأخلاقى الصحيح، أو المعايير المطلقة فى الأخلاق. قدم كثير من الفلاسفة عدة نظريات تتعلق بالمبادئ الأخلاقية. من أبرز هذه النظريات هى:

• الأنانية (Egoism) : يرى معتنقو هذا المذهب أن الصالح الذاتى هو المعيار الوحيد الأنسب للسلوك، وينكر أصحاب هذا المذهب وجود أى واجب أخلاقى يدعوهم إلى التضحية بصالحهم من أجل صالح الآخرين. قد يسلك أنصار هذا المذهب سلوكاً كريماً من منطلق أن هذه الأفعال ستفيدهم على المدى البعيد.

يثار سؤال فى هذا الخصوص وهو ما إذا كان حق الإنسان للاستمتاع بحريته نوعاً من الأنانية، وذلك من منطلق أن مبدأ اللاأنانية يقوم على وضع سعادة الآخرين فى المرتبة الأولى. قد تكون التضحية بالمادة أو الجهد ملموسة ومجدية ولكن التضحية بالحرية ترتبط بالعبودية والرق، والخنوع والإذعان ، فالحرية يجب أن تخرج من إطار المجادلة فى موضوع الأنانية أو اللاأنانية.

• النفعية (Utilitarianism) : تنصب هذه النظرية على أن الأفعال الصحيحة هى التى تحقق أعظم قدر من السعادة لأكثر عدد من البشر. عند اختيار القرار فى مذهب النفعية يجب الأخذ فى الاعتبار أفضل العواقب لجميع الأفراد المشاركين أو الذين ينصب عليهم الفعل نتيجة لهذا القرار. انتقد كثير من الفلاسفة والاجتماعيين هذه النظرية من وجهة نظر أنه قد يكون الكذب أو السرقة أو حتى القتل أفضل القرارات إذا كانت ستعود بالفائدة على عدد كبير من البشر.

• الصورية (Formalism) : تقوم هذه النظرية على مبدأ (عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك) ، فصحة أو خطأ الأفعال وفقاً لهذه النظرية لا تتحدد اعتماداً على النتائج التى أحدثتها الأفعال، إنما على نسبية التعامل، .وكون الشخصية البشرية التى من سماتها الاختلاف . يرى عالم الاجتماع روبرت ماكيفر أن مبدأ معاملة الآخرين بمثل ما يحب الفرد أن يعامله الآخرين هو مبدأ توفيقى بين النظريات الأخلاقية

المختلفة لأنه قد طرح الاتجاه الذى يتعين اتباعه ، لكى يوصف السلوك بأنه السلوك المناسب أو الصحيح ، بدلاً من تحديد أهداف مطلقة.

كتب والتر ستيس فى كتاب له تحت اسم تصور علم الأخلاق (The Concept of Morals) إلى النسبية الأخلاقية من حيث عدم وجود معيار أخلاقى واحد، يقبل التطبيق بقدر متساو على جميع البشر فى أى زمان : «ليس هناك قانون واحد وشريعة واحدة ومعيار واحد، فهناك عدة قوانين وشرائع ومعايير أخلاقية. فما تدعو إليه الأخلاق فى مكان ما أو عصر ما قد يكون مختلفاً عما تدعو إليه الأخلاق فى موضع آخر أو عصر آخر. وتختلف الشريعة الأخلاقية عند الصينين اختلافاً بيناً عن الشريعة الأخلاقية للأوروبيين، كما تختلف شريعة زنوج أفريقيا عن الشريعتين الآخرتين، ومن هنا تعد أية أخلاقيات نسبية بالنسبة للعصر والمكان والظروف التى توجد فيها، ولا يجوز أن توصف بأى حال بأنها مطلقة».

ساق ستيس فى كتابه الحجج المؤيدة والمعارضة للنسبية الأخلاقية. أن إحدى وجهات النظر المؤيدة تذهب إلى أن علم الانثروبولوچى (Anthropology) وهو العلم الذى يدرس الإنسان من جوانب لدى المجتمعات والتجمعات الكثيرة الموجودة على سطح كوكب الأرض، من سيبيريا شمالاً إلى مناطق الأدغال الاستوائية، إلى بدو الصحارى، ومن قارة إلى أخرى، ومن أديان سماوية إلى أديان غير سماوية، ومن عقائد وعادات وسلوك مختلف، وذلك كله عبر تاريخ يبدأ من قبل الحضارات القديمة إلى وقتنا الحالى. أما معارضى قاعدة النسبية الأخلاقية فيذهبون إلى أنه مع وجود هذه القاعدة لن يكون هناك معايير للمفاضلة بين عصر وعصر آخر، أو بين حضارة وحضارة أخرى، أو بين سلوك أخلاقى وآخر غير أخلاقى ما دام كله نسبى ومع عدم وجود معيار عام يقاس بموجبه طرفا المقارنة.

تطرق عالم الاجتماع روبرت ماكيفر إلى اختلاف القواعد الأخلاقية، فهناك صراع غير قابل للمصالحة بين قاعدة تدعو إلى التواضع وأخرى إلى الكبرياء، وقاعدة تشير إلى الزهد وأخرى تشير إلى الترف، حتى فى العقائد التى تدعو بعضها إلى

التسامح وإدارة الخد الأيسر إلى من يضربنا على خدنا الأيمن، وأخرى تدعو إلى العين بالعين والسن بالسن. وأكد ماكيفر على عدم وجود أى احتمال للاتفاق على قواعد أخلاقية واحدة. كل إنسان يتشبث بقيمه وأفكاره داعياً الآخرين إلى التخلى عن قيمهم وأفكارهم، أنها ضرب من ضروب إثبات الذات والتأكيد على الاستقلالية.

أدخل العالم أينشتين الزمن كبعد رابع مع الأبعاد الثلاثة الكلاسيكية (طول - عرض - الارتفاع) وعليه أصبح وفقاً لهذا المفهوم أنه لا يوجد تعاقب للزمن فى الشكل الرباعى الأبعاد، فأى ذرة أو خلية فى هذا الكون - فى أى زمان وأى مكان - أو حتى حدث ما (ما الحدث إلا مجموعة من الذرات لها شكل معين Configuration متغير مع الزمن) يمكن تعريفه عن طريق الأبعاد الأربعة دون تسلسل زمنى، فجميع الأحداث الكونية منذ بداية الخلق حتى نهايته أصبح مسطح بواسطة نظرية الأبعاد الأربعة، وأصبح الحدث لا يؤثر فى أى حدث آخر ولكن يمكن اعتباره مكمل له. للتبسيط يمكن التشبيه بالصورة التى أخذت بالكاميرا فى وقت معين. ان العملية التى تمت فى الكاميرا هى عبارة عن مسح (Scanning) لمنظر معين تم تسجيله أو تصويره على ثلاثة أبعاد ، بعدين منهم مسافى أى فى أحداث المسافة والبعد الثالث زمنى أى تسجيل المنظر أو الشكل فى وقت معين، أما مسح البعد الآخر (الرابع) المتمم للأبعاد الثلاثة لم تستطع الكاميرا أن تسجله أو لم تؤده لعدم الكفاءة فى هذه الكاميرا أما إذا تم اختراع كاميرا تستطيع عمل مسح للأبعاد المسافية الثلاثة (طول - عرض - ارتفاع) وإخراج صور لا نهائية (كاميرة فيديو تعمل باستمرار لا نهائى) ، فعليه يمكن تمثيل المنظومة الكونية على مدى الزمان بمجموعة صور ثلاثية الأبعاد المسافية ، ومتراصة، ويشكل هذا الترصيص البعد الرابع (البعد الزمنى).

رفض كثير من الفلاسفة مبدأ الحتمية التى تمحو المسئولية الأخلاقية، وقاموا بتطوير النظرية الحتمية وأطلقوا عليها اسم الحتمية الرقيقة (Soft Determinism) والتى جاء فيها أن الناس قد يكونون مسئولين أخلاقياً رغم أن سلوكهم يخضع للحتمية . ومن البراهين التى لجأ إليها أنصار الحتمية الرقيقة القول بأن سلوك الشخص يعد حراً إذا لم يكن نتيجة لأى إرغام أو إلزام. عارض مبدأ الحتمية أيضاً

الكثير من العلماء بعد أن قام العالم الفيزيائى الألمانى ماكس بلانك فى الربع الأول من القرن العشرين من نشر نظرية الكم (Quantum Theory) والتى تنص على أن الإشعاع لا ينطلق من المادة على شكل تيار متصل، بل ينطلق على هيئة مقادير منفصلة تسمى بالكمات (Quanta) ، وأن هذه الكمات لا تنطلق بشكل ثابت وواحد عند نفس الظروف، ومن ثم ظهرت نظرية عدم التأكيد (Uncertainty Theory) والتى أنكرت مبدأ الحتمية فى العلوم الأدنى من الذرية (العلوم المتفرعة من علوم الذرة) . ظهرت موجة المناداة باللاحتمية وتطبيقها ليس فقط على العلوم الطبيعية بل أيضاً على العلوم الإنسانية، وانقسم العالم - كالعادة - ما بين مؤيد ومعارض وتعددت الآراء والنظريات وظهر الاختلاف الذى هو سمة من سمات الكون.

كتب فى مجال سمة الاختلاف ارنست ماير فى كتابه (هذا هو علم البيولوچيا): «فى عالم البشر - كما فى جميع الكائنات التى تتكاثر تزاوجياً - تسود حقيقة بيولوچية ، هى أنه لا يوجد اطلاقا فردان متشابهان . فكل فرد هو مجموعة من الخصائص المورفولوچية (الشكلية) والفسيولوچية (الوظيفية) والنفسية (السلوكية) المترابطة فى توليفة (Combination) بحيث يتألف منها كيان لا شبيه له، إذ أن لهذه التوليفة عوامل جينية هى التى تتحكم فى تشكيلها وإكسابها الشخصية المميزة. . إلا أن هناك نوعاً من التمايز يوجد بين أفراد الكائنات التى تعيش حياة مجتمعية (Social life) ذلك هو تعدد الأشكال (Polymorphism) ، وهو تمايز فئوى مرتبط بتوزيع العمل وضرورى لسلامة الجماعة، التى يجب أيضاً أن يسودها نظام عام يكفل الحقوق والواجبات، وواضح أن هذا التمايز الفئوى أكبر من الاختلاف بين الأفراد. ولكن هناك ما هو أكبر من التمايز الفئوى ذلك هو التباين (Diversity) أي الاختلاف بين الأنواع . . ومن المعروف أن التمايز البيولوچى بين الأفراد قد يحول دون تحقيق التقدم فى مجالات عديدة : كالتعليم والتربية البدنية والطب، وهنا قد يساء استغلال شعار المساواة فلا يتحقق باسمها إلا الضرر. والحقيقة أن تطبيق مبدأ المساواة يحتاج إلى حس مرهف لتحرى العدالة فى مواجهة حالات التمايز البيولوچى». وفى هذا

المعنى قال (هلدين) عبارة هى: «من المتفق عليه عموما أنه لا حرية من دون تكافؤ الفرص. ولكن الحقيقة التى لم يتبينها الناس بالدرجة نفسها من الوضوح هى أن تحقيق الحرية يتطلب شرطين آخرين، الأول هو تنوع الفرص بما يناسب مختلف مستويات القدرة على العمل بين أفراد المجتمع، والثانى هو التحمل سواء من قبل هؤلاء تجاه المجتمع أو من قبل المجتمع تجاههم، حتى لو كان المستوى الذى يعجزون عن إدراكه ضرورة حضارية، ما دام عدم بلوغهم إياه لن يتسبب فى إيقاف دولاب العمل فى المجتمع».

استطرد ماير فى نفس المرجع السابق ذكره الكتابة فى مجال نسبية المعايير: «بالضمير يميز الإنسان بين الفضائل والرذائل ، وبالعقل يضع معايير الحكم على الأفعال الاحتمالية وفى مقدمة هذه المعايير النسبة بين نصيب الفرد ونصيب الجماعة، فيما ينتج عن تنفيذ الفعل من خير أو شر. وبعد نشأة الحياة الاجتماعية كثرت الأفعال الاحتمالية، فزاد اعتماد الإنسان على العقل فى تقيمها وفقاً للمعايير التى يضعها هو ويطبقها أيضاً ، وكان هذا مدخلا واسعاً للاختلاف فى الحكم على كثير من الأفعال الأخلاقية اختلافا مرتبطاً بنصيب الوحدة الاجتماعية من الحضارة والثقافة ، ومنه انبثقت من المعايير الأخلاقية الأساسية والثابتة معايير فرعية مؤقتة ومحلية، ويمكن أن نسميها الأعراف (Norms) لعل أهم فرق بينها وبين المعايير الأخلاقية الأساسية هو اختلافها فى الحكم على طبيعة الفعل الأخلاقى الواحد باختلاف الزمان والمكان وطبيعة التركيبة الاجتماعية، فتحديد النسل مستحب والإجهاض مباح فى عرف المجتمعات ذات الكثافة العالية والمتحررة من قيود الشرائع السماوية، وكذلك فى البلاد التى يدعوها وعيها الحضارى إلى الحرص على تأمين أعلى مستوى معيشى لمواطنيها، بينما يعتبر تحديد النسل عيباً والإجهاض جريمة فى المجتمعات المحافظة أو القليلة الكثافة أو التى تسودها مفاهيم أن الذرية ثروة وعزوة... حاول فلاسفة الغرب معالجة قضايا المعايير الأخلاقية لتحديد مراتب القيم الأخلاقية. وهناك اتفاق عام أن الصدق والعدل كانا أهم معايير للأخلاق فى الأزمنة القديمة، أما فى العصر الحديث فقد ظهر مصطلح تعميق معنى حياة الفرد»

ويعنى تعميق حياة الفرد أكبر قدر من الحرية والديمقراطية والرفاهية وكذلك الحفاظ على البيئة التى يعيش فيها الفرد.

كانت الأرض المسطحة - قديما قبل ظهور نظرية كروية الأرض - مركز الكون، أما الآن فقد أصبح الإنسان خاصة فى الفلسفة الغربية الحديثة هو مركز الكون، ومن البشر كمجموع ظهرت الفردية كمحور رئيسى وأساسى للتفاعل الديناميكى الذى عليه تقوم المنظومة الكونية، فالبشر عامة لهم الحق فى الحرية، وفى العيش فى رفاهية، وفى بيئة نظيفة، وتظهر فردية الإنسان من أجل الصراع اللازم للتطوير والتقدم والرقى داخل أطر موضوعة فى المجال القانونى والسياسى والاجتماعى والبيئى. دعت الليبرالية الحديثة إلى مزيد من الحرية فى الحياة الاجتماعية، وفى النواحى الاقتصادية والمالية والتجارية، ونبذ القيود الحمائية الضارة للاقتصاد من وجهة نظر الليبرالية الجديدة.

زاد الصراع المادى والثقافى خاصة بعد انهيار الشيوعية وتخلف الاتحاد السوفيتى عن ركب الدول التى تسود وتسيطر، وأصبح الفرد فى القرن الحادى والعشرين هو المغزى والمعنى بالاهتمام والحماية. كتب عالم الاجتماع البريطانى انطونى جيدنز فى كتاب (بعيداً عن اليسار واليمين - مستقبل السياسات الراديكالية) عن النظرة الجديدة للإنسان ، الذى يجب أن يحمل على عاتقه رسم المستقبل بعد ترك العقائد الموروثة والتى تكبله وتمنعه من التحرك بحرية نحو التطور الاجتماعى : «ان التاريخ لا يعبر عن إرادة الرب ، بل نتيجة الصراعات النشطة وابتكارية البشر أنفسهم. ولكن الإبداع البشرى للتاريخ أحقية العقائد كما طمسته يد التقليد الجامدة ومن ثم، فإن المهمة الملقاة على عاتق البشرية مستقبلاً هى الإمساك بدفة التطوير الاجتماعى بنفسها ولنفسها، وتوجيه مساره بطريقة واعية. . إننا نحن، أو بإمكاننا نحن. أن نكون سادة مصائرنا». ولكن إذا كانت الموجة الجديدة تدعو إلى الفردية، فهل قيد كل فرد نفسه بنفسه فعلاً، أو قيد البعض بعض آخر، وهل كانت لدى المقيد الحرية لتقبل القيد والأغلال، حتى لو كانت قيود عقائدية رضع منها منذ الصغر، وأصبحت جزءاً لاينفصل حتى عن ذاته الفردية بعد أن تغلغلت فى كيان الجماعة.

فى جميع الأحوال إذا كانت المنظومة الكونية ، ومنها النظام البشرى قائمة على الحتمية، فمحتم على البعض منا أن ينادى بالحرية، ويسعى لتطبيقها، وبالحتمية يناضل هذا البعض فى سبيل مبدأ الحرية من أجل تطور ورقى الإنسان كفرد وكمجتمع وكأمة، ومن وجهة النظر الأخرى فإن هذا البعض ينادى بالحرية من مبدأ حرية عقله البشرى فى اتخاذ القرار. لقد تعددت الفلسفات والنظريات، والمبادئ، واختلف الجميع ما بين مؤيد ومعارض، ولكن اتفق الجميع على حتمية اختلاف الاتجاهات الفكرية فى المنظومة البشرية، مما يستلزم وجود قدر كبير وملموس من الحرية والديمقراطية لإتاحة الفرصة لجميع الاتجاهات للتعبير عن مكنونها والتنفيث عن ضغوطها بالحتمية أو باللاحتمية.

إذا كان يوجد اختلاف فى موضوع الحتمية أو اللاحتمية، فالاختلاف كموضوع محتوم. الأفراد يختلفون فى كل شيء تقريباً، ليس فقط فى العلوم الغير عملية، بل أيضاً فى بعض المسائل العلمية، حتى بعض القوانين المكتشفة للطبيعة يحدث لها تطوير وتحسين. الاختلاف قائم فى الأفكار والآراء والأيدلوجيات ، والمسائل العقائدية والدينية والأخلاقية. هل الإنسان مسير أو مخير (اعتقد أنه محير) ، هل عملية الاستنتساخ أخلاقية ومطلوبة فى بعض الحالات المرضية، أو لتعويض فقد عزيز لدينا، أم هى عملية إنسانية إذا لم يكن لدى الرجل أو المرأة القدرة على الإنجاب، أم هى عملية غير أخلاقية وضد الدين والعقيدة. نحن نختلف، ومن حق الجميع فى الاختلاف دون أن يؤذى أو يضر هذا الاختلاف أحد منا. لقد تعددت النظريات الاجتماعية، محاولة الوصول إلى أنبل قيم للإنسان، والوصول إلى طرق تعايش الأفراد المختلفين داخل المجتمع الواحد ، ومن هذه النظريات بزغت الديمقراطية بدروبها وتفسيراتها المختلفة لتحاول جمع شمل الأفراد المختلفين. الاختلاف أيضاً يوجد فى القدرات العقلية للإنسان، فلا يوجد دماغان متشابهان ، فالاختلاف قائم فى حجم المخ وشكله، وحجم الطبقة الخلوية، وشكل الفصوص الأمامية ، فى عدد الخلايا والألياف العصبية، وفى قوة النبضات العصبية. لم تترك

الوراثة فرصة للاتفاق والتماثل، ولم يترك اختلاف الظروف المحيطة من تغذية ومعلومات مكتسبة، ومناخ، ومؤثرات خارجية أخرى.. الخ، مجالاً للسير فى نفس الاتجاه ، أى اكتساب نفس التجارب ونفس الخبرات فأصبح الإنسان نسيج قائم بذاته وليس له مثيل حتى لو تم استنساخه.

الحضارة الغربية الحديثة

الحضارة كما كتب ول ديورانت هى نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى. وتعنى كلمة الثقافة (Culture) العناصر المتداخلة والمتفاعلة لكل من: المعرفة، والعقيدة، والفن، والأخلاقيات، والعادات، والقيم ، وغيرها من القدرات والتقاليد، كأسلوب العمل واللهو، وأدوات الإنتاج، والتطور التكنولوچى ، وقواعد السلوك، وغيرها من العناصر التى يكتسبها الإنسان من خلال عضويته لمجتمع معين أو انتمائه لحضارة معينة.

تبدأ الحضارة فى مفهوم ديورانت: « حيث ينتهى الاضطراب والقلق لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، وتحررت فى نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع، والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضى فى طريقه إلى فهم الحياة وازهارها» . لا يأمن الإنسان من الخوف إلا إذا عاش فى مناخ ديمقراطى عادل، يشعر فيه بحريته وذاته الفردية دون أن يسىء للمجتمع الذى يحيا فى داخله. لقد ظهرت حضارات عديدة فى الشرق والغرب، ولكن يوجد تحت كل حضارة كما قال ديورانت بحرا من السحر والتخريف والشعوذة، والأساطير التى مازالت تعشش حتى فى حضاراتنا الحديثة.

عاشت أوروبا فى القرون الوسطى فى عصور من الإقطاع، والقهر، والتخلف، عصور مليئة بالخرافات والأساطير الدينية والدنيوية ، ظهر التمرد فى القرن السادس عشر بتحدى مارتن لوثر الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، فقد احتج لوثر على تجارة صكوك الغفران التى تبيح المغفرة وتبيع الجنة للمؤمنين المسيحيين، كان احتجاجه على كل شىء قديم وتقليدى فكان أبا للإصلاح فى الفكر الأوروبى، لقد كانت ثورة الإصلاح الدينى بداية لثورة الفكر وإيذاناً لعصر العقل فى أوروبا فى القرن السابع عشر. لم يكن هذا العصر للعلم فقط، بل أيضاً لارتقاء الفنون وآداب السلوك.

بدأ عصر العقل فى أوروبا فى القرن السابع عشر بعد أن ازدهرت التجارة والصناعة، وبعد أن تقدمت الفنون فى عصر النهضة فى القرون الوسطى . أصبح تقدم العلوم هو الأمر المفروض فى عصر بدأ فيه البشر مسايرة حياتهم اليومية بالأرقام والحساب. كتب ول ديورانت فى موسوعته قصة الحضارة : «ان تقدم التجارة والصناعة كان يفرض تقدم العلوم، كان من العسير أن تتسق النزاعات الأفلاطونية والفنية فى عصر النهضة مع الاقتصاد المتوسع ، فاشتدت الحاجة إلى نهج عقلى يمكن أن يعالج الأرقام والحقائق قدر ما يعالج النظريات والأفكار. كان لزاماً على الناس أن تعد وتحصى، وأن تعيش وتصمم أو تخطط، فى دقة وسرعة تحكمها المنافسة، واحتاج الناس إلى أجهزة للرصد والتسجيل، ونشأت المطالب التى تحققت باختراع حساب اللوغاريتمات والهندسة التحليلية وحساب المثلثات، واختراع الآلات والمجهر ، وطرق الإحصاء، والموجهات الملاحية، والأجهزة الفلكية، وتوافرت الحياة فى أوروبا الغربية على مواجهة تلك الاحتياجات».

توصل الإنجليزى وليم هارفى فى بداية القرن السابع عشر إلى نظريته عن الدورة الدموية، وأجرى التجارب والتشريح على الحيوانات والجثث الآدمية فغير نظرية جالينوس الأغريقى التى وصف فيها تدفق الدم من الكبد والقلب، فى القرن الثانى الميلادى. فى بداية هذا القرن أيضاً ظهر فرانسيس بيكون مبشراً بسيادة العلم، داعياً إلى الانفتاح الذهنى حول العلوم والنهوض بالمعرفة الجديدة من فلك وفيزياء وبولوچيا نابذاً الإذعان البالغ المتزمت للقديم، فقد كان يؤمن بأن المعرفة والعلم هما طريق القوة والحياة الأفضل. جاء فى نفس الجزء من المرجع السابق : «العباقرة العظام، على تعاقب العصور، كانوا يرغمون على الانحراف عن طريقهم، أن الرجال ذوو القدرة والفكر، فوق مستوى السوقة كان يسرهم، من أجل الشهرة، أن ينحنوا أمام حكم الزمن والجماهير، وهكذا فإن أى تفكير فى مستوى رفيع ظهر فى أى مكان كانت تعصف به رياح الأفكار السوقية» . كان اختراع الطباعة من أهم الأسباب التى ساعدت على نقل المعرفة وتداول المعلومات والأفكار فى أوروبا - بدأت الصحف فى الظهور فى ورقة واحدة وبشكل متقطع فى القرن السادس عشر،

مما أسرع فى الاطلاع على الاكتشافات والاختراعات الجديدة، وتعليم عامة الناس وتثقيفهم من خلال المقالات والأخبار المتنوعة المواضيع، وتفسير وشرح ما جاء فى الكتب الهامة التى أثرت فى ثقافات الشعوب المختلفة.

بدأت العلوم فى التقدم والترقى بخطوات واثبة وملحوظة فى القرن السابع عشر، فقد أجرى الإيطالى جاليلو جاليلى أبحاث فى الفلك وفى حركة الأجسام، وتوسع تورشيللى فى دراساته عن الضغط الجوى لتشمل ميكانيكا الرياح، وبحث جلبرت، واسترادا ، وكابيو، وكيرشر أبحاث فى الجاذبية والمغناطيسية ، وظهرت أبحاث ليبافيوس وباراسلوس فى علم الكيمياء، واختراع الإيطالى دى فيرما حساب الاحتمالات وسبق نيوتن فى حساب التفاضل. ابتدع مهندسون ذلك العصر نظام جديد للتحكم فى السدود المائية عن طريق البوابات والتى يمكن فتحها ميكانيكياً مما ساعد فى عمليات الرى. فى هذا القرن أيضاً اخترع باسكال أول حاسب آلى بدائى مكون من سلسلة من التروس ينقسم كل منها إلى تسعة أرقام والصفر، ولم يكن هذا الحاسب يقوم إلا بعملية الجمع فقط، ولكنها كانت نواة لظهور الحاسبات الإليكترونية بعد ذلك بقرنين من الزمان. وتقدمت الجغرافيا بفضل البعثات التبشيرية المسيحية والتجار والمغامرين الذين ذهبوا إلى العالم الجديد من أجل المغامرة والمتعة أو من أجل البحث والمعرفة والاكتشاف. ظهر فى تلك الحقبة كبلر الذى انكب على دراسة نظرية الفلكى البولندى كوبرنيكس وتوصل إلى أن الكواكب تدور حول الشمس فى مدار قطع ناقص، وأن سرعة دوران الكوكب تزيد كلما قرب من الشمس، وتوصل كبلر إلى إيجاد علاقة بين سرعة الكوكب وحجمه.

لم ترحب كهان الأساطير والعقول المغلقة بالأفكار الجديدة والتقدم العلمى، فتصدت للعلم والبحث والتطور. أصدرت محكمة التفتيش أمراً فى عام ١٦١٦ بأن يتخلى الإيطالى جاليليو عن آرائه الخاصة بدوران الأرض حول الشمس مثل باقى الكواكب والتى نادى بها الفلكى البولندى نيكولاس كوبرينكس فى القرن السادس عشر، وأصدرت المحكمة قرارها التاريخى : « إن الفكرة التى تقول بأن الشمس تقف بلا حركة وسط الكون فكرة سخيفة، وهى من الناحية الفلسفية فكرة زائفة،

وهى كذلك هرطقة لا جدال فيها، لأنها تناقض النصوص المقدسة، والفكرة التى تقول بأن الأرض ليست مركزاً للكون بل حتى أن لها دورة يومية زائفة من الناحية الفلسفية، وأنها على الأقل اعتقاد خاطىء» ، ثم أجبر جاليليو بعد ذلك بستة عشر عاماً على تكذيب نظرية دوران الأرض والتخلى عنها نهائياً.

فى القرن السابع عشر ظهر الفلاسفة الشكاكون أمثال برونو، وديكارت ، وهوبز، وسبينوزا، وبل، وفولتير، وهيوم، وكانط ، وبسكال الذى قدر قيمة العقل فكتب : « ان استبعاد العقل يعادل ترك ميدان التقوى للدخول فى ميدان الخرافات» .
لقد بدأ مفكرو أوروبا، طلائع عصر العقل الحديث الدخول فى أساسيات العقيدة من مدخل الشك والرفض والإنكار . أن التحسينات التى أدخلت على النظام الاجتماعى وأمن الأفراد فى أوروبا خففت من الإرهاب الدينى وقسوة العقيدة المتحجرة، وأحس الناس – كما كتب المؤرخ ول ديورانت – بأن الله سبحانه وتعالى رحيم غفور وليس كما صوره كهنة العقيدة الجامدة. لقد أثرت المعرفة بالأخلاق والفلسفات، والعبادات والطقوس الشرقية (بلاد العرب، والصين، والهند، . .) على عقيدة الأوروبى فبدأ المقارنة والتفكير، ثم الشك، فمزيد من التفكير والبحث، لقد ظهر فى ذلك الوقت الربوبيين (Deism) الذين آمنوا بالله دون الديانات المنزلة. تجرأ فلاسفة الشك والإنكار وزاد الإلحاد، وارتفع صوت المنادين بحرية العقيدة.

ظهر الفرنسى ديكارت فى القرن السابع عشر باحثاً فى علوم الرياضيات والفيزياء والفلك والتشريح وعلم النفس والفلسفة واللاهوت. وضع ديكارت قانون القصور الذاتى ، والذى ينص على أن أى جسم يظل فى حالة الجمود أو فى حركة مستقيمة إلا إذا تأثر بقوة خارجية، وقد مهدت أبحاثه للعالم الإنجليزى نيوتن استنباط قوانينه الخاصة بالديناميكا والاستاتيكا (قوانين الحركة والسكون) . كان ديكارت أيضاً من فلاسفة الشك الشامل فهو القائل: «ان ارشميدس لكى يتيسر له أن يزحزح الكرة الأرضية من مكانها وينقلها إلى مكان آخر ، طلب أن تكون هناك نقطة واحدة ثابتة لا تتحرك، وأنا بالمثل، سيكون لى الحق فى أن استبشر خيراً كثيراً إذا أسعدنى الحظ ، فأضع يدى على شىء واحد مؤكد لا نزاع فيه» ، انفرجت أسارير ديكارت عندما

وضع يده على شيء مؤكد - من وجهة نظره - فقال: « أنا أفكر . فإذن أنا موجود» كما كتب أيضاً فى كتاب (مقال فى المنهج) : « ان السبب الأساسى فى أخطائنا يكمن فى أهواء طفولتنا . . فالمبادئ التى اعتنقتها فى شبابى، استمر على الأخذ بها دون أن أتحرى حقيقتها ومبلغ الصدق فيها» . لم يكن ديكارت ملحداً، لقد أخرج فكرة الذات العليا من مجال الشك فقال: « من الذى كان يستطيع أن يبث فى فكره الله، إذا لم يكن الله موجوداً حقاً» . هذا هو الرد على من يربط الشك بالإلحاد ، فالشك ينصب على كل شيء خارج فكرة الذات العليا، فالشك يدعو إلى البحث والتفكير من أجل الوصول إلى الحقيقة التى لن يصل إليها الإنسان لأنها من خصائص الله الخالق الكامل، ولكن الشك يقودنا إلى طريق التطوير نسير فيه من أجل راحة ورفاهية وسعادة الجنس البشرى. كتب ول ديورانت فى موسوعته (قصة الحضارة - بداية عصر العقل) : « لم يعد مفكرى أوروبا - وهم طلائع العقل الأوروبى يناقشون سلطة بابا الفاتيكان - أعلى سلطة كنيسية - بل كانوا يناقشون وجود الله . . آمن بعض من الربوبيين بالله متماثلاً مع الطبيعة، وأنكروا ألوهية المسيح، ورغبوا فى أن يجعلوا المسيحية مذهباً أخلاقياً لا عقيدة دينية».

فى ذلك العصر ظهر أيضا مع الفرنسى الفيلسوف والرياضى باسكال، الكاتب المسرحى الفرنسى موليير، والفيلسوف الإنجليزى جون لوك، أول من أرسى مبادئ الديمقراطية الدستورية، والذى أثرت فلسفته فى مؤسسى الولايات المتحدة الأمريكية وفى كثير من فلاسفة الثورة الفرنسية لإعلان حقوق الإنسان. دعى لوك إلى التسامح بين الأديان كلها فقد كتب : « يجب ألا نستبعد إنساناً أياً كان عمله أو وظيفته لأنه وثنى أو مسلم أو يهودى».

كتب لوك كتاب (مقال عن العقل الإنسانى) . خلص لوك إلى القول بأن كل المعرفة بما فى ذلك أفكارنا عن الله وعن الصواب والخطأ مستمدة من الخبرة، وليست جزء من التركيب الفطرى للعقل. يعرف لوك العقل بأنه قوة الإدراك الحسى الذى يشمل:

أولاً : إدراك الأفكار فى عقولنا.

ثانياً : إدراك معانى الألفاظ.

ثالثاً : إدراك التفوق أو التنافر بين الأفكار.

تعنى الفكرة عند لوك، الأشياء الخارجية على حواسنا أو ما يسمى بالإحساس، أو الوعى الداخلى بهذا التأثير، أو الصورة الفكرية أو الذكرى المتصلة بها، أو الحركة التى تجمع صوراً منفردة كثيرة لتكون مفهوماً عاماً أو مجرداً أو شاملاً.

قامت فلسفة الفيلسوف الإنجليزى جون لوك فى القرن السابع عشر على احترام القيم الإنسانية والحرية الفردية، سواء فى الدين أو الفكر أو السياسة، كان لوك نصيراً لسيادة الشعوب، فالحرية ليست منحة من الحكام أو الملوك إنما هى حق طبيعى للإنسان. لقد كانت لفلسفة لوك تأثير مباشر لنجاح الحركات التحريرية فى أوروبا وأمريكا. لقد كان كتابه (مبحث فى العقل الإنسانى) أول محاولة منطقية لفهم المعرفة البشرية وتحليلها للفكر الإنسانى وعملياته وطبيعته.

ساعد مناخ الحرية فى المزيد من الأبحاث والاختراعات والاكتشافات، لقد تحرر العقل من القيود فبدأ العمل بكفاءة، اكتشف الهولندى انطونى فان ليفنهيك الميكروب. كانت قوة ملاحظة ليفنهيك والتطور فى صناعة العدسات والميكروسكوب سبباً فى هذا الاكتشاف الهام الذى أدى بعد ذلك إلى إنقاذ الملايين من البشر بعد تصنيع الأدوية والمضادات الحيوية. فى مجال السياسة قاد السياسى أوليفر كروميل القوى البرلمانية فى انجلترا. بالرغم من كون كروميل دكتاتوراً عسكرياً إلا أنه كان حريص على بناء الديمقراطية الحقيقية ورفض أن يكون ملكاً. نشر كروميل التعليم خلال سنوات حكمه وكان يؤمن بالتسامح الدينى.

فى نهاية القرن السابع عشر وفى بداية القرن الثامن عشر ظهرت اكتشافات العالم الإنجليزى إسحق نيوتن الذى وضع أول تلسكوب عاكس واهتدى إلى حساب التفاضل والتكامل ثم كانت أعظم اكتشافاته وهى قوانين الحركة والجاذبية العامة. كانت من نتيجة الفكر الحر بحث للإنجليزى توماس مالثوس عن تزايد السكان وأثره

فى مستقبل نمو المجتمع، فبدأت الشعوب الأوروبية فى التفكير فى وضع ضوابط للتزايد السكانى. بظهور النظريات الاقتصادية الحديثة على ذلك العصر، من خلال كتابات وأفكار الاسكتلندى آدم سميث بدأت الدول الأوروبية تتعرف على علم جديد يسمى بالاقتصاد السياسى. كان لكتاب سميث (البحث عن طبيعة وأسباب ثروة الأمم) أثراً كبيراً على الفكر الأوروبى، فقد أكد سميث على أهمية العمل، كما هاجم كل العوائق التى تضعها الحكومات ضد التوسع الصناعى، كما أورد سميث فى كتاباته أن السوق يقوم بتصحيح نفسه بنفسه من خلال تنظيم عمليات العرض والطلب للمنتجات التى يحتاج إليها الناس.

ظهر الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو فى القرن الثامن عشر ، بمؤلفات ودراسات أثرت فى الفكر الإنسانى مثل : مقال عن أصل الظلم، والعقد الاجتماعى، والاعترافات . يرى بعض المؤرخين أن كتابات روسو قد أدت إلى ميلاد الاشتراكية ، والعدالة الاجتماعية ثم أفكار الثورة الفرنسية. كانت أفكار روسو تدعو إلى الحرية والمساواة، فهو القائل: ولد الناس أحراراً، ولكنهم يرزحون فى الأغلال فى كل مكان. لم يكن روسو عنيف أو يدعو إلى العنف ولكن دعى إلى العنف دفاعاً عن الحرية. فى القرن الثامن عشر وفى فرنسا أيضاً ظهر فى عصر التنوير الأوروبى فولتير الفيلسوف الساخر الذى طالب بالديمقراطية وبحرية الفكر والعقيدة، والتسامح الدينى. من عبارات فولتير الشهيرة : «أننى اختلف معك فى التعبير عن رأيك ولكننى مستعد أن أموت دفاعاً عن حريتك فى التعبير عنه».

ساد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر مذهب الدوجماطيقية بين العلماء التجريبيين، الذين كانوا يعتقدون أن قدرات العقل البشرى لا نهائية، وأن العلم الإنسانى ليس له حدود. مع توالى الاكتشافات والاختراعات تكشفت للعلماء المتشككين قدرات الخالق التى يجب ألا تنسب إليها قدرات الإنسان مهما بلغ من العلم. أيقن العلماء بأن قدرة الخالق هى القدرة المجردة. لقد أوجد الله فينا العقل لنتعلم ، ونفكر، ونستكشف ولكن إلى حدود، ان قدرة الخالق هى اللانهائية ، أما الإنسان فله نهاية . . فى عمره وفى قدرته.

سبق المعتزلة فلاسفة الحضارة الغربية الحديثة فى الدعوة إلى الشك. كتب د. أحمد صبحى فى كتابه (الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى) عن فلسفة المعتزلة الأخلاقية، والذى وصفهم بالمعبرون عن النزعة العقلية فى التفكير الإسلامى لأنهم كما كتب وثقوا بالعقل إلى حد أن لو تعارض النص مع العقل رجحوا دليل العقل ولجأوا إلى تأويل النص، فقد أقاموا مذهبهم على النظر العقلى: « ولا يلزم الشك لتعرف مواضع اليقين فحسب بل للتوقف والتثبيت فيما يصل الإنسان من أخبار وما يرثه من معتقدات ولكن فيما ينبغى أن يكون الشك؟ ذهب ديكارت إلى وجوب التخلص من الآراء القديمة عدا الدين لأن حقائقه موصى بها والأخلاق لدواعى عملية لا تجتمع مع الشك والتردد، أما المعتزلة فقد ذهبوا إلى العكس فإن هذه الدواعى العملية ذاتها هى التى تفرض على المكلف الشك فى أصول الاعتقادات والعادات الأخلاقية من حيث أنها تتعلق بسلوك المكلف فى الدنيا ومصيره فى الآخرة، إنه لا يلزم كل مكلف النظر فى الجزء والمداخلة والكمون وإنما يلزمه النظر فى كل علم يخشى المضرة بتركه، فحال المكلف كحال المسافر عليه أن يسأل ويبحث قبل أن يقدم حتى لا يضل أو يطرق طريقاً فيه هلاكه، فالغرض من الشك أن يتحرز المكلف من الضرر بما يتولد عن الشك وعن التفكر من معرفة تمكنه من آداء الواجبات عقلية وشرعية ويكون عندها أقرب إلى الفضائل والطاعات وأبعد عن الرذائل والمعاصى». والسؤال الذى قد يتسائله البعض: لماذا اندثرت الفلسفة الإسلامية العقلانية، ومن له المصلحة فى القضاء عليها؟

إذا كان التسامح فى اختلاف العقيدة قد ساد أوروبا الغربية فى القرن الثامن عشر فالبداية كانت حول منتصف القرن السابع عشر . كتب المؤرخ ول ديورانت فى كتابه (قصة الحضارة) عن هذا العصر :« بدأت الدراسة الناقدة للكتاب المقدس فى هذا العصر لتجعل الناس أحراراً فى الإعجاب به أدباً والتشكك فيه علما، وجعل تعدد المذاهب النظام الاجتماعى أعسر فأعسر بدون التسامح المتبادل» . فى إنجلترا الجديدة أعلن روجر وليمر فى عام ١٦٤٤ : « إنها أرادة الله وأمره أن تباح لجميع الناس فى جميع الأمم أشد المعتقدات والعبادات وثنية ، أو يهودية، أو تركية، أو عداء

للمسيح»، وطالب جون ملتن فى عام ١٦٤٤ بحرية النشر دون رخصة، ودعى جيمس هارنجتن فى عام ١٦٥٦ إلى الحرية الدينية بغير حدود فقال: « وحيث تكون الحرية المدنية كاملة، فان للإنسان حسبما يملى عليه ضميره الحق فى الممارسة الكاملة لدينه دون أن يكون ذلك عائقاً لترقيته أو توظيفه فى الدولة». أما فى الدول التجارية مثل هولندا، وحتى فى البندقية الكاثوليكية، فقد اقتضت ضرورات التجارة التسامح مع شتى أديان التجار القادمين من بلاد أجنبية، وهولندا المتحررة هى التى نشر فيها الفيلسوف اليهودى سبينوزا (الرسالة اللاهوتية السياسية) فى عام ١٦٧٠ بدعوة للتسامح الكامل مع الأفكار المهرطقة . بعد سنين من الإقامة فى هولندا نشر جون لوك كتابه (رسائل فى التسامح) وازدادت المطالبة بالحرية الفكرية عقدا بعد عقد، حتى إذا بلغ - القرن السابع عشر ختامه فإنه لم توجد كنيسة تجرؤ على صنع ما صنعته الكنيسة بجاليليو عام ١٦٣٣ فى اتهامه بالكفر والإلحاد والتهديد بإعدامه.

كانت المعرفة تنتشر ببطء عن طريق الصحف، والمجلات، والنشرات، والكتب، والمكتبات، والمدارس ، والأكاديميات ، والجامعات . ظهرت الكثير من الجرائد والمجلات، وازداد تداول الكتب. كان التعليم يجاهد لتعويض الخسائر التى تكبدها من جراء الحروب الدينية فى فرنسا، والحرب الأهلية فى إنجلترا، وحرب الثلاثين فى ألمانيا. جاهد الفيلسوف والمعلم الألمانى كريستيان توماسيوس للتعبير عن آرائه العلمانية فى نهاية القرن السابع عشر، وكافح فى سبيل حرية المعلمين والطلاب فى التفكير . . فرض على كل أبرشيه فى فرنسا أن تمول مدرسة أولية بحيث كان المدرس عادة علمانياً، يختاره الأسقف ويشرف عليه. كان كتاب جون لوك (خواطر فى التعليم) أعمق الأبحاث التى كتبت فى النظرية التربوية فى نهاية القرن السابع عشر. كانت الثقافة الأوروبية كما كتب ول ديورانت تتغير ببطء، من الإيمان بالأساطير والسحر والخوارق ، إلى النزعة العقلية / العلمانية ، ومن اللاهوت وآمال الجنة ومخاوف الجحيم إلى خطط توسيع المعرفة وتحسين حياة البشر. حتى سيدات المجتمع الأوروبى قد سايرن العصر الجديد واتجهن إلى دراسة العلوم الجديدة مثل الكيمياء والفيزياء والتشريح.

كانت للعلوم الرياضية دوراً كبيراً فى عصر العقل والتنوير، فعن طريق المعادلات الرياضية أمكن القيام بعمليات التنبؤ المستقبلية بدرجة مقبولة من الدقة بدلاً من الالتجاء إلى السحر والتنجيم. كان القرن السابع عشر هو قرن كبار الرياضيين الأوائل أمثال ديكارت، ونابيير ، وبسكال ، ونيوتن، وفير ما، وهويجنز وليبنتز وغيرهم. لقد عرف هذا العصر حساب التفاضل والتكامل، والنظريات الأولى للاحتمالات ، فظهر علم الإحصاء الحديث. تطور علم الفلك تطوراً ملموساً من خلال الاكتشافات والأبحاث العديدة للإيطالى ريتشولى، ويوهان هيفيلوس ، وجان بيكار، ونيوتن وادموند هالى الذى نشر نحو عشرين بحثا عن أفلاك الكواكب، كما اكتشف المذنب المعروف باسمه (مذنب هالى) . كان هذا العصر هو بداية التكنولوچيا الحديثة واستخدامها فى الصناعة، فظهرت الآلات البخارية بصمام الأمان التى كان لها الفضل فى تطوير هذا الاكتشاف الهام، فدفع التطور الصناعى وعمليات النقل إلى الإمام، ليتحول المكان البعيد إلى رقعة قريبة على كوكب الأرض ويتحرك الإنسان بمعدلات سريعة وتأخذ الحركة نظام السرعة مما سارع فى التطور والمزيد إلى المعرفة واكتشاف المجهول.

دعى الفيلسوف اليهودى الثائر باروخ اسبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧م) إلى حرية التعبير، نابذاً التعصب والصراع الدينى. طالب سبينوزا الدولة أن تحيا حياة العقل فقال: « ليست الغاية القصوى للدولة أن تهيمن على الناس، ولا أن تكبح جماحهم بالرهبة، بل أن تحرر الإنسان من الخوف، حتى يعيش ويعمل آمناً مطمئناً كل الاطمئنان، دون أن يلحق به أى أذى أو ضرر. وليست غاية الدولة أن تجعل من الكائنات العقلانية حيوانات ضارية وآلات بل تمكين أجسامهم وأذهانهم من أداء وظيفتها فى أمان، ان غايتها أن توجه الناس ليعيشوا على العقل السليم الصادق ويمارسوه. ان غاية الدولة حقاً هى الحرية» . كما دعى سبينوزا إلى الحرية، دعى أيضاً الدولة أن تبدأ ببحث الخلق الأساسى للإنسان :« إن الذى يعرف بحق أن كل الأشياء تنشأ من ضرورة الطبيعة الإلهية، وتسير وفق قوانين أزلية طبيعية منتظمة، لن يجد إطلاقاً شيئاً جديراً بالكراهية أو السخرية أو الازدراء ، سيسعى ليعمل صالحاً،

إن الذين يعترضون على الناس ويؤثرون استنكار الرذائل، لغرس الفضائل، هم مصدر إزعاج لأنفسهم وللآخرين معاً. أن الرجل القوى لا يبغض أحد ، ولا يثير غضبه أحد، ولا يحسد أحدا، ولا ينقم على أحد ، وليس بأيه حال مغرورا. ان الذى يعيش على هدى من العقل، يحاول قدر طاقته أن يقابل الكراهية والغضب والاحتقار، بالحب والكرم.. وهذا الذى يرغب فى الانتقام، إنما يعيش حليف البؤس والشقاء . فالكراهية والانتقام تتفاقم إذا كانت متبادلة، وعلى العكس يمكن القضاء عليها بالحب، والناس بهدى من العقل لا يرجون لأنفسهم شيئاً لا يحبونه لسائر البشر».

ان الإنسان الحر فى فلسفة اسبينوزا هو الإنسان القوى، السعيد، الذى لا يطاوع إلا نفسه، ولا يفعل شيئاً إلا أن يكون عارفاً بما هو خير وأفضل، إن الإنسان الحر الذى يحيا بالعقل والمنطق السليم غالباً ما يعيش بدون خوف أو قلق، يعيش للحياة، ويحافظ على وجوده وفقاً لقاعدة مصلحته الخاصة. قد تكون مصلحته الخاصة أن يعيش وحيداً أو فى مجتمع، ولكن فى عصور الحضارة فإن المصلحة الخاصة عادة ما تتعاظم من خلال المجتمع. ان الإنسان الحر، القوى الواثق من ذاته وإمكانياته ينأى بنفسه عن الجهال حتى يكون بمأمن من بعضهم، لا يلجأ إلى الغدر. من جهة أخرى فإن الإنسان الذى ينقاد للانفعالات وليس للعقل، هو الإنسان الضعيف المستعبد، يقوم بالفعل أو العمل بإرادته أو قسرا دون أن يعرف ما يفعل، ودون أن يعلم ما يعمل. يرى اسبينوزا أن المعرفة هى التى تجعل للنفس بعض التحكم على الانفعالات، وان العقل وحده هو القوة التى يتصرف بها الإنسان تصرفاً يمكنه من كبح جماح انفعالاته، وكلما كانت معرفتنا بالانفعال أفضل، كلما كانت النفس فاعلة لا منفعلة.

ظهر فى القرن الثامن عشر رائد من رواد حركة التنوير الأوربية وهو الفيلسوف كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤) الذى جاهد فى سبيل الاتجاه العقلى حتى النهاية. فى كتابه (نقد العقل الخالص) كتب كانط: « إن ملكة المعرفة الحاصلة من المبادئ القبلية يمكن أن نسميها العقل الخالص، والبحث العام فقد قدرتها وحدودها يؤلف نقد العقل

الخالص». إن الإدراك الحسى والفكرة والعقل، كل منها لها حدودها واختصاصاتها، ففى استطاعة العقل أن يعطينا المعرفة مستقلاً عن أى خبرة مؤيدة . أدخل كانط الشك فى يقينه المعرفة كلها. لقد كتب كانط فى هذا الكتاب فقرات عن حق العقل فى حرية التعبير، كما عرف التنوير فى مقالا له بعنوان (ما التنوير؟) ، بأنه حرية الفكر واستقلاله، وله قول مأثور: «تجرأ على أن تعرف» ، وأبدى استنكاره على تخلف التحرر الفكرى نتيجة لمحافظة الأغلبية على ما هو قديم. يزعم كانط أن لكل فرد ضمير ، وإحساس بالواجب، وعياً بقانون أخلاقى فى أمر يكمن بداخل الإنسان، وكثيرا ما يتعارض هذا الشعور الأخلاقى برغباتنا الحسية، ولكنه أسمى من طلب اللذة ، وهو ليس ثمرة التجربة، بل هو جزء من بنائنا النفسى الأصيل، يأمرنا بأن نفعل الحق فقط من أجل الحق. ان الضمير فى رأى كانط أمره مطلق، يتخذ شكلين أولهما أن يعمل الإنسان بحيث تظل قاعدة إرادته صادقة كمبدأ للتشريع العام، وثانيهما هى أن يسلك الفرد سلوكاً، بحيث إذا سلك غيره نفس السلوك سار كل شىء على ما يرام «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك» ، أو بصيغة أخرى: أعمل بحيث تعامل الإنسانية، سواء ممثلة فى شخصك أو فى شخص أى إنسان آخر، وفى كل حالة، كغاية لا كمجرد واسطة إطلاقاً، أن هذه الصيغة الذى أعلنها كانط أشد ثورية من الإعلان الأمريكى أو الفرنسى لحقوق الإنسان.

فى النصف الأول من القرن الثامن عشر كان الكاتب الفرنسى مونتسكيو رائدا للحركة الليبرالية بكتابه (روح القوانين) الذى كان يدور حول فكرة الربط ما بين التشريعات الوضعية، أى التى يضعها الإنسان والقوانين الحتمية التى تحكم حركة الطبيعة. كان مونتسكيو يرى أن قدرة الإنسان على وضع قوانين صالحة لتنظيم المجتمع متوقفة على مدى الإدراك بأسرار القوانين الطبيعية، كما كان يرى أن الظروف العامة السائدة فى أى وقت هى التى تقرر الحدث، وأن المصادفة لا أثر لها فى التاريخ، فلكل حدث أسبابه المعنوية والمادية. كما ربط مونتسكيو بين القوانين التى تحكم مجتمع ما وبين الظروف الخاصة بالمجتمع من مكان وزمان أو ثقافة المجتمع بصفة عامة، فإنه نادى أيضاً بفصل السلطات، وأن تكون القوانين متماشية

مع قدر الحرية الذى يسمح به دستور البلاد للمواطنين، ومع العقيدة الدينية للسكان وميولهم ونصيبهم من الثروة ومع تعدادهم وتجارتهم وتقاليدهم. لقد كانت كتابات مونتسكيو نقدا حادا للنظام الاستبدادى ولتعسف الحكم المطلق، كما كانت مسرحيات الكاتب الفرنسى فولتير تسخر من أخلاقيات المجتمع الإقطاعى وطقوسه المتحجرة. فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر أخذ الفيلسوف الألمانى هيجل يدعو إلى الحرية وإلى قوة العقل الذى بدأ يغزو العالم ويحكمه : « إن الفكرة الوحيدة التى تجيئنا بها الفلسفة هى هذه الفكرة البسيطة التى تحملها كلمة العقل، ألا وهى أن العقل يحكم العالم، وبالتالى فإن التاريخ الكلى الشامل قد تطور على نحو عقلى».
نشر هيجل فى أوائل القرن التاسع عشر كتابه (علم المنطق) كما كانت من أقواله أيضاً: « لما كان الإنسان فى صميمه عقلا، فإن فى وسعه بل ومن حقه، أن يعد نفسه أهلا لأسمى ما فى الوجود. ولكن مهما فعل الإنسان، فإنه لن يستطيع أن يكون فكره صحيحه عما ينطوى عليه عقله من عظمة وقدرة. ومع ذلك، فإنه إذا آمن بسمو عقله، فلن يستطيع شىء أن يقف فى وجه هذا الإيمان». إذا كان هيجل يرى أن ما يميز الفكر البشرى هو إن كل بناء من بنيانه يحوى فى تكوينه شيئاً من تاريخ نموه وتطوره بحيث أن المحصلة النهائية لحركة الفكر تستوعب تراكم المكاسب المتوالية للفكر عبر تطوره المستمر ، وإن كان مرحلة من مراحل التاريخ البشرى تعتبر بطبيعتها مرحلة ناقصة، فإنه أيضاً أوضح أن المعرفة المطلقة هى نهاية مطاف المنظومة البشرية، كما جاء فى نهاية كتابه (فنومنولوچيا الروح) : « إن السبيل الموصل إلى الهدف النهائى، إلا وهو المعرفة المطلقة» . ان الإنسان فى النهاية - فى فلسفة هيجل- ما هو إلا مجموعة متراكمة من الأفكار باختلافها وتناقضها، ذلك بعد أن انتهت الأعمال بموت الإنسان.

ظهر مذهب العقلانية ، كمذهب فلسفى يتعامل مع ثلاثة أبعاد وهى : المعرفة (Epistemology)، والميتافيزيقا أى النظام الغيبى أو ما وراء الطبيعة (Metaphysic)، والأخلاق (Ethic) . كان الفيلسوف ابن رشد رائدا للفلسفة الإسلامية العقلانية، فهو يفرق بين ثلاثة أنواع من المعرفة وهى الخطابية، والجدلية، والبرهانية التى هى

أدقها لأنها تشمل المبادئ الأولية للعقل. ظهر ديكارت كمؤسس للعقلانية فى الحضارة الغربية الحديثة، حيث أنه يرى أن العقل هو الشيء الوحيد الذى يجعلنا بشرا ويميزنا عن باقى المخلوقات، وأن الآراء المختلفة ما هى إلا تباين فى قدرات العقل وسبل استخدامه . كان التعصب الدينى وجموده السبب فى المناداة بسلطة العقل فى الحضارة الأوروبية الحديثة. أجاب الفيلسوف كانط فى القرن الثامن عشر على سؤال: ما التنوير بقوله: « التنوير هو هجرة الإنسان من اللارشد، الذى هو عجز الإنسان من الاستفادة من عقله دون معونة من الآخرين. كما أن اللارشد سببه الإنسان ذاته، إذ لم يكن سببه نقص فى العقل، وإنما نقص فى التصميم والجرأة على إعمال العقل من غير معونة من الآخرين». استطرد كانط فى نفس الموضوع: « كن جريئاً فى أعمال عقلك. هذا هو شعار التنوير . فالكسل والجبن هما السببان فى بقاء معظم البشر فى حالة اللارشد طوال حياتهم، مع أن الطبيعة قد حررتهم من الاعتماد على الآخرين. بل هما السببان فى تسهيل الأمر للآخرين. إنه يطيب لنا أن نكون من غير الراشدين، بل يطيب لنا أن يكون الكتاب بديلا عن عقلى، والكاهن بديلاً عن وعى، والطبيب مرشدا لما ينبغى تناوله من طعام. وليس ثمة مبرر للتفكير إذا كان فى مقدورى شراؤه ، فالآخر كفيل بتوفير جهدى. إن الغالبية من البشر تدرك أن الطريق إلى الرشد ليس فقط وعرا بل محفوفاً بالمخاطر، ولهذا السبب فإن هؤلاء الأوصياء قد تكفلوا برعايتهم، وحذروهم من الاعتماد على أنفسهم، وذلك بعد إحالتهم إلى أغبياء» . إذا كان البحث العلمى والتطوير فى الحضارة الحديثة قد تحولا إلى منظومات تعتمد على تخصصات مختلفة فى صورة عناصر تكمل بعضها البعض، فإن الفرد مطلوب منه ألا يتقبل رأى أو عمل الآخرين كمسلمات ، فالعقل البشرى مفروض عليه التحليل والتفكير والنقد، إذا كان الهدف هو التطوير والرقى. لقد استخدام واستغل الإنسان الغربى عقله أفضل استعمال وأحسن استغلال، بعد تحريره من قيوده وانطلاقه نحو البحث والتطوير، وظل العقل العربى كامن ولاهى فى غيبيات ، ويجادل فى توافه الأمور، مستورداً جهد عقل الغربى بأغلى الأثمان، مبددا ثرواته بأبخس الأسعار. ثروات لم يحققها بمجهوده بل أنعمها عليه الخالق.

قاد فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر نشر التسامح الدينى فى أوروبا الغربية، لقد أدت المذاهب الدينية المتعددة إلى حروب دينية فى فرنسا وانجلترا وألمانيا مما أثر على الحالة الاقتصادية لهذه البلاد. من جهة أخرى أدى تعدد المذاهب الدينية بأن تنتهج مراكز التجارة والسياسين فى هذه الدول ، مبدأ التسامح الدينى حتى لايفقد رجال الأعمال زبائنهم ، ولا يفقد السياسيين اتباعهم. أخذوا الماديين فى الانتشار مع فلسفة التحرر الفكرى والدينى ، ومع زيادة الاختراعات والاكتشافات. من الأمانة التنويه بأنه رغم انتشار التسامح الدينى فان الدين مازالت جذوره موجودة خاصة فى الريف الأوروبى، والمدن الصغيرة، البعيدة عن مادية المدن الصناعية والتجارية.

تناول الفيلسوف الأمريكى جون ديوى فى النصف الأول من القرن العشرين موضوع الديمقراطية على أنها أعظم اتساعا من كونها مجرد شكل سياسى خاص وطريقة فى الإدارة الحكومية والتشريع، وتصريف الشئون الإدارية للدولة بالاعتماد على المشاركة الشعبية وبعض الأفراد المختارين للقيام بأعباء مهام الوظائف المختلفة فى الدولة. إن اللحن الأساسى للديمقراطية كأسلوب للحياة يحتم مشاركة جميع البشر فى تشكيل القيم التى تنظم حياة البشر سوياً. ان أساس الديمقراطية من وجهة نظر ديوى هو : « الإيمان بقدرات الطبيعة البشرية، والإيمان بذكاء البشر، وبقوة التجربة المكتسبة من تعاون الأفراد وتضافرهم. أنه ليس إيماناً باكتمال هذه القدرات، ولكنه إيماناً بأنها إذا تهيأت لها الفرصة، فأنها ستنمو وتتمكن شيئاً فشيئاً من توليد المعرفة والحكمة المطلوبتين لهداية الفعل الجماعى . ويستند كل مشروع أوتوقراطى – فردى – وتسلطى للفعل الاجتماعى على الاعتقاد بأن الذكاء المطلوب يقتصر على أقلية متفوقة ، ستساعدها مواجهة الموروثة الفطرية على التحكم فى سلوك الآخرين، اعتمادا على ما ستصنع من مبادئ وقواعد وتوجيهات لأساليب تنفيذها» . إن المساواة عند ديوى عنصر أساسى فى عقيدة الديمقراطية ، فكل إنسان له الحق فى الحصول على فرصة متساوية لإنماء قدراته بغض النظر عن قيمة هذه القدرات، فلكل فرد احتياجاته الخاصة به والتى تبدو هامة فى نظره، مثلما تبدو احتياجات الآخرين

هامة فى نظرهم . ومع وجود تفاوت طبيعى بين البشر، فمن الظلم عدم المساواة فى الفرص المتاحة وإلا أدى ذلك التفاوت إلى اضطهاد أصحاب القدرات والمواهب لمن يقلون عنهم قدرة وموهبة. من العدل أن يتساوى الجميع ولكن فى حدود إطار القانون الذى وضع ووافقت عليه الأغلبية مراعيا حقوق الأقلية. الجميع يجب أن يحصلوا على نفس القدر من الفرص المتاحة بغض النظر عن ذكائهم ، أو ثرواتهم ، أو عقيدتهم، أو أفكارهم.

تعرف الديمقراطية بأنها حكم الشعب أو سلطة الشعب. يرجع أصل الكلمة إلى اليونانية القديمة، وهى تتركب من مقطعين، الأول (Demo) ومعناها الشعب، والثانى (Kratos) ومعناها سلطة أو حكم. فى الحكومة الديمقراطية يكون الشعب هو صاحب السيادة وبيده مظاهر السلطة، ويخضع الحاكم لرقابة الشعب بجميع فئاته، ويتمتع الشعب فى الدولة الديمقراطية بالحريات العامة والمساواة . جاء فى كتاب (النظم السياسية) أنواع الحكومات الديمقراطية وهى الديمقراطية المباشرة وفيها يتولى الشعب بكل أفراده حكم نفسه بنفسه دون وسيط، والديمقراطية غير المباشرة (النيابية) وهى التى يختار فيها الشعب نوابا عنه يقومون بممارسة شئون الحكم، أما الديمقراطية شبه المباشرة فيتاح فيها للشعب أن يدلى برأيه ويقرر ، فقط فى الأمور الهامة التى تعترى الحياة السياسية عن طريق الاستفتاء أو خلافه. ان النظام الديمقراطى هو الذى يتيح للشعب المشاركة السياسية فى تصريف شئون الحكم. ليس بالضرورة وجود تعدد الأحزاب فى الحكم الديمقراطى ، ولكن وجود أكثر من حزب يخلق التنافس الإيجابى ورقابة كل حزب على الآخر. تقوم الديمقراطية الغربية التقليدية على مبدأ السيادة الشعبية . عرف المرجع السابق السيادة : « للسيادة مفهوم ذو شقين : فهى فى داخل الدولة تعنى مالها من سلطة على رعاياها وحقها فى فرض الأوامر والنواهى على المحكومين، وفى خارج الدولة تعنى مالها من سلطات فى علاقتها بالدول الأخرى. . تتلخص سيادة الأمة فى أمرين، الأول هو اعتبار السيادة حق أمر، أى حق يخول لصاحبه سلطة إصدار أوامر ونواه. . والثانى يوجز فى أنه ما دام هناك حق فإنه يجب البحث عن صاحبه وصاحب السيادة هى الأمة. . والسيادة من

خصائصها أنها سلطة عليا فلا توجد سلطة أعلى منها بل ولا معادلة لها. وتظهر إرادة الأمة صاحبة السيادة فى صورة القوانين التى تسنها السلطة التشريعية فتنظم بها أوضاع المجتمع . . والحاكم الذى يباشر مظاهر السيادة هو بمثابة وكيل عن الأمة، فالسيادة لا تقبل التنازل عنها ولا يمكن تجزئتها ولا يجوز التصرف فيها ولا تملكها بالتقادم ، فإذا استطاع الحاكم أن يستحوذ على سيادة الأمة لفترة مدعياً أنه صاحبها فذلك يعتبر غصباً للسيادة».

قد تبلور الحس السياسى فى الحضارة الغربية الحديثة من خلال تعميق وإبراز التميز بين العام والخاص، فالحرية الفردية يجب ألا تتعدى على حرية الجماعة، وحرية الجماعة لا تطغى على الحرية الفردية. ان التطور المستمر فى هذا التميز ينبع دائماً من الحوار الديمقراطى الحر لجميع الآراء والأفكار، المتباينة والمختلفة. واستمر هدف الحضارة الغربية الحديثة التأكيد على التوافق بين المصلحة العامة والمصلحة الفردية. لقد ظهر التمثيل النقابى للدفاع عن حقوق الفرد والجماعة أمام سيطرة فرد آخر أو جماعة أخرى تملك السلطة والمال، وظهرت المنظمات الغير حكومية أمام المنظمات الحكومية ومعارضة أمام أغلبية، وقد تتحول المعارضة إلى أغلبية أمام أقلية معارضة أخرى، وتتفاعل الاتجاهات المختلفة بالتأييد أو المعارضة فى تناغم وفى مناخ من الديمقراطية والحرية لتقوى ميزان التوازن بين المصالح المختلفة.

كتب إرنست ماير عن منشأ الحس الأخلاقى وهل هو فطرى أو مكتسب، وخلص إلى أن القيم الأخلاقية فى نظر الفرد تحدد لمحصلة تأثير عاملين، هما النزعات الفطرية والتعليم الذى له الدور الأخير فى خلق الحس الأخلاقى لدى الأفراد، وهذه القدرة تتناسب إيجابياً مع قابلية الفرد لاعتناق أعراف جديدة تسد ثغرات النقص فى المبادئ المتوارثة أو تحل محلها جزئياً. لقد تميز الإنسان الأوروبى فى العصور القديمة بالهمجية أو بما تسمى بالبربرية، بينما عاشت شعوب الشرق فى حضارة ورقى، لقد بدأت الحضارة فى مصر الفرعونية وبلاد بين النهرين، ثم فى بلاد الصين والهند. لم تتغير جينات الإنسان الشرقى أو الغربى ولكن اضمحلت الحضارات الشرقية وبزغت الحضارة الغربية منذ ظهور عصر العقل والعلم.

ان هدف البحث العلمى هو استخدام العلم للتحكم - بقدر الإمكان - ليس فقط فى كوكب الأرض بمكوناته ولكن التحكم فى الكون ككل، والاستفادة من موارده المختلفة التى تحويه. ان معالجة المشكلة لا يتم فقط بالدعاء ولكن بالبحث والتحليل والعمل على معرفة الأسباب للوصول إلى الحلول التى يمكن بها حل المشكلة أو على الأقل خفض المضار أو السلبيات التى قد تنشأ من وجود المشكلة. يفيد الدعاء فى شحن طاقة الإنسان المعنوية والنفسية ولكن لم ولن تعالج الاتكالية أى مشكلة. إذا كان الخالق عز وجل قد غرز فينا حب الاستطلاع ومعرفة المجهول، فلابد أن نتقن العمل بالبحث العلمى والمنطقى السليم. لقد استطاعت الحضارة الغربية الحديثة أن تصل من خلال البحث العلمى إلى مجتمع الرفاهية، والهيمنة العسكرية، تاركة خلفها شعوب ما زالت تنهل من خرافات الأساطير.

فى السبعينيات من القرن الماضى انتشرت فى الدول الغربية مراكز الأبحاث فى جميع مجالات الحياة أو ما يسمى بمستودع الأفكار (Think Tanks) أو ببنوك العقول (Brain Banks) تقوم هذه المراكز بالدراسات والبحوث، وخدمات استشارية، وتصورات للمستقبل، واستكشاف لأحداث متوقع حدوثها . تقدم هذه المراكز المشورة للحكومات والمؤسسات الاقتصادية ورجال الأعمال. تعتقد الحضارة الغربية الحديثة أنه قد آن الآوان للإنسان بأن يتولى تخطيط مستقبله ومستقبل كوكبه بدلاً من انتظار ما يجود به القدر. لم تكن مستودعات الأفكار فكرة حديثة ، فمنذ الحضارات الأولى ينشد الحكام وأصحاب السلطة المشورة من المفكرين والعلماء، ولكن تطورت المشورة الفردية وأخذت صور المراكز المتخصصة المدعمة بالمكتبات والحاسبات الإليكترونية والمعامل الحديثة التقنية. أصبحت معظم هذه المراكز مستقلة عن الجامعات أو المؤسسات الحكومية حتى لا تميل توصيات أبحاثهم إلى التحيز، ففى منظومة مادية قائمة على الاختلاف ، من السهل شراء الأفكار وتحويلها إلى سلعة تباع وتشترى ، تخدم من يدفع ثمن أعلى.

انتهى اختراع الأفراد فى القرن التاسع عشر، وبدأ فى القرن العشرين اختراعات المنظومة العلمية التى تتكون من أكثر من عالم، ومعامل أبحاث وأجهزة قياس،

وحاسبات آلية . إذا كانت (الحاجة أم الاختراع) ، فإن الحروب كانت هى الطلب أو الحاجة للاختراع ، ففى الحرب العالمية الثانية طلبت الجيوش الأوروبية وجيش الولايات المتحدة الأمريكية من علمائهم عمل الأبحاث فى مجال دقة التصويب وتفجير القنابل وفى مجال الطيران ومجال بحوث العمليات . لقد أصبح التطوير العلمى فى العقود القليلة الماضية سريعاً بحيث أصبح فى الإمكان - خاصة فى البلاد المتخلفة حضارياً - وجود ثقافتين فى مجتمع واحد وفى جيل واحد، ثقافة تتعامل وتتعايش مع الحاسبات الآلية المتطورة والإنترنت، والليزر والجينات والاستنساخ ، وعلم المنظومات ، وعلم تنبؤات المستقبل ، وعشرات من القنوات التليفزيونية الفضائية، وثقافة ما زالت تحيا فى قرن ماض أو فى عقود قليلة ماضية لم تتعرف على التطور الحديث.

بدأ النظام العالمى الجديد المسمى بالعولمة وانصهار النظام الاقتصادى العالمى فى بوتقة واحدة بمبادرة من الحضارة الغربية. بالرغم من محاولة الغرب تشكيل وتغريب ثقافة كوكب الأرض، فمازالت صراعات الأقلية والنزعات العرقية والأثنية تشكل خطرا على الديمقراطية . ان تعصب الأقليات والأصوليين والفقراء والمتضهدين ، يزداد قوة مستمدة من اليأس الذى يدعوها إلى الجهاد أو الانتحار فى سبيل الرجوع إلى سلف غابر أو إشباع احتياجات رئيسية أو المطالبة بحق مسلوب . لم تستطع الإمكانيات النفسية والاقتصادية للإنسان خاصة فى الشعوب الشرقية أن تتواكب مع التغيرات السريعة والحادة التى حدثت فى العقدين الآخيرين من الألفية الثانية، فظهر رد فعل ارتدادى مصاحب لروح عدائية للغرب، تشد طبقة المثقفين فى الشعوب التى كادت أن تتحول إلى الديمقراطية الليبرالية نحو الرجوع إلى الماضى القديم بقيمه وعقائده وعاداته وأساطيره ، بحلوه ومره، أى العودة إلى عصر ظلام جديد. لقد ساعدت الحضارة الغربية بعد استقرار النظام الديمقراطى الليبرالى فى بلادها، وبعد سقوط حائط الشيوعية السوفيتية، إلى انتكاسة مسيرة التقدم فى الشعوب التى كانت تتطلع إلى اللحاق بالحضارة الغربية الحديثة.

لم يستطع الشرقى أن يتواءم مع إزالة فروق عنصر الجنس (ذكر / أنثى) ، أو المحافظة على البيئة بالمعايير الغربية، أو الاتجاه نحو تعظيم قيمة الفرد على حساب الأسرة أو القبيلة، أو مجاراة الحرية الفكرية والحرية الدينية والحرية الشخصية ، فظهر النزاع بين الغرب والشرق ، أو بين الشمال والجنوب. تسائل الغرب بحسن أو سوء نية عن أسباب هذا الصراع، ناسياً أو جاهلاً أن نسبة ملموسة من هذا الصراع يرجع إلى الحضارة الغربية الحديثة فى العقود الماضية من حروب استعمارية ودينية، واحتلال وتجزئة العالم العربى إلى دويلات وإمارات . إن النظام الاقتصادى الجديد يسعى إلى الربح أياً كان، وفى أى مكان أو زمان. متجاهلاً الثقافة الشرقية المختلفة ومتجاهلاً التخلف الاقتصادى والسياسى والاجتماعى فى الشعوب الشرقية. بدون شك وراء هذا الصراع أسباب اقتصادية تختلقها مؤسسات عالمية تستفيد من تذبذب أسعار النفط، وارتفاع مبيعات السلاح وانتشار المنتجات الاستهلاكية الغربية. لقد استطاع الغرب أن يقضى على الصراع والصدام بين شعوبها، وإن بدا فى بعض الأحيان غير ذلك، ولكن نحن العرب لم نتعلم بعد قواعد اللعبة الجديدة أو نظرية اللعبة (Theory Of The Game) التى يلعبها الغرب تحت مسمى العولمة، أو حرية تجارة السلع والخدمات وحرية الاستثمار وتداول رأس المال، أو كوكب واحد بثقافة واحدة، أو كوكب نظيف بيئياً، ناسياً الآثار الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى أثرت سلبياً على مجتمعاتنا الشرقية / العربية.

الحرية والديمقراطية

يتغنى الجنس البشرى بالحرية ، يحلم المحروم منها بتحطيم أغلاله وفك قيوده. من يتمتع بجزء منها يتطلع إلى المزيد ، متمنياً أن يحصل على أقصى درجات الحرية، فالإنسان فى عقله الباطن ولتحقيق رغباته المكبوتة يتمنى العودة إلى حرية الماضى السحيق، حرية الإنسان الذى يهيم فى مجاهل الغابات أو فى عذرية الصحراء الجرداء المترامية الأطراف، أو على ساحل نهر أو بحر أو محيط، يعيش وحيداً، وتعيساً وسعيداً فى نفس الوقت. تعيساً من وحدته وسعيداً أيضاً بوحدته حيث لا صراع أو منافسه على متطلبات الحياة. تواصل منظومة الإنسان تقدمها وتطورها ليعيش الإنسان فى مجتمع بدائى محدود يحد من حريته، ثم يعيش الإنسان الحضارات القديمة بمعتقداتها وعقائدها وأساطيرها المتخلفة، ويواصل التاريخ مسيرته ليحيا ويعيش إنسان القرون الوسطى قروناً طويلة ليتيقن أنه فقد الكثير من حريته ومن آدميته، حتى بدأ عصر العقل فى أوروبا فى القرن السابع عشر.

لن يستطيع الإنسان أن يعيش فى حرية كاملة طالما يعيش فى مجتمع، فحرية الفرد قد تتعارض مع حرية الآخرين، حتى لو عاش الإنسان وحيدا، فالطبيعة لن تتركه يعيش فى حرية مطلقة ، فالمناخ يلزمه بارتداء ملابس ثقيلة شتاءً وملابس خفيفة صيفاً، والمناخ مع طبيعة الأرض تلزمه بأنواع معينة من الطعام، فالإنسان مقيد بالطبيعة كما هو مقيد بالآخرين. الحرية المطلقة هى فقط للخالق. إذا استبعدنا مبدأ الحتمية ، فقد يتمتع الإنسان بحرية مطلقة لأفكاره داخل عقله، ولكن إذا خرجت هذه الأفكار من زمام عقله، فالعقل والجسد يتحملان نتيجة هذه الأفكار من عقاب أو ثواب، قد يرضى الحاكم أو المجتمع على سلوك وأفكار الفرد فيثاب أو قد يعاقب إذا شذ السلوك أو لم تروق الأفكار لطبقة الصفوة.

تظهر مشكلة حدود الحرية الفردية لدى المجتمعات أو الشعوب التى تتطلع إلى حرية حضارية حيث تلزم الفرد التمتع بحريته داخل إطار من القيود ، بحيث يعيش

المجتمع ككل فى سعادة، فالفائدة المرجوة فى هذه الحالة هى فائدة الجماعة بحيث إذا خرج الفرد عن الجماعة وعاش وحيدا فى إطار أوسع من الحرية فإنه سوف يعيش وحيداً ومنعزلاً ولن يتمتع بمزايا المجتمع من أمان وعزوة وقوة، ومزايا اجتماعية ونفسية واقتصادية أخرى مثل التكافل والصحبة والحصول على احتياجاته أو تبادل المنفعة . إن إطار الحدود الفضفاض وإن كان يعطى مزيداً من الحرية إلا أنه يضعف الجماعة من خلال تنوع الثقافات وكثرة التباين والاختلاف . يظهر علم الاجتماع والانثروبولجى ليصف طبيعة الإنسان وثقافته وسلوكه فى المجتمعات المختلفة وفى الأزمنة المختلفة. إن الإنسان داخل المجتمع يتيح له إشباع معظم غرائزه وشهواته، وأيضاً يمكن له إثبات ذاته الفردية من خلال الصراع والمنافسة. وفى هذا المجال يظهر علم النفس ليبحث عن سلوك الإنسان داخل المجتمع كما يبحث عن غرائزه. تكتمل الدائرة بعلم الوراثة لتتشكل دائرة الإنسان، هذا الكائن المتميز بعقله الذى به يفكر ويبتكر ، يطور ويحطم ، هذا الإنسان المتباين الأهواء والسلوك الذى ما زال يبحث فى إذا ما كان لديه حرية إرادة أو له قدر محتوم.

هل الحد من الحرية التى بلا حدود هو السبب فى نشأة الضمير الإنسانى؟

ان الخوف من فقد حب واحترام الآخرين (المجتمع أو / السلطة) تكبح الجماح الغرائزى للفرد، وتحد من إشباع غرائزه فى تحليله لمفهوم الضمير اتجه العالم النفسى سيجموند فرويد إلى هذا المدخل فى كتابه (الحب والحرب والحضارة والموت) : « ان الضمير ، أو بالإصح القلق الذى صار فيما بعد ضميرا، كان فى البداية سبب انصرافنا عن الإشباع الغريزى، لكن هذه العلاقة انعكست فيما بعد، وأصبح كل انصراف عن الغرائز مصدراً من المصادر التى ينفجر عنها الضمير، وكل تخلى عن الشهوات إضافة جديدة تزيده تشدداً وتصلباً. وإذا أردنا أن نصوغ هذه الفكرة صياغة تنسجم مع ما نعرفه جيداً عن تطور الضمير، فإننا نقول أن الضمير هو النتيجة لتخلينا عن الإشباع الغريزى، أو أن التخلى عن الإشباع الغريزى الذى فرضته علينا عوامل خارجية، هو الذى أثمر الضمير الذى يطالبنا بدوره بالمزيد من التخلى عن الغرائز» .
ترجعنا الفقرة السابقة إلى نشأة الضمير فى مجتمعات الحضارات الأولى، فى مصر

الفرعونية وفى بلاد بين النهرين (البابلية والأشورية والسومرية) وفى الهند والصين، وفى بلاد الشرق عامة. كان الخوف من السلطة الدينية أى السلطة الكهونتية هى السبب فى نشأة الضمير، فلكى تحكم طبقة الكهنوت أو الحاكم باسم الدين، كان لابد أن تضع هذه الطبقة الكثير من القيود ، وتغرز أكثر، الخوف والخنوع فى شعوبها. تغير وازع الضمير فى الحضارة الحديثة من خوف وخنوع إلى ترسيخ فكرة وجود الإنسان داخل مجتمع يسعى إلى تحقيق أقصى سعادة له. الفرد فى المجتمعات الحضارية الحديثة له حقوق وعليه واجبات والتزامات، فاحترام حقوق الغير يؤدى إلى احترام حقوق الطرف الآخر، وتأكيداً لذاته ولحريته التى يجب أن تصان.

قديما وحديثاً لدى الشعوب المتخلفة - كانت السلطة الحاكمة تنحصر فى فرد أو طائفة أو قبيلة، يستمد الحاكم سلطانه عن طريق الوراثة ، أو الغزوات أو الفتوحات، أو عن طريق القهر والقسر، لم توجد سلطة نابعة من مشيئة المجموع أو الأمة أو الشعب. قديما كانت القوة تتمثل فى عضلات الإنسان وسلاحه وماله، ثم بدأت سلطة العقل فى الظهور، تسير حثيثاً لتسيطر فى النهاية، مخلفة فى ذيل الركب شعوب مازالت تجتر ذكريات أساطيرها وخرافاتها.

كانت الحرية قديما تعنى سلطة الحاكم على المحكومين ، وليست مشاركة الحاكم فى الحكم، ثم وضعت الحدود الدستورية، وسنت القوانين، ليصبح الشعب هو الذى يختار حكامه مباشرة، أو عن طريق ممثلين، وذلك بعد أن كبرت الأمة، واتسعت مساحة البلاد، وزاد عدد الشعب . أصبحت سلطة الحاكم فى البلاد الديمقراطية المتحضرة نابعة من سلطة الشعب، وكانت رحلة الانتقال من القديم إلى الحديث، أو من القهر إلى الحرية ومن الانغلاق إلى الانفتاح، مليئاً بالكفاح والصراع الذى كلف الإنسان كثيراً من الاستعباد والسجن، والموت والعذاب.

كان جون ستيورات مل من أوائل الذين كتبوا عن الحرية فى العصر الحديث. فكانت الحرية فى رأى مل كما جاء فى كتابه (الحرية) : « الإنسان غير مسئول أمام المجتمع عن شىء من تصرفاته إلا ما كان منها ذا مساس بالغير». إذا أتى الفرد فعلاً ضاراً بغيره استحق العقاب والجزاء بحكم القانون الذى وضعه الشعب، ولكن هل

حرية الفرد فى إنهاء حياته بالانتحار - وإن كانت هذه الحرية لاتمس الآخرين - مسموح بها من المجتمع . وهل الحرية الفكرية التى تمس عقائد وأفكار وآراء الآخرين غير مسموح بها أخلاقياً وعقائدياً . لا يسمح المجتمع بحرية قتل الذات - أما الذى يهاجم أفكار أو معتقدات الآخرين، إنما يحمى نفسه من أفكار ومعتقدات الطرف الآخر، خوفاً من أن تتأثر أفكاره هو من الآخرين، وذلك لضعف حججه ووهن منطقه.

كتب مل فى كتابه (الحرية) عن استبداد الأكثرية، أى استبداد المجتمع كله ضد الأفراد منفردين. كذلك يوجد أيضاً استبداد فئة ضد فئة أخرى. لذلك يجب مع حماية الفرد من الحاكم، حماية حرية الفرد من استبداد فئة أو فئات أخرى قد تكون لها الأغلبية. قد يرغم الرأى العام بعض معارضيه اعتناق معتقدات معينة، أو اتباع عادات مختلفة عن عاداته ، وإرغام المعارضين بالعقوبات الجنائية أو الحرمان من التمتع بمزايا باقى الرعية، لإجباره على مسايرة القطيع، يحذو بحذوهم، ويتطبع بطبعهم ، ويعتنق أفكارهم، ويسير على هداهم ومبادئهم. أخذت مجادلة استبداد الأكثرية الكثير من المكاتبات والمحاورات والنزاع بين السياسيين والمفكرين، فإلى أى حد يسمح للفرد أن يتحرر بعيداً عن السياج الذى حدده المجتمع للقطيع . مثلا هل يستطيع الفرد أن يتغنى بإلحاده ، أو يستمتع بعريه ، أو يفضح الأسرار الشخصية للآخرين أو يزعجهم بالأصوات العالية أو بقذارته. وما هو تعريف الأسرار الشخصية وما هى حدودها . كثير من الحريات قد يراها البعض مساوئ ولكن يراها البعض الآخر حرية شخصية. أنها نسبية الحرية الشخصية والعقيدة المختلفة، ونسبية أخلاق المجتمع، فالشذوذ الجنسى والأجهاض تسمح بهما بعض المجتمعات وترفضها مجتمعات أخرى . ولكن يظل مبدأ (ما يسوءنى يجب ألا ارتضيه للغير)، قائم بالرغم من أن ما يسوء الفرد نسبى أيضاً ، فقد يسوءنى فعل ما ولكن هذا الفعل لا يسوء الغير، والعكس صحيح أيضاً، فقد لا يسوءنى فعل ما ولكن نفس الفعل قد يسوء الغير. فالعدوانى يسمح لنفسه بأن يهاجم الغير كما يسمح للآخرين بأن يهاجموه ليهاجمهم حتى ينفث عن غريزته العدوانية، والعرى فى مناطق عديدة فى

أفريقيا واستراليا ، وفى بعض المجتمعات الأوروبية والأمريكية عمل غير شائن وبالرغم من ذلك يوجد فى هذه المجتمعات المتحفظين الذين يرون فى العرى خطيئة. ان العقيدة الدينية أصبحت حرية شخصية فى كثير من الدول الغربية بالرغم من وجود المتدينين . أن للسلوك والأخلاق والآداب العامة قواعد نسبية تختلف من مجتمع لآخر. وحتى فى داخل المجتمع الواحد يشتد النزاع ما بين التعصب للقديم والتحرر منه.

ذكر ميل بعض الأفعال التى فى ظاهرها حرية شخصية ولكن يجب تنفيذ العقاب على المقصر فيها أو الممتنع عنها مثل:

- أداء الشهادة فى المحاكم.
- الدفاع عن الوطن.
- إنقاذ المشرف على الهلاك أو إغاثة الضعفاء من الاضطهاد أو الهلاك.

ذهب ميل إلى أنه يجب التفريق بين الفعل الإيجابى لوقوع الضرر والفعل السلبى الذى ينتج عنه وقوع الضرر. إن حرية الكلمة لازمة لحماية الأفراد من مظالم الحكومات المستبدة. فيجب على السلطة التنفيذية أو التشريعية عدم إجبار الفرد على اعتناق أفكار أو معتقدات معينة. وبالأحرى لا يجب على جماعة وان كانت أغلبية فرض أفكار أو معتقدات على الأقلية أو حتى على فرد واحد. فإخماد الرأى الآخر مغبة بها حجر على حرية الآخرين وستر لهذه الآراء. فالرأى الآخر إن كان على صواب فالفائدة تعود على الجميع، وان كان خاطئاً بالحجة والبينة يتم الرد عليه، أما القمع والحجر والمنع فتحد من كون الإنسان حرا بالطبيعة، ولو أراد الله أن يجعل اجتماع البشر كلهم على رأى واحد، وعقيدة واحدة لفعل. إن التاريخ أحسن معلم لتوضيح نسبية الأفكار والعقائد عبر الزمان، وعلم الاجتماع والأنثروبولوچى أفضل مفسر لنسبية الأفكار والعقائد للمجتمعات المختلفة الثقافات. فكثير مما كان مقبولا من زمن مضى أصبح غير مقبول فى وقتنا الحالى، وكثير من ثقافة الغرب مرفوضة

فى ثقافة الشرق، والعكس أيضاً صحيح . فالرد على الكلمة يجب أن تكون بالكلمة والرد على الفعل يجب أن يكون بالفعل.

ما أسهل النزاع على الماديات، وما أصعب النزاع على الأفكار، فالعقل هو أساس بناء وجود الإنسان ومحور اختلافه عن باقى مخلوقات الله فى نظامنا الكونى، ان الحركة المادية ميسورة لمعظم البشر، أما التفكير العقلى وان كان ميسوراً لمعظم البشر إلا أن التباين واضح فى استخدامه، وزاد هذا التباين فى الزمن الحديث واتسعت الهوة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة ، وأساس الاختلاف يكمن فى الكفاءة النسبية لاستخدام العقل.

كان سقراط رائد الفلسفة الإغريقية ، قد اتهمه مواطنوه بتهمة الإلحاد وفساد الأخلاق ، وتمت محاكمته من خلال هيئة قضائية أدانته وحكمت بإعدامه. لم يدين سقراط بالألوهية للآلهة الحكومية الرسمية، فاتهموه بالكفر والإلحاد ، وكان يعلم تلاميذه الحكمة فاتهموه بنشر الفساد.

حتى من اعتنق الأديان السماوية فى بداية عهدها نكل به وعانى الكثير من التعذيب على أيدى الطغمة الباغية من جموع الشعب أو القبائل، لقد عارضت الأغلبية الحق فى بداية ظهور الأديان السماوية فتعرض من آمن بالمسيحية والإسلام للعذاب والموت فى السنوات الأولى لبداية التبشير بهما.

نعم قد ينتصر الحق فى النهاية ولكن غالباً ما يعوق ويؤخر الطغيان والاضطهاد تقدم الأمة. لقد دون التاريخ انتصار كثير من الطغاة، ولم يكن إلا الموت هو النهاية لحكم طاغى واستبداد مستبد. لقد انتصر التتار فى غزوات كثيرة، وانتصر هتلر وموسولينى فى كثير من المعارك وآمن بهم ملايين من البشر، لقد حكم ستالين الاتحاد السوفيتى بالقمع مدة طويلة، واستمتع كثير من حكام أفريقيا بأكل لحوم البشر فى العقود الماضية. استشهد كثيرون من الدعاة الأوائل للأديان، واغتيل الكثير من معارضى الحكم الديكتاتورى، وضاع الحق بين زخمة الأباطيل.

ضل كثيرون من البشر وعانوا ما بين حق قد يكون باطل، وباطل قد يظهر فى صورة حق أو كما قال جون سيتوراث ميل فى كتابه الحرية: « من السخافة أن يتوهم المرء أن الحق، لا لشىء سوى أنه حق – يشتمل على قوة غريزية ليست موجودة فى الباطل من شأنها أن تمكن الحق من التغلب على ضروب العقاب والتنكيل، وصنوف العذاب والتمثيل. إذ الحقيقة الواقعة أن الناس ليسوا بأشد تعصبا للحق منهم للباطل، وان مقداراً كافياً من العقوبات القانونية أو الاجتماعية جدير على العموم بأن يحول دون انتشار الحق، كما هو جدير بأن يحول دون انتشار الباطل».

انتشر التعصب الأيدلوچى والفكرى والعقائدى، وكثرت معابد الجمود والتحجر، فأنشأت كل مجموعة هيكل لها تصلى فيه، رافضة المناقشة والجدل. ما بين رأسمالية وشيوعية واشتراكية، وما بين مسلم بفئتيه الشيعى والسنى، ومسيحى قبطى أو كاثوليكى وبروتستانتى ، وما بين الولاء للغرب أو الولاء للشرق وما بين المؤيد للانفتاح والعولمة، أو مؤيد للانغلاق والتقوقع والاعتماد على الذات، ما بين أصولى أو وصولي، ما بين مخلص ومنافق، وما بين الكثير من التناقضات، ضاع الفكر العربى فى متاهات الصراع السلبى، الذى لا يخدم قضايا التطوير والرقى، نسينا الاختلاف الإيجابى فانحدرنا إلى تعصب التخلف أو تخلف التعصب.

فى كثير من الأحوال يؤدى الكبت والحد من حرية الأفراد إلى التقدم والإبداع، لقد حُكم على سقراط بالإعدام واتهم جاليليو بالكفر لأنه نادى بدوران الأرض، وتهكمت أوروبا على ما اكتشفه نيوتن من جاذبية الأرض، وعندما ثارت عقول الشعوب الأوروبية وتحررت أفكارهم على أيدى دعاة الحرية وهادمى أصنام أساطير التخلف، ظهر عصر النهضة بعد قرون من عصور الظلام والتخلف والاضطهاد وبدأ التحديث والتطوير ، وانطلقت شرارة الحضارة الأوروبية الحديثة التى مازالت قائمة حتى اليوم. ان الكثير من الضغط والكبت يؤدى حتماً إلى الثورة والانفجار.

ليس الجديد دائماً بدعة زائفة، إن تركنا الجديد يظهر وشجعنا على ثورة العقول بدون قمع أو كبت، أو خوف أو جمود، سيموت الخبيث منه، وينتشر المفيد. لم

يعد العقل البشرى يحتاج إلى وصاية بعض المتخلفين والرجعيين والمنافقين. تسير شعوب إلى الأمام بسرعة هائلة فى اتجاه حضارات واعدة ومنجزة، وأيضاً ما تزال قبائل تعيش فى مجاهل أفريقيا وآسيا واستراليا تعيش قرون ما قبل الحضارات الأولى، متحفظة بطوطمها لتحميها من شر إنسان أو شيطان، تلتمس منها الخير أو نزول الأمطار ، لقد أعطى الله للبشر مجالاً واسعاً لتطور العقل، فبعد بضعة آلاف من السنين بعد ظهور الحضارات الأولى فى مصر وبلاد ما بين النهرين تطور العقل بدرجة هائلة. إذا تخيلنا أن الإنسان الأول عاش ملايين السنين بدون تطور عقلى فى حياة معيشية مشابهة لحياة الحيوان ثم بدأت الحضارات عند تطور الإنسان فى استخدام عقله فهل لنا أيضاً أن نتصور مأساة أنه مع التقدم الفكرى والعلمى الرائع الذى تحقق على مدى القرنين الماضيين مازالت بعض الشعوب ترتع فى تخلف عقولها وجمود تفكيرها وخرافة أساطيرها وتفاهة عقائدها.

الرأى والرأى المخالف، رأيان قد يكون إحداهما على خطأ والآخر على صواب أو قد يكون كلاهما على خطأ أو كلاهما على صواب، وتأتى الحجج والأسانيد لتدافع عن الآراء والأفكار، ويتقبل الإنسان المتحضر رأى المعارضة مثل ما يدافع عن آرائه وأفكاره دون تحيز ولكن بالأدلة والبراهين وتفنيد الرأى الآخر، لقد وهب الله لنا العقل حتى نفكر ونحلل ، ونبحث وندرس، بالمنطق والتروى ندعم موقفنا ونرد على معارضينا. بدون تعنت والتشبث بآرائنا وعقائدنا يمكن أن نحول الخصم إلى مخالف للرأى أو العقيدة، نستطيع أن نتعايش معه، ويصبح الاختلاف متعة فكرية تؤدى إلى التقدم والرقى، وتبدد وقت فراغ قد يستغل استغلال سيء فى فراق أو نزاع وقتال. كيف نتعامل مع الجهلاء أو السفهاء، بالمجادلة الحسنى والصبر نستطيع أن نقنعهم، وحماية النفس بمنطق الكلمة – أو منطق القوة إذا لزم الأمر – تستطيع الجماعة المتفتحة العقل إن تحمى نفسها، وتكون القوة فقط للدفاع وليس للهجوم. الدفاع يتطلب دائماً قوى أكبر من الدفاع، وعليه يكون العبء الملقى على كاهل الإنسان المتحضر أكبر وأثقل. إن العامل الرئيسى لاضمحلال أى حضارة هو انتصار الجهلاء والسفهاء، ذوو العقول المتحجرة معارضى التحديث والتجديد، وتزلف باقى

الشعب لهذه الفئة، فيتحول أفراد الشعب إما إلى سفيه جاهل أو إلى منافق مهادن (هدن: من السكون والرضى).

إن النظام الكونى - ونحن البشر جزء منه - مبنى على الحركة التى من خلالها يحدث الاحتكاك ، والحركة تعنى التغير ، والاحتكاك يعنى الصدام. قد يؤدى الصدام إلى الفناء إذا تعاكس المتصادمين أو إلى زيادة القوى إذا اتحد المتصادمين وسارا فى اتجاه واحد. ان الاختلاف لا يؤدى دائماً إلى صراع ثم ضعف ، فهو يؤدى أيضاً إلى زيادة القوة التى بدورها تؤدى إلى التقدم والرقى. ان السكون دلالة على الموت أما الحركة فهى طاقة قد تضر أو تفيد، ويأتى دور الرواد والمفكرين والقادة والزعماء لاستغلال الطاقة لما فيها فائدة إلى شعوبهم . أن ما يلزمنا آراء وأفكار كثيرة ومختلفة، أى تضاد حضارى، ولكى تكتمل منظومة الرقى الحضارى يلزمنا قائد رائد يسير بشعبه إلى الإمام، وليس إلى السكون أو الخلف. بالعقل الذكى المتفتح، وبالإيثار والبعد عن المصالح الشخصية، وبالجهاد المتواصل بدون كلل أو تعب ، يستطيع القائد أن يقفز بشعبه إلى ما فوق الحضارات السائدة، على أن يبتعد هذا القائد عن جوقة المنافقين المرائين أو مستشارى السوء، طهاة الدساتير والقوانين، وأن يتقبل صدره بسريره وثقة نقد المعارضة، يناقشهم بالمنطق واللين، أنه جهاد دائم من أجل حضارة راقية وتطور مستمر.

ليس كل الشعب مثقف وعلى درجة عالية من التعليم ، فيجب على القائد ومعاونيه أن يتعلموا كيفية التعامل مع فئات الشعب المختلفة العقائد والثقافات ، والتعليم والآراء والأهواء، والسلوك الطيب منهم والخبيث، المسالم والعدوانى، أن يكون التعامل بحزم دون استبداد ، وبلين دون ضعف، بسعة صدر دون تسفيه، وبمخاطره دون تهور. كتب الفيلسوف الألمانى هيجل :« لا بد للمرء من أن يخاطر بحياته، لأنه عندئذ - وعندئذ فقط - يستبقى حريته، ويصون كرامته ، مثبتاً لنفسه -وللآخرين- أن ماهية وعيه بذاته ليست هى الوجود المحض أو الحياة الحيوانية الصرفة، بل هى الوجود التاريخى الجدلى، أو هى الحياة الإنسانية الصحيحة والحق أن الوجود البشرى - فى صميمه - وجود اجتماعى، كما أن التاريخ البشرى هو

تاريخ الرغبات المرغوب فيها، وبالتالى فهو تاريخ الصراع الدامى الأليم من أجل انتزاع اعتراف الآخرين بحرية الذات واستقلالها».

ان الحرية الفكرية تترك للفرد مجالاً واسعاً ورحباً للإطلاع والبحث والتفكير، وتداول الأفكار ثم البحث عن الخطأ والصواب، فتنمو شخصية الفرد ويتسع إدراكه، ليسمح بمزيد من المعلومات والأفكار، ويتهيأ العقل للابتكار والتطوير من أجل حضارة متميزة. أما الكبت وتقييد الحرية الفكرية فتؤدى إلى السكون ثم البلادة، وغالباً ما يؤدى الكبت للتعصب والعدوان. إذا كان فى السفر سبعة فوائد، فالفائدة تأتى من رؤية أماكن جديدة والالتقاء بأناس جدد والتعرف على شعوب مختلفة لها تقاليد وثقافات متنوعة، أنه نوع من الاطلاع الفكرى لتوسيع مدارك الفرد، وباستخدام العقل ينتقى الفرد ما هو صالح ومفيد لمجتمعه، ويرفض ما هو ضار له. ان جزءاً كبيراً من الذكاء مكتسب ويمكن تطويره بالتدريب، والتدريب العقلى قائم على الإطلاع الوافر والمتنوع ، ليختار الفرد بعد عمليات عقلية الصالح لشخصه ولمجتمعه.

يتهم جون ستيورات ميل أهل الشرق بتحكم العادة فى أحكامها: « إذا تأمت بعين الحق فى حال معظم البلدان التى ألغيت تاريخها غفلاً وسيرتها قصة جوفاء، وذلك لان استبداد العادة هناك مستحكم وسلطانها مطلق وهذا شأن بلاد الشرق حيث العادة فى كل شيء المرجع الأخير والحكم المفصل، وحيث لا يعنيهم من العدل والحق إلا موافقة العادة ومطابقة العرف». إلى حد كبير صدق ميل، فمازال الشرق يرتع فى قيود موروثات فكرية تحد من تقدمه، لم تنتصر ثورة العقل بعد فى شرقنا الحبيب، لقد طغى الجمود على عقولنا ما دام واضعى القيود كما يقول البعض يعبثون بأقدارنا، وهذا قول خطأ، فأقدارنا إلى حد كبير فى عقولنا نستطيع إن شئنا ولكن بتضحية كبيرة لفترة قصيرة أن نكسر قيودنا ونحرر عقولنا.

يختلف الفيلسوف الاقتصادى النمساوى فردريك هايك الذى ولد فى نهاية القرن التاسع عشر، فى تعريف الحرية عن رواد الليبرالية الأوائل، الذين يدعون إلى

الحرية الكاملة والشاملة مثل مقولة هوبز « ان الحرية هى انعدام كل العوائق الخاصة للحركة» ، وتعريف راسل للحرية بعدم وجود عوائق تمنع الفرد من تحقيق رغباته. وصف هايك الحرية الشاملة بحرية الهمج، وأكد على ضرورة ارتباط الحرية بالقانون وبالضوابط التى يضعها المجتمع. فالحرية الشاملة تؤدى إلى الفوضى ثم إلى الانهيار، ولكن الحرية عند هايك تعنى عدم خضوع الفرد إلى إرادة أخرى مستبدة. رفض هايك نظريات (العقد الاجتماعى) والضمان المتبادل بين الناس حيث أن رغبات الأفراد مختلفة ومتباينة.

أن الحرية عند هايك ليست هى حالة الطبيعة الثابتة ، فإن ديناميكية الطبيعة تفرض قيوداً على البشر، وعليه فإن الإنسان ليس حراً بالطبيعة. ذهب هايك إلى أن الحرية هى نتاج الحضارة الغير متعمدة، والتى لم تكن موجودة قبل الحضارات لدى البشر لأنهم لم يدركوا بعقولهم البسيطة التحليل والتفكير - إلى فوائد الحرية. لقد أدت الحضارة الحديثة إلى الحرية، ولكنها وضعت نظم وتقاليد للتوفيق بين المصالح المتعارضة للبشر باختلاف اتجاهاتهم وميولهم.

يرى هايك أن العقل محدود القدرات، وأن الإنسان بطبعه ليس لديه الإمكانيات أو القدرة العقلية التى تمكنه من الإلمام بكل الحقائق. ان تطور إمكانيات العقل البشرى لا تتوائم مع التطور الحضارى المستمر، الذى له خاصية تراكم المعلومات والخبرات. لا زال إنسان الحاضر يعتمد بدرجة كبيرة على العادات والتقاليد المكتسبة من تاريخه، يظل الكثير من البشر لايستغل الإمكانيات الهائلة الذى أتاحها الخالق فى المخ. يعانى إنسان الحاضر من الصراع ما بين الغرائز الفطرية مع العادات المكتسبة وثقافات تاريخية عاشها أجداده، وما بين حضارة عقلية تحاول أن تشق طريقها فى أكوام مكدسة من موروثات وأساطير، تعوق تطورها ونموها.

ان الحرية عند هايك لها السبق على كل الغايات الفكرية والقيم الأخرى مثل المساواة والعدالة الاجتماعية. تتلازم الحرية مع القانون والملكية الخاصة فى فكر هايك، فطبيعة العلاقة بين الحرية والقانون تتحد بانعدام القسر بكفالة الحرية الفردية.

يتم تجنب القسر عن طريق فصل السلطات، فاحتكار السلطات فى يد واحدة يؤدى إلى القسر ويعوق حرية الأفراد. الحرية لا تعنى الاحتكار فاحتكار السوق مثلاً يعتبر نوع من أنواع القسر حتى أعتى الدول فى حرية السوق أصدرت تشريع ضد الاحتكار.

كتب الفيلسوف كارل بوبر فى القرن العشرين عن حرية التفكير والجدل النقدى كطريق للبحث عن الحقيقة: « إن حرية التفكير ، والجدل النقدى الحر هما من القيم الليبرالية الجوهرية التى لا تحتاج حتى إلى تبرير إضافى، وعلى الرغم من ذلك فمن الممكن تبريرهما براجماتيا فى صيغة الدور الذى يلعبانه فى البحث عن الحقيقة. الحقيقة ليست بيّنه، وليس من السهل نوالها، والبحث عن الحقيقة يتطلب على الأقل: التخيل، التجربة، والخطأ، والكشف التدريجى عن تحاملاتنا عن طريق ما سبق بالإضافة إلى الجدل النقدى. إن التقاليد العقلية الغربية المستمدة من الأغريق هى تقاليد الجدل النقدى، تقاليد فحص واختبار الفروض أو النظريات بمحاولة تفنيدها، ولا يجب أن نأخذ المنهج النقدى خطأ على أنه منهج برهان، منهج إثبات الحقيقة فى النهاية. لا وليس المنهج العقلى النقدى منهجاً يضمن الاتفاق دائماً، إنما تكمن قيمته فى حقيقة أن المشتركين فى الجدل سيغيرون آرائهم بعض الشىء، ليتفرقوا رجالا حكماء». ان الاختلاف حتمى كما جاء فى فصل سابق، والحرية الفكرية تلزمنا بتقبل الرأى الآخر، كما تلزمنا بوجوب تقبل المناقشة والجدل النقدى، والتحكيم إذا لزم الأمر.

قبل ذلك بحوالى ثمانية قرون، أى فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) دعى الفيلسوف العربى ابن رشد إلى البحث والمعرفة، وإلى التحرر العقلى. ورد فى كتاب د. عبد الرحمن بدوى (الفلسفة والفلاسفة فى الحضارة العربية) رد ابن رشد على الفقهاء الذين يقولون أنه يكفى ما نعرفه من النصوص العقلية، وذلك بقوله: « إنه كلما كانت المعرفة بصفتها أتم، كانت المعرفة بالصانع أتم» . كان ابن رشد يرى أن الشرع دعى إلى اعتبار الموجودات بالعقل، كما دعانا إلى معرفتها بالنظر العقلى. ان الاعتبار كما جاء فى المرجع السابق: « هو

استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه. وهذا هو القياس أو التفكير بالقياس، فواجب أن نجعل نظرنا فى الموجدات بالقياس العقلى. . فان اعترض معترض وقال إن هذا النوع من النظر فى القياس العقلى بدعة، إذا لم يكن فى الصدر الأول فإننا نرد عليه ونقول أن النظر فى القياس الفقهى وأنواعه هو شىء استنبط به الصدر الأول، فهل هو الآخر بدعة ؟ إن هؤلاء المعترضين من الفقهاء لا يعتبرون القياس الفقهى بدعة، وإذن فعليهم ألا يعتبروا النظر فى القياس العقلى بدعة . . وإن اعترض معترض آخر فقال إن القياس العقلى من وضع قوم غير مسلمين، فكما قلنا أن علينا أن نستعين بمن تقدمنا من الأمم ممن درسوا القياس العقلى، سواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا، أو غير مشارك فى الملة» . لقد كان ابن رشد كما كتب الدكتور بدوى واسع الأفق، متحرر النظرة، منفتح إلى الأخذ بالعلوم أياً كان مصدرها، دون اعتبار لجنسية أو دين هذا المصدر.

عرف الكاتب الأمريكى فرانسيس فوكوياما فى كتابه (نهاية التاريخ وخاتم البشر) الليبرالية والديمقراطية وكذا الاختلاف بينهما: « مع الارتباط الوثيق بين الليبرالية والديمقراطية فإنهما مفهومان مستقلان، إذ يمكن ببساطة تعريف الليبرالية السياسية بأنها قاعدة قانونية تعترف بحريات وحقوق معينة للفرد غير خاضعة لسيطرة الحكومة. ومع أن ثمة تعريفات متنوعة عديدة للحقوق الأساسية، فإننا سنستخدم منها التعريف الوارد فى كتاب لورد برايس الشهير عن الديمقراطية والذى يقصر هذه الحقوق على ثلاثة هى الحقوق المدنية، أى تحرير شخص المواطن وممتلكاته من سيطرة الحكومة، والحقوق الدينية أى السماح بحرية التعبير عن الآراء الدينية وممارسة العبادة، وما يسميه بالحقوق السياسية أى تحرير المواطن من سيطرة الحكومة فى الأمور التى لا يبدو بوضوح أنها تؤثر فى صالح المجتمع كله تأثيراً يحتم تدخل الدولة، وتتضمن هذه الحقوق الأخيرة حرية الصحافة باعتبارها حقاً أساسياً. . أما الديمقراطية فهى الحق المعترف به من الجميع لكافة المواطنين فى أن يكون لهم نصيب فى السلطة السياسية، أى حق كافة المواطنين فى الاقتراع والمشاركة فى النشاط السياسى. ويمكن اعتبار حق المشاركة فى السلطة السياسية حقاً ليبراليا آخر - بل هو أهم الحقوق

الليبرالية - ولهذا السبب كانت الليبرالية وثيقة الصلة تاريخياً فالدولة تكون ديمقراطية إن هى أعطت شعبها حق اختيار حكومته فى انتخابات دورية متعددة الأحزاب سرية الاقتراع ، على أساس من حق الاقتراع العام والمتكافئ للمواطنين البالغين. صحيح أن الديمقراطية الشكلية وحدها لا تضمن دائما تكافؤ الاشتراك والحقوق، فقد تتلاعب الصفوة فى الإجراءات الديمقراطية ، وقد لا تعكس هذه الإجراءات دائماً إرادة الشعب ومصالحه الحقيقية. . ورغم أن الليبرالية والديمقراطية متلازمتان فى العادة، فإنه يمكن نظرياً الفصل بينهما. فمن الممكن أن تكون الدولة ليبرالية دون أن تكون بالضرورة ديمقراطية ، كما فى حالة بريطانيا فى القرن الثامن عشر إذا كانت ثمة قائمة عريضة من الحقوق - منها حقوق امتياز كحق الانتخاب يحميها القانون ، لصالح صفوة اجتماعية محدودة وينكرها على غيرهم.

كذلك فإنه من الممكن أن تكون الدولة ديمقراطية دون أن تكون ليبرالية، أى دون أن تحمى حقوق الأفراد والأقليات. وخير مثال على ذلك الجمهورية الإسلامية فى إيران اليوم، التى تجرى فيها انتخابات بصورة منظمة، وهى انتخابات نظيفة نسبياً بمقاييس العالم الثالث، مما يجعل البلاد أكثر ديمقراطية منها فى زمن الشاه، ومع ذلك فإن إيران الإسلامية ليست دولة ليبرالية، إذ ليس فيها ضمانات لحرية التعبير أو الاجتماع. . . . . إن الديمقراطية الليبرالية ليست بالضرورة أصلح نظام سياسى لحل الصراعات الاجتماعية. فقدرة الديمقراطية على حل الصراعات حلاً سلمياً تكون فى أقوى حالاتها حين تكون هذه الصراعات بين ما يسمى جماعات مصالح متفقة فيما بينها سلفاً على القيم الأساسية أو قواعد اللعبة، وحين تكون الصراعات فى طبيعتها اقتصادية فى المقام الأول . غير أن ثمة أنواعاً أخرى من الصراعات غير الاقتصادية أصعب بكثير، وهى المتصلة بمسائل مثل المركز الاجتماعى الموروث أو الجنسية، مما لا يسهل على الديمقراطية حلها حلاً مرضياً. . . . . . قد تكون الديمقراطية الليبرالية فعالة فى مجتمع حقق بالفعل درجة عالية من المساواة الاجتماعية والاتفاق حول قيم أساسية معينة، غير أنه فيما يتعلق بالمجتمعات المنقسمة على نفسها على أسس من الطبقات الاجتماعية أو الجنسيات أو الدين، قد لا ينجم عن الديمقراطية غير الشلل

والركود. وأبرز مثل للانقسام هو الصراع الطبقى فى البلاد ذات البنية الطبقية شديدة التمايز والتفاوت كامتداد لما ورثته عن نظام اجتماعى إقطاعى».

تعددت النظم السياسية فى نظرتها إلى الفرد، ولكن يوجد ثلاثة مذاهب أو فلسفات رئيسية فى هذا المجال. المذهب الأول هو المذهب الفردى الذى يقوم على أن الفرد هو غاية نظام الحكم، والذى يتمتع بحقوق وحرية تحميها السلطة السياسية من أى اعتداء. أما المذهب الثانى فهو المذهب الاشتراكى / الشيوعى الذى يعمل فيه الفرد من أجل الجماعة، وعليه فإن حقوقه وحرياته تنظم لما فيه مصلحة للجماعة. يأتى النظام الديكتاتورى ليسخر الفرد لخدمة النظام، وفيه يحدد الديكتاتور/ الطاغية قدر الحرية والحقوق التى يتمتع بها الفرد. توجد نظريات كثيرة قائمة على المبادئ الديمقراطية فى ضرورة حماية حقوق الفرد وحرياته، منها نظرية القانون الطبيعى التى تؤكد على أن الإنسان بطبيعته يتمتع بحقوق أبدية ومقدسة، وان سيادة الدولة مقيدة بقيود سابقه على وجودها. أيضاً وجدت نظرية التحديد الذاتى لسيادة الدولة، ومضمونها أن الدولة ذات السيادة تصنع من نفسها قواعد تفيد سلطانها، فالقانون الذى يلزم الأفراد يلزم الدولة كذلك باحترامه. تقوم نظرية الحقوق الفردية على أن الفرد يتمتع بحقوقه لكونه إنسانا، وقد تمتع بهذه الحقوق قبل نشأة الدولة، وأن الدولة وجدت لحماية هذه الحقوق وصونها وكفالتها ومنع التعارض الذى قد ينجم عن استخدام آخرين لهذه الحقوق. وأخيراً تجىء نظرية ديجى فى التضامن الاجتماعى والتى تنص كما ورد فى كتاب (النظم السياسية) : « أن القانون لا يكتسب صفته الإلزامية بسبب صدوره من سلطة عليا فى الدولة، ولكن بسبب اتفاقه مع مقتضيات التضامن الاجتماعى ، والتضامن الاجتماعى موجود بين أفراد الأمة والذى قد يتخذ صورة اجتماع الأفراد لتحقيق حاجات متماثلة متشابهة، أو قد يتخذ صورة أخرى مظهرها تقسيم العمل بينهم بحيث يمارس كل منهم العمل الذى يجيده، والتضامن هو أساس فكرة القانون».

فى المجتمع الديمقراطى يكون الكلام الحر أداة رئيسية لاكتشاف ونشر الحقائق. فالفرد عندما يتكلم كما يفكر يشعر بذاته الفردية ويصبح الكلام وسيلة للمشاركة فى

مناقشة قضايا المجتمع. كتب رودنى سموللا فى كتابه (حرية التعبير فى مجتمع مفتوح) : « حق الكلام يخدم حق الفرد فى الانضمام إلى المعترك السياسى، وأن يقف ليستمع الناس إلى رأيه ويحسبون له حساباً، وأن يكون مشاركاً نشطاً فى تحقيق الديمقراطية . وليس متفرجاً سلبياً، وهكذا فإن صالح المشاركة التى يخدمها حرية الكلام فى نظام ديمقراطى ينبع من حق المواطن فى المشاركة ، وليس من احتياجات الدولة. فالمشاركة السياسية هى طريق لتحقيق الذات الفردية للإنسان، كما أن كرامة الفرد تزداد بالاعتراف بحقه فى المشاركة فى حكم الناس لأنفسهم جماعيا» . ان الحقائق لا تظهر إلا من خلال الحرية فى الكلام ، وفى الكتابة، وفى المناقشة والمجادلة بأسلوب سلمى وعقلانى، وكلما اتسع سوق الأفكار والآراء، كلما ظهرت وتجلت الحقيقة للأفراد، وللسلطة الحاكمة حتى تتخذ القرارات السديدة لصالح المجتمع ، لقد نادى الفيلسوف البريطانى جون لوك، بأنه فى ظل الترابط الاجتماعى فإن السيادة النهائية تبقى للشعب، أى للأفراد الذين لم يتخاذلوا ويتخلوا عن حقهم الطبيعى فى الاحتجاج، وحتى فى الثورة عندما تتجاوز الدولة حدود سلطتها الشرعية. لكن حذر لوك من التمرد العنيف والذى أشار إلى أنه يجب أن يكون هو الملجأ الأخير واليأس للاحتجاج ضد الفساد والتجاوزات وطغيان السلطة.

هل يوجد شيء اسمه عدالة الطبيعة . إن وجود الإنسان فى تاريخ معين بثقافة معينة وفى مكان معين، له طبيعة معينة من مناخ وارتفاع، خصوبة أرض أو أرض جرداء أو صحراء قاحلة، قريب من أنهار أو بحار أو محيطات ، كل ذلك يشكل للإنسان قدره، كما يساهم الموروث المادى للإنسان من تشوهات وأمراض ومن مال وأصول أو فقر وحاجة، فى حتمية قدر الإنسان. السلوك الإنسانى فقط هو ما يمكن تسميته سلوكاً عادلاً أو غير عادل، حتى العدل فى السلوك الإنسانى فهو نسبى لحد كبير. نعم من قتل يقتل. هذا هو العدل فى العقاب، ولكن ظروف حادثة القتل (قتل عمد - قتل خطأ - دفاع عن النفس. .) تؤدى إلى اختلاف فى العقاب من الموت إلى السجن لمدة طويلة أو قصيرة، إلى دفع الدية أو التعويض المادى.

ليس معنى الحرية الانعزالية والأنانية وعدم التفاعل مع الأفراد الآخرين، فالفرد يعيش فى مجتمع يلتزم نحوه بالدفاع عنه إذا تعرض للعدوان، وإيقاف المخطىء إذا تجاوز الحدود العامة التى رسمها المجتمع . الفرد حر بأن يلقى مهملاته داخل منزله. ولكنه ليس حراً أن يلقيها فى الطريق. الإنسان حر أن يسمع ما يشاء من طرب أو شتائم ولكن ليس حراً أن يجبر الآخرين للاستماع إلى ما لا يرضونه.

الحرية لا تعنى السلبية وعدم الاهتمام بأملاكنا المشاعة (نسميها نحن فى مصر أملاك الدولة) التى هى أملاك الشعب، لا يكفى استدعاء الشرطة بل يجب أولاً أن نعظ بالحسنى، ونثير الرأى العام إذا زاد خارقى السلوك العام وانتشر عدم الانتظام، أو ظهر الفساد. المنابر وإن كان قليلة فهى موجودة . من خلال الصحافة مثلاً نستطيع أن ننتقد السلوك الشائن، وعن طريق المجالس النيابية نستطيع أن نسن القوانين. نحن الأفراد نكون كمجموع المجتمع الذى نعيش فيه، والشعب الذى يعيش فى الدولة التى ننتمى إليها. من السلبية أن نسمع أصوات نفير السيارات ولا ننهر فاعليها ، ومن التخلف أن نرى رامى القاذورات فى الطرقات ولا نزجره على فعله، ومن الجبن أن نتعامل مع موظف عام يؤدى عمله للجمهور المتعاملين معه بتراخى وعدم مبالاة، ولا ننتقده ونشتكيه لرؤسائه. التفاعل مع المجتمع يحمينا نحن الأفراد من أنفسنا أولاً إذا اخطأنا بقصد أو غير قصد، لاننا نعلم أنه يوجد من يراقب سلوكنا العام، وأيضاً يحمى المجتمع والبيئة من أخطاء الفاسدين. إنها أولى خطوات الحضارة، الحفاظ على النظام والبيئة مع التمتع بالحرية الشخصية وحرية الآخرين، أيضاً التعاون على الخير والوقوف يداً واحدة ضد الشر. لتكن البداية الوقوف بقوة ضد الأخطاء حتى يسود الضمير فيبدأ الفرد فى محاسبة ذاته. إذا أيقن المجرم أو السفيه أن المجتمع كله سيقف ضده، سيتردد كثيراً قبل القيام بأعمال مخلة أو اعتداء على الأرواح والممتلكات، ويل لمجتمع تراخى فى الدفاع عن حقوقه وعن نظافة ونقاء مجتمعه، فالانهيار بعد التخلف سيكون مصيره. إذا ارتضى الإنسان أن يفقد حريته وآدميته سيتحول إلى عبد، وإن ساير الفرد المخطئين أو تراخى فى الدفاع عن حضارته فقد ساعد على السقوط والانهيار.

من حق أى فرد أن يعيش حراً داخل مجتمعه، له حقوق لدى الدولة التى ينتمى إليها فهى التى تحميه من العدو الخارجى ومن الخارجين على القانون، وهى التى يجب أن تتكفل به حتى فى المرض وفى الفاقة إذا لم يكن لديه المال للعلاج، أو الحصول على الاحتياجات الأولية من طعام وشراب ومسكن يأويه، وله حقوق لدى الآخرين، فى احترام ذاته وعقيدته، وفى المقابل على الفرد التزامات من دفاع عن الوطن وعدم الخروج عن القانون، والالتزام بالسلوك السوى الطيب، وأن يعطى الدولة حقها من الضرائب. قد لا يوجد قانون يلزم الفرد بالتكافل ومساعدة المحتاج، ولكن على الدولة أن تغرس الفضائل والأخلاق الحميدة التى تنادى بها الأديان ليتعايش الفرد مع الآخرين. يجب أن يتعلم جميع أفراد الأمة أن مرض الفرد أو خسارته المادية تعود على الجميع بالتأثير السلبى وبالخسارة، فالأفراد أعضاء فى كيان واحد من المفروض أن يكون متكامل ومتكافل، يساعد الغنى الفقير، ويساعد القوى الضعيف ، ويأخذ الصحيح بيد المريض، يجب أن يعمل الجميع من أجل الجميع، فالضرر يصيب الجميع والفائدة تعم على الكل. إذا التزم الجميع بمكارم الأخلاق وحسن السلوك حينئذ ستقل جرائم السرقة والقتل والاختلاس والعمولات الغير مشروعة. أن العقائد الدينية وثقافتنا المكتسبة عبر آلاف السنين تحتوى على محامد الأخلاق والسلوك الطيب، ولكن غياب القدوة والريادة والقيادة تؤدى إلى إفلات زمام الكثير من أفراد القطيع، لينحرفوا ويخربوا فى كيان المجموع.

الخوف بل المرض كله الذى قد يغشى المجتمع هو أن يتحول السلوك السيء والانحراف إلى ثقافة عامة يتحلى بها الشعب. إذا نخر الفساد ضمائر الأكثرية وتحولت السلوكيات البذيئة والضمائر العفنة إلى صفة سائدة وثقافة عامة، ستنهار الأمة كلها. قد تبدأ سلسلة الانهيار من سلوكيات منحرفة أو غير سوية، غالباً ما يتغاضى عنها المجتمع مثل الغش وإنهاء المصالح بالرشاوى أو الإكراميات، والضجيج الذى ليس له رادع، وإلقاء القاذورات فى الأماكن العامة، وتعطيل مصالح أنفسنا من خلال تعطيل الفرد مصالح الآخرين، والمطالبة بالأجر دون العمل، والتعصب وكبت الحريات وقمع أفكار وآراء الآخرين ، والتخاذل فى

الاعتراض على السلوكيات المنحرفة. . وأخيراً عدم استعمال العقل بما فيه فائدة للمجتمع. يتكلم الجميع عن الشفافية دون أن نطبقها أو حتى نعى معناها والغرض منها، فالشفافية هى الوضوح أو كما نقول بالعامية (على ميه بيضه)، يرى الفرد ما بداخل الآخرين ، لا مواربة أو إخفاء أو نفاق أو رياء. لا تتعارض الصراحة أو الشفافية مع الحضارة، قد يكون داخل كل منا أو بعض منا وحش كاسر أو إنسان بدائى تسيره الغرائز والشهوات، هنا يأتى دور الثقافة المتحضرة لتحول السلوك الطيب إلى سلوك نابع من ذاتنا وليس سلوك نفاق . مرة ثانية نعود إلى القدوة التى يجب أن تسلك السلوك السوى ولا تستطيب أساليب الرياء والتزلف والنفاق ، القدوة التى تتعالى على الصغائر وترفض استغلال النفوذ والمناصب وتنأى بنفسها عن الفساد والانحراف.

إذا كانت الزعامة هى القدرة على قيادة أفراد الشعب ممثلين فى جميع فئاته، أما للسير فى الاتجاه الصحيح لما هو خير للجميع أو للسير فى اتجاه المصلحة الشخصية والعمولات والرشاوى والتهاون فى المصلحة العامة. على أفراد الشعب أن يضعوا معايير الزعامة وأسس الاختيار . (إذا انصلح حال القائد انصلح حال الرعية) - مقولة شائعة صحيحة لا تؤخذ فى الاعتبار عن اختيار الزعيم أو القائد أو الرئيس، أما لجهل الرعية أو استبداد الزعيم وأعوانه . حتى إذا كان الاختيار صائباً فإن النفاق والرياء ، والخضوع والخنوع، واستمرار القيادات لمدد طويلة يؤدى إلى تأليه الزعامة وفساد القيادة.

العقد الاجتماعى

ظهرت فكرة الحاكم المفوض مع ظهور التجمع البشرى فى صورة قبيلة أو بلدة صغيرة أو مدينة. بعد أن هام الإنسان وحيداً مئات الآلاف من السنين، يقتنص صيده من حيوان جنح عن قطيعه، ويقتنص شهواته من طرف آخر لمدة محدودة ليفترقا من جديد، عرف الإنسان الزراعة فاستقر فى بقعة من الأرض يفلح الأرض ويزرعها، وينتظر ثمار مجهوده، فيجنى زرعه ويخزنه ويتاجر به. عندما عرف الإنسان وقت الفراغ بدأ يطور أسلوب حياته، كما بدأ العيش فى مجال مجتمعات قائمة على التعاون والتكامل فبدأ النزاع كما قال أفلاطون بين ملاذ الفرد وبين الخير الاجتماعى. إذا كان حب البقاء قد دعم النظام الشيوعى فى الإنسان والحيوان للشعور بالحماية والأمان داخل المجتمع أو القطيع، فإن الملكية وحب التملك قد أدى بالإنسان إلى الجنوح إلى الفردية، وبين الفردية والشيوعية يعيش الإنسان متأرجحاً ملولاً من الثبات والاستمرار على وتيرة واحدة.

مثل الحيوان بدأ الإنسان يبحث عن من يقوده. كان الأقوى جسدا والأرجح عقلاً والذى يبذل جهده فى سبيل الجماعة هو الذى يقود. هذا هو المنطق الفطرى القائم على المنفعة، فالإنسان الطبيعى دائماً يقوّم قراره على تحليل المنفعة / الفائدة (Cost - Benefit Analysis) – يعطى زمام القيادة إلى من يفيده أكثر ويكلفه القليل. بظهور اللئيم الطباع الذى يصبو إلى استغلال الآخرين بدأ الصراع على الزعامة والقيادة. كان الإنسان فى ذلك الوقت يعيش فى مجاهل الخوف من المجهول، فغروب الشمس وحلول الظلام ، والموت، والعوامل الطبيعية من برق ورعد وأمطار وزلازل وبراكين ، وغيرها من عوامل طبيعية لم يعرف الإنسان لها سبباً، عوامل فى العادة تضر ولا تفيد. أرجع الإنسان البدائى الجاهل هذه العوامل الطبيعية إلى قوة إلهية خيرة أو شريرة. استغل اللئيم والخبيث خوف الإنسان لإقناعه بأنه متصل بالالهة بطريقة ما ، فعن طريق القرابين يستطيع أن يتجنب غضب الآلهة بل قد

يفيض الإله عليه من خيراته وأفضاله. فبدأ الاستغلال والاستبعاد باسم العقيدة والدين. بدأ انتشار الحكم الدينى (الثيوقراطى) مع ظهور الحضارات القديمة ، فى مصر (الحضارة الفرعونية) وفى بلاد بين النهرين (بابل، وآشور، وسومر)، وفى الصين والهند. تصور إنسان الحضارات القديمة أن الحاكم له طبيعة إلهية مقدسة ، وله إرادة عليا تسمو على الطبيعة البشرية ثم تطورت نظرية الحكم الدينى ليصبح الحاكم هو الذى يختاره الرب ويصطفيه ليستمد سلطته من الإله مباشرة.

انتشرت نظرية العقد الاجتماعى، أى فكرة وجوب وجود اتفاق أو عقد بين فرد يحكم وآخرين خاضعين له فى آواخر العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة على ايدى مارسيلو دى بادورا وجيوم دوكان ونيقولا ديكوزا وإيناس سلفيوس وهوكر وفرانسيسكو سوارث وخوان ماريانا وغيرهم. فى القرن السابع عشر ومع ظهور عصر العقل والحضارة الحديثة وجدت فكرة العقد الاجتماعى فى كتابات الفلاسفة الاجتماعيين مثل هوبز وسبينوزا ولوك. ذهب هوبز إلى أن الحاكم وفق عقد لا رجوع فيه تنازل الأفراد للملك عن كل حق لهم، وكان هذا تبريراً كافياً لطغيان الحاكم. كان رأى سبينوزا مشابهه لرأى هوبز بدون الحكم المطلق للحاكم أو الملك ، فالأفراد لا يفقدوا كل حقوقهم كما نادى هوبز، بل لهم أن يتمتعوا بحريتهم فى التفكير وفى التعبير عن آرائهم، وللأفراد أن يثوروا على الطغيان لضمان حريتهم.

رفض الفيلسوف الإنجليزى جون لوك أراء هوبز، فكان يرى أن الإنسان وجد حراً بطبيعته، ولكن له سلوك عقلانى خفف وكبح حريته المطلقة. ان الحال الطبيعية للبشر عند لوك لم تخلو من المتاعب والأخطار بسبب فساد بعض الأفراد، لذلك كان لابد من وجود ثلاثة أشياء هامة: قانون مستقر واضح، وقاض عادل يحكم بين الأفراد، وأخيراً قوة سيادية أو قوة عليا تنفذ القانون، وعليه وجدت الحياة المدنية الحضارية وفق عقد أبرم بين الحاكم والأفراد. فى هذا العقد لا يكون الحاكم إلا مجرد حكم بين الأفراد، فهو لا يتمتع بحقوق أعلى وأسمى من حقوق الأفراد المحكومين الذين يستطيعون باستمرار استخدام حقوقهم الطبيعية ضده عن طريق الثورة على الحاكم الطاغية، لأنه فى هذه الحالة يكون قد أخل بشروط العقد وجعل

المحكومين فى حل من الارتباط بهذا العقد. تأثر الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو بآراء لوك وكتب فى القرن الثامن عشر كتاب (العقد الاجتماعى) ، الذى يحتوى على أربعة أجزاء هى : فى الميثاق الاجتماعى ، فى السلطان، فى الحكومة، وأخيراً فى كيفية تسيير الأمور فى المدينة الفاضلة.

يعتبر مونتسكيو صاحب الفضل فى إبراز مبدأ الفصل بين السلطات ، فقد أورد نظريته فى فصل السلطات فى مؤلفه (روح القوانين) الصادر عام ١٧٤٨ والذى جاء فيه أن فى الدول الثلاث سلطات تضلع بمهام الحكم: السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية ، والسلطة القضائية. رأى مونتسكيو أن الفصل بين السلطات يعتبر أمراً ضرورياً إلا أنه فصل غير تام لأن التعاون بين السلطات يعتبر أمراً ضرورياً ، ومن الضرورى وجود الرقابة المتبادلة بين السلطات لمنع أى سلطة من الإنحراف أو الاستبداد.

أثبت علماء النفس والاجتماع ما ردده الفلاسفة القدامى من أرسطو إلى روسو، أن الإنسان لاتنمو ملكاته الفكرية ومداركه العقلية إلا فى المجتمع وبالمجتمع الذى يتفاعل معه ويغذيه بأفكار مختلفة تعتبر حصيلة تاريخ حضارة الإنسان. فإذا كان الذكاء مركب من العوامل الوراثية والبيئة الاجتماعية، فإن الجزء الأخير قد تصل نسبته إلى أكثر من النصف. لقد وجد علماء الاجتماع أن الأطفال الذين ينشأوا فى الأحراش أو الصحراء البعيدة عن المجتمعات يصل مستوى ذكائهم إلى مستويات أقل بكثير من متوسط الذكاء الطبيعى لمن هم فى مثل سنهم.

يرى العالم النفسى أدلر أن الإنسان يحيا داخل ثلاث مشاكل، ترتبط كل منها بالأخرى. المشكلة الأولى هى العمل والثانية التوافق فى العيش مع المجتمع المحيط والثالثة ميول الفرد الجنسية. أما بالنسبة للعمل فإنه يرى أن الإنسان يعيش ويكد ويجتهد من أجل زيادة رفاهيته والإقلال من الجهد المبذول للحصول على أقصى رفاهية . أما بالنسبة للمشكلة الثانية فيرى أدلر أن غريزة حب التجمع تفرض على الفرد أن يلائم بين نفسه وبين مقتضيات بيئته وأوضاع الجماعة التى يعيش فيها وذلك

عن طريق الصداقة والتعاون وروح الألفة والمحبة. كان اهتداء الإنسان إلى تقسيم العمل هو الطريق إلى الحضارة والتقدم، فتقسيم العمل يؤدى فى النهاية إلى إتقان الفرد فى الجزء من العمل الذى يقوم به، ويرى أدلر أنه ينبغى أن تنهض الجماعة بتقسيم العمل بروح التعاون والائتلاف حتى يؤدى ذلك إلى نفع الجماعة وخيرها، فالعمل عامل هام لتحقيق الذات وتفعيل دور الفرد فى المجتمع. ان من يتهرب من العمل ليس سوى عاله على المجتمع، ينتظر من الآخرين أن يؤدوا له مالا يؤديه لهم، وأنه فى الغالب كان طفلاً تعود أن تدلله أسرته. أما المشكلة الثالثة الخاصة بميول الفرد الجنسية فإن أدلر يرى أنه لا يمكن حل هذه المشكلة حلا منفصلاً عن غيرها، إذ يعتمد توفيق المرء فى القيام بدوره الجنسى على توفيقه فى عمله، وعلى حسن علاقاته بغيره من الناس حتى يستطيع الزواج وتكوين أسرة سوية.

إذا كان الإنسان يحيا فى المجتمع من خلال علاقات متبادلة ومتشعبة، فقد ذهب الفيلسوف الأغريقى أرسطو إلى الأوساط فى التعامل بين الأفراد، أو بين الفرد والمجتمع. أن الفضيلة فى الاعتدال وسط بين طرفين هما الإفراط والتفريط، ويتغير الوسط تبعاً للأفراد والظروف، فالتزام الوسط الفاضل يجب أن يراعى فيه: من، أين، متى، كيف، لماذا. فالوسط عند أرسطو نسبى ومتحرك وليس نقطة جامدة وثابتة. ذكر أرسطو أيضاً أن الشجاعة وسط بين التهور والجبن، وان الاعتدال وسط بين الشره وجمود الشهوة وان السخاء وسط بين التبذير والبخل. يرى عالم النفس أدلر أن التطرف فى كلتا الجانبين مرض، فشدة التقشف أو الإسراف فى الشهوة مرض، وشدة الولع بالارتحال أو الاستقرار مرض، والإمعان فى القسوة أو الشفقة مرض، وصاحب الضمير المتبلد مريض مثل من يبالغ فى الشعور بالنبل ومن تطغى عليه روح الفروسية.

دلت دراسات سيكولوچية الجماعات وأثر الجماعة على السلوك الفردى ان حضور الآخرين يزيد من طاقة الأفراد، بالرغم من أن العمل المتطلب للتركيز والتفكير المبدع يتم بصورة أفضل فى حالة الوحدة. أن مواقف الجماعة قد تعمل على ثورة الأفكار، كما أنها قد تعمل على اعتدالها وتحييدها. من تأثير الجماعة على

أحكام الأفراد هو ما يسمى بالتحول المجازف، فعندما يطلب من مجموعة أفراد اتخاذ قرارات بشأن بعض مشكلات الحياة الواقعية، فإنه من المتوقع أن يتخذوا بعد المناقشة داخل الجماعة قرارا أكثر مجازفة مما يتخذونه عندما يقررون بمفردهم . تشير الدراسات إلى أن من الأسباب القوية للمسايرة مع المجتمع هى الحاجة للانتماء ، فالمسايرة وقبول معايير الجماعة طريقة للسلوك تساعد الفرد على أن يحظى بالقبول من الآخرين، ويظهر التمرد كمرادف آخر إذا أراد الفرد الشذوذ عن الجماعة. لا يعرف النظام الديمقراطى الحر الشذوذ والتمرد، ذلك إذا عبر الفرد برأيه المخالف بطريقة غير عدوانية وعن طريق القنوات الشرعية التى وضعها المجتمع ، وعلى النظام الديمقراطى أن يأخذ الرأى المخالف فى الاعتبار أما بقبوله إذا اقتنع به، أو رفضه إذا لم يكن مناسب للمجتمع أو يعود بالخسارة عليه. يتشكل التمرد الذى قد يتزايد إلى حد الثورة، فقط فى النظم الأوتوقراطية التى لا تسمح بالرأى المخالف، وغالباً ما يكون رد فعل الديكتاتور وزبانيته القمع للقضاء على الرأى الآخر.

جاء فى كتاب (علم النفس الاجتماعى) : « ينشأ لدى الناس عادة الولاء تجاه جماعاتهم والإحساس بالافتخار بها، وهو إحساس بأن جماعاتهم هى أفضل فى بعض النواحى من الجماعات المقارنة التى لا يرتبطون بها. وسواء أكانت هذه المشاعر مبررة أم لا ، فإن أعضاء الجماعة يتأثرون بها. ويوحد الولاء للجماعة الأعضاء فى حالات معينة ويبقى على قيام الأعضاء بالإنجازات الكبيرة، ولكن حيث أن الافتخار بالجماعة غالباً ما يتدعم بالمقارنات السلبية مع الجماعات المتشابهة ، فأنه يصبح مصدراً ممكناً للتنازع والصراع كلما اتصلت الجماعات بعضها ببعض» . قد يكون الصراع الذى يأخذ صورة المنافسة فيه مصلحة للجميع وذلك إذا قبلت جميع الجماعات أن يكون الصراع إيجابياً وسلمياً. إن المنافسة القائمة على مبادئ حضارية وغير عدوانية يلتزم بها الجميع غالباً ما تؤدى إلى التطوير والرقى.

أثار فلاسفة عصر التحديث، بدءاً من القرن السابع عشر عن الإرادة العامة، التى لها وحدها الحق فى قيادة الدولة وتوجيهها نحو الغاية التى أنشىء من أجلها النظام السياسى لما فيه صالح وفائدة للمجموع، أو على الأقل للأغلبية . إن الإرادة

العامة يجب أن تكون مصدر للقانون، يجب أن يطيعه أفراد الشعب وأيضاً السلطان الذى يحكم وينظم . تتشكل الإرادة العامة عندما يضحى الفرد بمصلحته الفردية فى سبيل مصالح أسمى يعود على الجميع بالخير وهو الصالح العام. أنها روح المجموعة التى يجب أن تعى الفائدة الفردية والتى تتعظم من خلال إرادة عامة متفق عليها تمثل الأغلبية. إن الإرادات الفردية قد تتعارض - وربما تتصادم وتتصارع ، وغالباً ما ينتهى الصراع إلى الخسارة لمجموع الأفراد الذين يتشكل منهم المجتمع. أن المصلحة العامة لا تأتى من فراغ، بل من تفاعل الإرادات الفردية التى تصنع الأهداف العامة، والقوانين، والتشريعات، والمنظومات الحياتية التى تنظم العلاقات بين الأفراد بعضهم البعض وبين الأفراد والدولة، وسياسات متفق عليها مسبقاً. عندما يتم وضع الإرادة العامة يجب أن يتجرد أفراد الصفوة الفكرية - وهى المفروض لها أن تحدد الإرادة العامة ومنظومات وسياسات المجموعة - تتجرد من المصلحة الفردية، أى ينسى أو يتناسى الفرد كونه ووضعه الاجتماعى والاقتصادى (المالى) وما يملك وما يصبو إليه ، وطموحه وطمعه ، حتى لا يؤثر وضع الفرد فى قرارات لها طابع شخصى قد لا يخدم الجماعة أو يخدمها بدرجة أقل. عندما يسمو أفراد الصفوة على ذاتها ويتعامل الفرد مع القوانين والتشريعات واللوائح. . التى يشترك فى وضعها بحيدة تامة حتى وإن كانت هذه القوانين والتشريعات واللوائح ضد مصلحته الشخصية فإن المجتمع ككل سيتطور وينمو، أنه العمل من أجل المستقبل ، من أجل حضارة راقية، ومن أجل الأبناء والأحفاد.

يرى بعض الفلاسفة الاجتماعيين أن تكون العلاقة بين الأفراد والسلطان أو الأجهزة الحاكمة هى علاقة مباشرة، فالنقابات والجمعيات والمجالس النيابية ، كلها هيئات لها صفة مصلحة المجموعات الصغيرة (Sub-Group) وقد لا تكون لها دافع المصلحة العامة أو الإرادة العامة. يرى آخرون عكس ذلك، فهذه الهيئات فى نظرهم هى أكبر ضمان لحرية الفرد. ولكن إذا تجرد واضعى القوانين والتشريعات، واللوائح والسياسات العامة، والمنظومات الحياتية، . . إلخ من أى مصلحة شخصية فسوف تتشكل منظومة عامة بما فيها مصلحة وفائدة للجميع . يتبقى شيئين آخرين هامين

أولهما الرقابة والتطوير. النفس البشرية أمارة بالسوء، ورقابة عمل المنظومات واجب حتى لا يحيد هذا العمل عن الصواب والحق، والأخلاق والقيم، الموضوعة سلفاً لعمل المنظومات . ثانياً تطوير العمل فى هذه المنظومات، فالعالم يتكون من شعوب ودول مختلفة، قوميات وأجناس متنوعة. أصبح العالم صغير بحيث تؤثر دولة ما - سلباً أو أيجاباً فى الدول الأخرى، من حيث الثقافة، والاقتصاد، ونقل التكنولوچيا وخلافه . فاكتساب خبرات الآخرين وتطبيق ما يصلح وما فيه مصلحة عامة يؤدى إلى التطوير إلى الأفضل، وهنا دور البحوث والدراسات والتطوير.

دعى مونتسكيو فى القرن الثامن عشر إلى مناقشة علاقة القوانين بالمبادئ التى تكون الروح العام فى المجتمع : « إن الروح العام يتكون فى المجتمع من تعادل العوامل الطبيعية والثقافية التى تكتنفه ، فالناس يخضعون فى حياتهم لعدة عوامل: المناخ، الدين، والقوانين، ومبادئ الحكومة السائدة ، والعادات والتقاليد ، ومن كل هذه الأشياء يتكون الروح العام» . فى رأى مونتسكيو أن على المشرعين أن يراعوا الروح العام فى تشريعاتهم، فلا يصدرون من التشريعات ما يتنافى معه، لأنه يمثل الذوق العام للمجتمع ، فالإصلاح السياسى والاجتماعى يجب أن يكون متمشياً مع ثقافة المجتمع وإلا فشل وجاءت النتيجة بعكس المقصود منه. إن إصلاح وتقويم العادات والتقاليد السائدة فى مجتمع ما، والغير مناسبة للعصر القائم يجب ألا يتم من خلال تشريعات تحرم هذه العادات والتقاليد الراسخة الجذور فى المجتمع ، حيث يكون من العسير جثها واقتلاعها بواسطة القوانين ، ولكن من المناسب والأفضل أن يتم التغيير عن طريق المصلحين والمفكرين. إذا كان مونتسكيو يدعو ويجادل ويناقش فى ظروف مجتمع غربى فى عصور بدأت تتطلع إلى الديمقراطية والحرية والمساواة، والتحرر من جميع الموروثات ، حتى الموروثات العقائدية، فهل يمكن تطبيق نفس الفكر والنصائح التى أوصى بها فى المجتمعات الشرقية التى من الصعب تغيير مفاهيمها وقيمها وتقبلها للخنوع والإذعان بدون فكر. كيف يمكن لهذه المجتمعات قبول مفاهيم التضحية والثورة على: الديكتاتورية ، والتقاليد البالية، والقهر

والإرغام، وذلك بدون ثورة، وبدون إرغام هذه الشعوب لتقبل المفاهيم الجديدة.

وصف روسو فى نفس القرن بعض الشعوب التى رسخت فيها عادات وتقاليد جمدت مع الزمن بأنها شعوب شائخة أى كبرت وهرمت، وأنها أقل استعداداً لقبول تشريعات جديدة، لذا فكل شعب له ظروفه العقائدية والتاريخية والثقافية التى تحتم على المشرع ألا يتجاهلها عند سن القوانين، وفى كل الأحوال ما المشرع إلا مقترح للقوانين التى يجب أن تخضع فى النهاية إلى موافقة الإرادة العامة أو رفضها، والتى تمثل إرادة الشعب بالإجماع. أكد رسو على المساواة، حيث أن المساواة ضرورية ولازمة للوصول إلى الحرية، وليس معنى المساواة أن يتساوى جميع الأفراد فى مكانتهم الاجتماعية وثرواتهم، ولكنها تعنى المساواة فى الحقوق والالتزامات، والثروة فى رأيه يجب أن تكون موزعة بحيث لا يستطيع الغنى أن يشترى الفقير، أو أن يلجأ الفقير إلى بيع نفسه للغنى (البيع بمعنى الخضوع، أو التزلف والتملق والرياء) . فى النهاية فإن روسو يدعو إلى الحرية، والمساواة، وتضييق الفوارق بين الطبقات. قسم روسو القوانين إلى ثلاث، أولهم القوانين السياسية التى تحدد علاقة الدولة من حيث هى هيئة ذات سيادة وسلطان بالشعب، وهو ما يسمى بالقوانين الدستورية أو القانون العام. ثانياً القوانين التى تحدد علاقة الأفراد بعضهم ببعض أو علاقة كل منهم بالدولة، وهى القوانين المدنية. وأخيراً قوانين تحدد علاقة الفرد بالقانون بحيث يعاقب الخارج على القانون عقاباً محدوداً وموضوعاً وتلك هى القوانين الجنائية . نوه روسو إلى القوانين الغير مكتوبة، وإن كانت راسخة فى مكنون الأفراد ، وهى العادات والتقاليد المستقرة.

ذهب روسو إلى أن الحكومة هى مجرد هيئة مفوضة من الشعب للقيام بنوع خاص من الأعمال وهى أعمال التنفيذ، ويجب أن يظل الشعب محتفظاً بحقه فى التشريع ، فتشكيل الحكومة أو تفويضها يتم وفق قانون يصدر عن الإرادة العامة للشعب، وأعضاؤها ليسوا سادة الشعب، بل هم مجرد موظفين يعملون فى خدمة الشعب (خدام الشعب) وأن أى حكومة تكون مؤقته يستطيع الشعب أن يغيرها، سواء بتغير أعضائها أو بتغير شكلها فى أى وقت يراه مناسباً.

إذا فالحكومة هى هيئة وسيطة بين الشعب والحاكم لكى تتولى تنفيذ القوانين وصيانة الحريات المدنية، والحاكم هو الذى اختاره الشعب وفقاً لعقد حكم، فيه يفوض الشعب الحاكم بالحكم، أو بمعنى آخر إدارة نظام الدولة ككل وفقًا لإرادة الشعب وأهدافه وأمانيه والحكم الديمقراطى السليم يستند على الإرادسة العامة بما فيه الصالح العام. ولكن كيف السبيل إلى معرفة الإرادة العامة؟ السبيل الوحيد يبدأ بالحرية ليثور العقل، فيفكر ويحلل، وينتقى أهدافه فى مناخ ديمقراطى حر، وثقافة حضارية (كلمة الثقافة تعنى العقيدة، والعادات، والقيم الأخلاقية، والتقاليد، والسلوك العام، وأسلوب المعيشة، والتكنولوچيا المطبقة، . . . إلخ».

كتب روسو فى الميثاق الاجتماعى ، والعلاقة بين الأفراد بعضهم البعض: «لابد من إيجاد نوع من الاتحاد من شأنه استخدام قوة المجتمع كلها فى حماية كل فرد من أعضائه، وممتلكاته ، وذلك بطريقة تجعل كل فرد، إذ يتحد مع قرنائه ، إنما يطيع إرادة نفسه، ويظل حراً كما كان من قبل» . فالميثاق الاجتماعى هو وثيقة اجتماع تقوى الفرد وتحميه دون الحد من حريته الشخصية، وإرادته الفردية. بالطبع لا يمكن بأى حال من الأحوال تحقيق معادلة الانتساب الكامل للمجموع، والحرية الفردية الكاملة . إذا تركنا أفكار روسو لوهلة، فان المجتمع يستطيع حل هذه المعادلة التى ليس لها حل رياضى محدد بقليل من التنازلات والمرونة. للمجتمع ككل، أو للشعب كإرادة عامة وأهداف مشتركة : مثل تحقيق العدالة، والمساواة، والحرية، والديمقراطية، والرفاهية. . . إلخ للشعب، وعن طريق الجمعيات أو التكوينات الأقل حجماً وعدداً، تستطيع الآراء والأفكار المشتركة أن تعبر عن نفسها وتبلور أفكارها، ثم تعرض أفكارها على الجمعيات الأخرى أو الأفراد الذين ليسوا لهم جمعية أو كيان لا ينتموا إليه. بالديمقراطية الحضارية، دون عنف أو اتهامات (بالخيانة والعمالة، والكفر والإلحاد، . . . إلخ) تتحقق الحرية الفردية فى إطار حرية الجماعة. . كل فرد له عقيدة أو رأى أو إيدلوچية يستطيع أن ينشر رأيه ويدافع عن عقيدته دون المساس بعقيدة أو رأى الآخر. قد يتنازل الفرد عن جزء من حريته وسلطته ولكن القدر الذى يتنازل فيه الفرد يجب ألا يزيد عن ما يتطلبه خير المجتمع

ورفاهيته واستقراره، وتطور مستمر إلى الأفضل. ليس المطلوب فقط سن القوانين، ولكن يجب أن تعم المساواة على الشعب الذى سيطبق عليهم القوانين، ان وجود طبقة الصفوة ، وذو الحذوة والسلطة يؤدى إلى تكثيف نخر سوس الفساد فى الشعب الذى يعتبر هيكل الأمة. ان ساد الفساد فى السلطة التى يجب أن تكون قدوة للجميع فلن تستطيع الأجهزة الرقابية التى تراقب وتحاسب أن تقوم بعملها إلا بالظلم، فالضعيف يطبق عليه الحد، أما القوى صاحب السلطان سيفلت من العقاب ليتمتع بما اغتصب من حقوق الآخرين. من السهل أن يسن المشرع القوانين العادلة والصالحة للتطبيق ولكن من الصعب أن تطبق هذه القوانين بالعدل، والمساواة فى التطبيق، فالضعف الإنسانى وارد وغالب فى النفس البشرية، والحضارة الراقية يجب أن تسمو بالشعب إلى القوة والأخلاق الحميدة.

وأخيراً فإن وجود الرقابة قد يحافظ على المعايير والقيم الأخلاقية لتطبيق إرادة الشعب، فوجود الرقابة الحقيقية من الشعب قبل الحكومة تغذى قوة القوانين وحيويتها، فهى تحول دون فساد الرأى، وفساد التطبيق أو ميوعته أو تحيزه إلى فئة ما. تعرف القيم بما يعتقده البشر عما يجب أن تكون عليه الحياة بمعايير المجتمع ، أنها القواعد المقبولة اجتماعياً أى التى تحظى بالقبول العام. كثيراً من الدول لديها كم هائل من القوانين واللوائح الجيدة والمفيدة ، ولكن بوجود طبقة المفسدين والمرائين ذوى الذمة العفنة ، تضيع روح القوانين ، وتحور حسب الحالة بما فيه ميزات لبعض الأفراد.

يرى المفكر الفرنسى برتران بادى أن المجتمع الإنسانى ليس إلا تلاقيا بين إرادات فردية متعددة، فإنه يجد نفسه منساقاً بتدبير من هذه الإرادات ، وبأحكام العقد الاجتماعى، وحينئذ يتم إقصاء فرضية أرسطو بشأن المدينة الطبيعية، استناداً إلى الفردية المسيحية . ان مدينة البشر على عكس مدينة القديسين لا تمثل سوى أداة بارعة للوحدة لا يتم المحافظة عليها إلا بممارسة العقد الاجتماعى. وتنتج الفردية مفهوماً آخر خاص بالتمثيل الذى ليس من صنع الطبيعة هذه المرة لكنه تفويض متبصر، ومنفذ بإرادة البشر.

ذهب الفيلسوف البريطانى برتراند راسل إلى أن أنجح المجتمعات هى التى تضحى بمصلحة الأفراد فى سبيل مصلحة الجماعة، أو على الأقل تخضعها لها ، فتزدهر المجتمعات التى تسود فيها الأعراف الأخلاقية التى تعلى شأن الصالح العام، بينما المجتمعات التى تسود فيها أعراف تتجاهل الصالح العام فى سبيل المصالح الفردية مصيرها هو الانهيار فالانقراض.

فى القرن العشرين اختلف الفيلسوف النمساوى فردريك هايك عن فلاسفة العدالة الاجتماعية ، فكانت الحرية عند هايك لها مرتبة أولى على كل الغايات الفكرية الأخرى، حرية الفكر عند هايك تسبق باقى القيم الأخرى مثل المساواة، والعدالة الاجتماعية وغيرها من القيم التى يعيش بها الإنسان . لقد رفض هايك كل المذاهب التى تدعو إلى المساواة بين أفراد المجتمع، أو التى تنادى بتطبيق العدالة الاجتماعية، أو عدالة توزيع ثروة البلد بين أفراد الشعب أو المجتمع . لذا عارض هايك جميع أصحاب الأيدلوچيات الأخرى، من اشتراكيين ساءهم المناداة بعدم توزيع الثروة وإذابة الفوارق بين طبقات الشعب، أو الليبراليين المحافظين الجدد الذين ينادون بالمساواة والعدالة الاجتماعية ، والذى يعتبرون الحرية أداة لصنع حضارة متقدمة وليست غاية فى حد ذاتها. إذا كان الصدق والعدل يتصدرا مراتب القيم الأخلاقية منذ الأزمنة القديمة، فإن إنسان العصر الحديث يعطى أولوية لكل ما يعمق معنى حياة الفرد. فالإنسان يعيش لفترة محدودة ومن حقه أن يعيش خلال هذه الفترة ليس فقط فى رفاهية ولكن فى معانى إنسانية عميقة وقيمه.

مازالت تعانى كثير من الدول المتخلفة أو ماتسمى دول العالم الثالث من الحكم الاستبدادى القائم أما على القمع أو الاستغلال الصورى للديمقراطية والحرية المزيفة كغلاف يستتر ورائه أقصى أنواع الحكم الديكتاتورى. كتب فوكوياما فى هذا المجال: « كان ضعف الأنظمة الاستبدادية اليمينية ماثلاً فى فشلها فى التحكم فى المجتمع المدنى. فإن كانت قد وصلت إلى الحكم بنوع من التفويض كى تعيد النظام إلى نصابه، أو كى تفرض الانتظام فى الحياة الاقتصادية، فإن الكثير منها لم يصادف نجاحاً أكبر مما لاقته الأنظمة الديمقراطية السابقة عليها فيما يتصل بتشجيع نمو

اقتصادى مطرد أو خلق وعى بالنظام الاجتماعى. وأما تلك التى صادفت النجاح فقد ارتد كيدها إلى نحرها، حيث أن المجتمعات التى تربعت على قمتها بدأ أفرادها يشبون عن الطوق بارتفاع مستوى تعليمهم ومعيشتهم ، وبتحولهم إلى طبقة متوسطة. وقد سعت الحكومات الشمولية اليسارية إلى تجنب هذه المشكلات عن طريق أخضاع المجتمع المدنى بأسره لسيطرتها، بما فى ذلك طبيعة تفكير المواطنين، غير أن مثل هذا النظام – فى صورته المثالية المحضة – لا يمكنه البقاء إلا بفضل إرهاب من شأنه فى النهاية أن يهدد الحكام أنفسهم. . كذلك فإنه ليس بوسع الكثير من الأنظمة الشمولية أن تبقى على حالها بعد أزمنة أو أكثر من أزمات الصراع على الخلافة . ففى غياب قواعد للخلافة مقبولة من الجميع، سيكون أمام أى متنافس طموح على السلطة إغراء إثارة الشك فى النظام كله بدعوته – أثناء صراعه مع منافسيه – إلى إصلاحات جذرية . ذلك أن فرصة الربح بورقة الإصلاح فرصة قوية».

اختلف علماء الاجتماع فى القرن العشرين على نظريتين ، أولهما نظرية الإجماع أو نظرية الوظيفية البنائية التى تقوم على أن المعايير والقيم هى العناصر الأساسية للحياة الاجتماعية التى تقتضى الالتزام والتماسك والتضامن والتعاون والاعتراف بالسلطة الشرعية. أما النظرية الثانية فهى نظرية الصراع التى تقوم على أن المصالح هى الأساس فى الحياة الاجتماعية التى تقتضى استعمال أسلوب الترغيب والترهيب، وأن الحياة الاجتماعية منقسمة بالضرورة وهى التى تخلق التعارض والحرمان والعداء. أيضاً تقر نظرية الصراع بحتمية وجود التمايز الاجتماعى والمصالح الفردية والفئوية واتجاه المجتمع المستمر نحو التغيير. ان المنظومة البشرية قائمة فى الواقع على النظريتين ، فالصراع الفردى والفئوى موجود فى المنظومة، والمعايير والقيم التى تضعها الجماعة هى لحماية فئات أو الحصول على مكاسب على حساب فئات أخرى. الصراع الفردى/ الفئوى مغروز بالجينات فى سلوك الإنسان، ولكن لعدم كفاءة القدرة النفسية والعصبية المحدودة فى عالم البشر – حتى الآن – وضع الإنسان القيم ليستند إليها عند الركون إلى الراحة بعد عناء الصراع. إن

ديناميكية النظام البشرى هى التى تؤدى إلى الصراع، والعكس صحيح فالصراع يؤدى إلى الحركة التى هى دالة فى الزمن، فالزمن هو تغير والتغير حركة، وعدم التغير لا نستطيع أن نقول أنه موت ولكن معناه الجمود أى لا زمان. تأتى غريزة حب البقاء التى تؤدى إلى الصراع والمهادنة (أو الاتجاه إلى المجموع / المجتمع ، ووضع القيم) فى نفس الوقت فالصراع لازم فى حالة وجود ندرة العرض وضغط الحاجة، والاتجاه المجتمعى واجب للتكامل والتضامن لسد النقص والعجز فى قدرات الإنسان المحدودة.

كتب عالم الاجتماع البريطانى إيان كريب فى كتابه (النظرية الاجتماعية) عن النظريات الاجتماعية المختلفة خاصة فى القرن العشرين وظهور نظرية أخرى تحت اسم نظرية التبادل (Exchange Theory) أو نظرية الاختيار العقلانى. تدعى النظرية أن البشر يمارسون سلوكاً يجلب لهم منافع ويشبع لديهم احتياجات، فنشاطات البشر المتبادلة ترمى إلى الحصول على الحد الأقصى من المنفعة القائمة على الاجراءات العقلانية التى يتبعها البشر فى تقرير أفعالهم، فالإنسان يرتب الأهداف المراد الحصول عليها والبدائل المتاحة بحيث يكون معيار الاختيار الأفضل ثم الأقل أفضلية أو الأقل خسارة ثم التالى فى الخسارة (Benefit Maximization / Cost Minimization).

فالإنسان يختار دائماً أكبر درجة من الإشباع أو المنفعة، ويتجنب دائماً أكبر قدر من الخسارة .. يظهر الصراع فى التعارض بين المصالح المختلفة بين الأفراد/ الفئات. وتقدر الظروف اتجاه الفرد: إلى الصراع أو المهادنة، أيضاً بالاختيار العقلانى يمكن الحصول على أكبر فائدة/ أقل خسارة من الصراع والمهادنة.

تعرف الديمقراطية السياسية بأنها الوسيلة للوصول إلى أفضل حل سياسى من خلال المؤسسات الديمقراطية بدون صدم أو نزاع بين جميع الأطراف المختلفة. يقول هابرماس فى هذا الشأن : « لكى يكون حسم النزاع ديمقراطيا يجب أن يجرى من خلال مناقشة صريحة وغير قسرية للقضية موضوع الخلاف بهدف الوصول إلى حكم متفق عليه». كتب أيضاً عالم الاجتماع البريطانى أنطونى جيدنز فى كتابه

(بعيدا عن اليسار واليمين - مستقبل السياسات الراديكالية) عن الوسيلة التى يمكن من خلالها الوصول إلى اتفاق فى ديمقراطية المداولة: « يمكن للمشاركين الاتفاق بشأن معيار أو معايير توجه تقييمهم لعدد من القرارات السياسية المحددة، أو الاتفاق بشأن إجراء يمكن اتخاذه فيما يتعلق بالحالات الخلافية، ويفيد مفهوم المداولة التأكيد على الطريقة التى يجرى بها الحوار الصريح ليشمل جميع وجهات النظر، والاستماع إليها لكفالة شرعية النتيجة حيث يبين للمتحاورين أنها تعكس حوارهم فيما سبق. ولن يكون التأكيد على المداولة من حيث هى إجراء استكشافى بحثاً عن إجابة صحيحة».

ظهرت فى الغرب نزعة حديثة تسمى الليبرالية الجديدة، ترى أن النزعة الفردية التنافسية لا تستطيع التوسع إلى مالانهاية، إذ أن إطار الحياة الاجتماعية تشدها إلى الداخل. ان تفكك الحياة الأسرية فى الغرب - بدأ هذا التفكك فى الشرق أيضاً - أقوى شاهد على ذلك. كتب انطونى جيدنز فى المرجع السابق ذكره: « ان الأسرة شأن الدولة، يجب أن تكون قوية، ويتعين تعزيز الروابط الأسرية حيثما أصابها الضعف، وهناك من يعزو انهيار الأسرة إلى مصادر متعددة: إلى الإباحية الجنسية التى بدأت فى الستينيات (من القرن العشرين)، وإلى تساهل الوالدين، وتصاعد الحركة النسائية، والانتشار الصريح للمثلية (الشذوذ) الجنسية». أشار الكاتب أيضاً إلى مزايا الليبرالية الجديدة الذى ينكر فيها سوق المال والاقتصاد أى فوارق اجتماعية وثقافية بين الأفراد، وكذلك تنكر الفوارق بين الأمم، ومن ثم فإن انتشار الرأسمالية متعددة القومية سوف تنتفى معه الحروب. لقد انتفت الحروب فعلاً بين الدول الغربية المتقدمة لأسباب أخرى عديدة، منها التقدم الحضارى، وارتفاع مستوى معيشة الفرد، وذكرى معاناة الخوض فى حربين عالميتين مدمرتين.

إذا كان الفرد هو نسيج قائم بذاته لا يشابه كائن حى آخر، فالاختلاف سمة حتمية فى منظومة الكائنات الحية. لا يوجد مجتمع دون صراع داخلى، فالصراع نابع من وجود القوى المتنافرة داخل نفس المجتمع. قد ينتج من الصراع الانفصال التام، أو العكس قد تتفق الأطراف المتصارعة على العيش معاً، فقد يحدث حالة من تكامل المنفعة المتبادلة إذا كان الانفصال الكامل فيه ضرر للطرفين المتصارعين، أو إذا

كانت عناصر الجذب من عادات وتقاليد وتاريخ مشترك وأهداف مشتركة.. إلخ، متغلبة على قوى عناصر التنافر . ان المجتمع المتحضر بجميع طبقاته وفئاته، وقومياته ودياناته وإيدلوجياته ، يستطيع وضع أسس عامة يتفق عليها الجميع. يتم هذا التناغم أو التكامل المجتمعى من خلال مرونة جميع الأطراف بالتخلى عن بعض المعايير، أو العادات، أو النمط السلوكى، لتشكيل المجتمع من جديد فى صورة مناسبة وملائمة ومتوازنة لجميع الأطراف.

صدر فى أوائل سبعينات القرن العشرين كتاب فى الفلسفة السياسية من تأليف جون رولز باسم (نظرية فى العدل) يحتوى على سبعة وثمانية بحثاً فى موضوعات مختلفة، منها: المتعصبون والتسامح - مفهوم العدل فى الاقتصاد السياسى - مشكلة العدل بين الأجيال - واجب الالتزام بطاعة القوانين غير العادلة - احترام الذات والتفوق والإحساس بالخزى - مفهوم المجتمع المنظم تنظيماً جيداً - مبادئ السيكولوچية الأخلاقية - فكرة النقابات . كان الهدف الرئيسى للكتاب هو تقديم أساس نظرى متماسك لمفهوم العدل، كبديل لما يقدمه مذهب المنفعة العامة، الذى نادى به الفيلسوف الإنجليزى جيرمى بنتام فى بداية القرن التاسع عشر. عارض رولز وجهة النظر المنفعية التى ظهرت أولاً فى كتابات دافيد هيوم، ثم تطورت على أيدى بنتام، ومن خلال كتاب جون ستيورات مل مذهب المنفعة العامة (Utilitarianism) وفى كتابه (نسق فى المنطق) كان رأى مل أن المعيار الذى نميز به بين الخير والشر، وبين المطلق والنسبى، وبين الغايات والوسائل هو: مدى ما يتولد من السعادة للجنس البشرى. من خلال هذا المعيار يجب أن تحدد قواعد السلوك العملى والأخلاقى. نادى رواد هذا المبدأ إلى أن الإنسان يجب أن يراعى فى كل فعل من أفعاله أن يعود هذا الفعل بأكبر قدر من السعادة لأكثر عدد من البشر ولأطول مدة من الزمن.

نقد مذهب المنفعة العامة الكثير من الفلاسفة والمصلحين ، فقد تتعارض معظمة (Optimization) المنفعة العامة مع معظمه العدد الذى يعم عليه المنفعة . أيضاً يؤخذ على هذا المذهب عدم التعريف الدقيق للمنفعة، فالمنفعة نسبية ولا يوجد معيار أو

مقياس محدد لتقيمها، فما ينفع فرد قد لا ينفع الآخر. اسقط مذهب المنفعة العامة الأقلية التى لم تنل نصيب من عموم الاستفادة - مثلا وهذه هى الأوضاع الواقعية- إذا كانت ميزانية الدولة محدودة فى بنود العلاج والتعليم، فمن سوف يستفيد بالعلاج وبالتعليم، هل هو الأغنى القادر والذى يملك مشروعات اقتصادية ويؤدى مرضه إلى أن تتأثر هذه المشروعات سلبياً ، أو يذهب العلاج إلى المثقف والمعلم الذى يؤدى مرضه إلى ظهور جيل جاهل وغير مثقف ، أو يذهب العلاج إلى الأطباء الذين يعالجون المرضى، أو العلماء والمهندسون الذين يبنون ويشيدون . ما ذنب الإنسان العادى ، هل يهمل علاجه أو تعليمه، فالنقد هنا منطقى طالما لا يوجد المعيار الواضح والعادل للاختيار فى ظل ندرة الموارد المتاحة.

يقر رولز أن العدل هو الفضيلة الأولى، كما يعتبر أساس الهيكل الاجتماعى، لذا يجب أن تكون جميع الإجراءات التشريعية والسياسية متماشية مع مبادئ العدل. إن أول مجالات العدل هو توزيع الطيبات بمعناها الواسع الذى يشمل كل ما تصبو إليه نفس الإنسان من مال، وجاه، وحرية، وتعليم، وفرص متاحة فى العمل وفى الخدمات ، واحترام الذات، وفى قضاء وقت الفراغ. ان توزيع هذه الطيبات فى المجتمع العادل يعتمد على مبادئ العدل المعمول به ضمن نظام متكامل من الحقوق والواجبات.

إذا كانت رؤية المجتمع نحو المنفعة العامة فسوف يكون الهدف تحقيق أكبر قدر ممكن من الرفاهية لأكثر عدد من الناس، أما إذا كان المجتمع يتبنى مذهب الكمال، فإن الهدف سيتحول إلى تنمية ورعاية المتفوقين من أبناء الشعب العادية لتتعاظم المنفعة لصفوة المجتمع. لذا ذهب رولز بنظريته إلى تعريف العدل من منطلق معتقداتنا العامة، ومن خلال رؤية جديدة لما ينبغى أن تكون عليه المنظومة الاجتماعية. عندما قام رولز بتطوير نظريته الجديدة، تصور المحددات الأساسية للطبيعة الإنسانية، فلكل إنسان أهداف، يتوقف تحقيقها على ما أسماه رولز بالمنافع أو الفوائد الأولية، وإن إشباع الحاجات الإنسانية يعتمد على مدى اندماج الفرد فى الأنشطة الاجتماعية.

تخيل رولز أن مجموعة من الأفراد قد اجتمعوا بغرض التفاوض للوصول إلى مبادئ العدل التى سوف تحكم نشاطهم مستقبلاً . هذا التفاوض يتم على أسس وضوابط معينة ، منها أنه لا يوجد ضغط أو إكراه على أى من المتفاوضين، وان المبادئ التى سيتوصلون إليها ستكون ملزمة للجميع. أما بالنسبة للمتفاوضين فهم إناس عقلانين، يتمتع كل واحد منهم بثقافة متعمقة فى جميع المجالات، من فلسفة، وعلم نفس، وعلم اجتماع، واقتصاد، وزراعة، وقانون، وهندسة، وطب، وفيزياء، وكيمياء، وخلافه، وان المفاوضات لا تقوم على خلفية تاريخية، أى لا تقوم على خبرات سابقة. طبيعى أن يكون لكل متفاوض خطة عقلانية لحياته، وأهداف محددة يقرر من خلالها أنجح الوسائل لتحقيقها. ان كل فرد من المتفاوضين مثل سائر البشر معنى بتحقيق مصالحه الخاصة وأهدافه الشخصية إلى أقصى حد ممكن دون أن يعنيه مصلحة باقى المتفاوضين ، كل فرد لا يشعر بالتعاطف أو الانحياز إلى الآخرين، ولكن فى نفس الوقت لا يكن لهم أى ضغينة أو حسد، ولا يهاجمهم أو يضع أمام أهدافهم العراقيل. فجميعهم بشر يعيشون فى الحالة الطبيعية من متناقضات واختلافات، وتباين وتضاد، حتى الآن تعتبر هذه الصورة مماثلة لنظريات العقد الاجتماعى التى دعى إليها كثير من فلاسفة القرون السابقة مثل لوك وروسو ومل. يجىء الاختلاف فى أن رولز قد طرح بعداً جديداً أطلق عليه (حجاب الجهالة Veil of Ignorance).

أضاف هذا البعد الجديد الأهمية لنظرية رولز فى الفلسفة السياسية. يتمثل حجاب الجهالة فى أن كل فرد من المتفاوضين وإن كان يتمتع بمعرفة واسعة ومتعمقة فى سائر المجالات، إلا أنه يجهل كل شىء عن نفسه: من تاريخه السابق وعمره، وعمله، وعائلته، ومصالحه الشخصية، وقدراته العقلية والبدنية، وجنسه ولونه، وفى أى عصر يعيش ، حتى اسمه يجهله . وعليه فإن كل متفاوض لا يعلم إلا أنه إنسان وكذا لديه معلومات متخصصة قد لا تكون فى مجال عمله، فهو قد تكون مهنته طبيباً ولكن معلوماته المتوافرة عند التفاوض فى مجال الهندسة. إن الغرض من البعد الجديد الذى أضافه رولز والمسمى حجاب الجهالة هو ضمان الحيدة التامة لعملية

التفاوض، ومنع محاولة أى متفاوض من الانحياز إلى أوضاعه الشخصية أو الفئة التى ينتمى إليها بحيث يقوم بتفصيل القوانين التى تناسبه فقط دون الآخرين. طالما لايدرى المتفاوض ماكنيته فهو دائماً فى خوف أن يقع الضرر عليه إذا إنحاز لمبدأ معين أو قانون خاص ، وذلك عندما يرفع عنه حجاب الجهالة بعد عملية التفاوض فى سن القوانين ووضع اللوائح والتنظيمات.

تبدأ الخطوة الأولى فى عملية التفاوض باستعراض جميع مبادئ العدل والقيم التى عرفها الإنسان عبر تاريخه ، ليختاروا منها أو من خارجها ما يلائم ظروف مجتمعهم ، ولكل مفاوض كامل الحرية فى التعبير عن آرائه وأفكاره حتى لو كانت هذه الآراء وتلك الأفكار تحابى جزء معين من المنظومة الحياتية، مثل الانسياق مع الطبيعة، أو مبدأ القوة، أو الانحياز إلى فئة من فئات المجتمع ، أكانت هذه الفئة من الضعفاء أو الأقوياء، أو كانت من الأغنياء أو الفقراء، أو كانت من الأغلبية أو الأقلية. سوف يوجد دائماً المتفاوض المعارض، الذى يخشى أن يضره الانحياز والبعد عن الحياد إذا سقط الحجاب. من المنطقى والبديهى أن يجمع كل المتفاوضين على الاختيارات الخيره. وتجيء الخطوة التالية باستعراض مبادئ التوزيع التى عرفها الفكر الاقتصادى والسياسى، حيث يرفضون أى مبدأ للتوزيع يقوم على التحيز لشريحة من المجتمع على حساب الشرائح الأخرى، ولكن بعقلانية سوف يذهبون إلى بعض التميز فى مجال التوزيع يمكن أن يستفيد منها الجميع، ومثال على ذلك منح الأطباء وأطقم التمريض وسائل انتقال إذا لزم الأمر لإسعاف المرضى والمصابين، لأنه من المحتمل أن يتعرض لأى مفاوض لظروف المرض أو الإصابة.

ذهب رولز إلى أن المبدأ الأول الذى سيتوصل إليه المتفاوضين سيكون خاص بالحرية، ويمكن أن يجيء على النحو التالى: «لكل شخص الحق فى التمتع بأكبر قدر من الحرية، غير أن أكبر قدر من الحرية يمنح لشخص معين قد يتعارض مع حق شخص آخر فى أن يكون له كذلك أكبر قدر من الحرية» ، وعليه يمكن إعادة صياغة هذا المبدأ إلى : « لكل شخص حق متكافئ فى ذلك النسق الشامل من الحريات

الأساسية المتكافئة وعلى نحو يتسق مع نسق مماثل من الحرية للجميع» . ان المبرر الوحيد لتقييد الحرية من وجهة نظر رولز هو أن تقييد الحرية يضمن تحقيق نسق أشمل من الحرية للجميع. يجيء المبدأ الثانى فى مجال الفرص والمزايا الاجتماعية والذى يرتبط بوظائف ومواقع مفتوحة للجميع فى ظل ظروف من الفرص المتكافئة . داخل إطار المبدئين السابقين يشرح رولز كيفية إقامة التنظيم الاجتماعى من خلال المتفاوضين . فى هذه المرحلة يرتفع جزئياً حجاب الجهالة بالقدر الذى يسمح للمتفاوضين صياغة الدستور وتحديد سلطات الحكومة والحريات الأساسية للمواطنين، حيث أن صياغة دستور أى نظام اجتماعى وسياسى يتطلب قدر معين من المعلومات مثل الظروف الطبيعية والموارد المتاحة والتقدم التكنولوجى والمستوى الاقتصادى ، والثقافة السائدة من عقيدة وعادات ومبادئ عامة وسلوك وقيم أخلاقية. لذا لابد أن تتوافر للمتفاوض بعض المعلومات الضرورية واللازمة لصياغة الدستور ، والذى يتم عن طريق الكشف الجزئى لحجاب الجهالة . ان المبدئين الأساسيين السابق ذكرهما سوف يقودا المتفاوضين إلى التركيز على ضمان حرية الفكر والحرية الشخصية والحقوق السياسية المتكافئة.

بعد أن تنتهى عملية صياغة الدستور ، تبدأ مرحلة جديدة بأن يتحول المتفاوضين إلى مشرعين لسن القوانين، وهم مقيدون بمبدأى العدل والدستور. فى هذه المرحلة يرتفع حجاب الجهالة درجة أخرى ليحصل المتفاوضين على معلومات جديدة عن المجتمع الذى يشرعون قوانينه. لضمان الحياد أثناء العملية التشريعية، تظل البيانات الشخصية للمتفاوضين مجهولة. هذه المرحلة تتسم بمراعاة مبدأ التباين والاختلاف بين أفراد المجتمع، فستهدف التشريعات الاقتصادية والاجتماعية ذوى الامتياز الأدنى مثلا، وربما أكثر من باقى المواطنين ، وكذلك الأقليات العقائدية والفكرية والقومية وخلافه. فالحكومة فى رأى رولز لا تنحصر وظيفتها فى حفظ النظام الاجتماعى بل يجب أن تراعى مصلحة الشرائح الأكثر احتياجاً فى المجتمع. إن الطبيعة لا تمنح نفس المزايا الجسدية والعقلية لكل البشر، والماضى لا يساوى بين البشر بما سوف

يورثونه . نحن لا نستطيع تغير أو تحجيم الطبيعة أو القدر ، إلا أننا نستطيع - بقدر ما - تحجيم الآثار المترتبة على ظروف خارجة عن إرادتنا ، وتخفيف نتائج مورثاتنا من النقائص.

واجه رولز العديد من الانتقادات ، يمكن تصنيف أكثرها فى ثلاث:

أولاً : ان الحجاب الكثيف من الجهالة سوف يعجز المتفاوضين عن التفاوض، والوصول إلى اتخاذ أى قرار.

ثانياً : يوجد دائماً المتفاوض المخاطر الذى يلتزم بمبدأ المخاطرة المحسوبة الذى لن يراعى أوضاع ذوى الامتياز الأدنى مخافة أن يكون هو منهم.

ثالثاً : ان الكثير من البشر لا يشعرون أن العمل لمصلحة الأدنى هو نوع من العدل.

بالرغم من النقد الذى واجه هذه النظرية، إلا أن أفكار رولز وضعته فى مرتبة متقدمة فى صفوف الفلسفة السياسية والاجتماعية فى القرن العشرين. لقد تكلم رولز بحرية، وأيده الكثيرون بدون خوف، وعارضه آخرون بدون حساسية، وتفاعلت الآراء والأفكار ليستوى الطيب، ويذهب الخبيث.

إن مجال عمل العقل فى تطوير النظم السياسية والاجتماعية سيستمر فى التقدم، ففاعلية العقل ليس لها حدود إلا بالنسبة للخالق، فالمخلوق لا يصل أبداً إلى مرتبة الخالق. الإنسان الذى يستخدم عقله دائماً يسعى إلى التطوير والتحسين، قد تخاذله الرؤية أحياناً، ولكن السعى يؤدى حتماً إلى التغير الذى هو من سمة المنظومة البشرية، وأكثر احتمالاً الوصول إلى هدف التطوير وإلى ما فيه فائدة إلى ذاته ومجتمعه.

الصراع سمة رئيسية فى منظومة الحياة الحية ، فكل كائن حى ولد ليكون له الحق فى الحياة، ولكن غالباً بل حتمياً تتعارض المصالح والأهواء، ليبدأ الاختلاف والتضاد والنزاع والصراع . يتصارع الأفراد والجماعات والدول، وفى الحياة السياسية

أيضاً تظهر المواجهة بين الحكومة والمعارضة، ويبذل كل من الطرفين الوسائل المتاحة لديه للضغط على الطرف الآخر . تتخلص وسائل الضغط السياسى فى خمس نقاط رئيسية :

- الإقناع ، من خلال عرض التحليل العقلانى، والحوار الإيجابى الموضوعى والقائم على أسس منطقية.
- التهديد والابتزاز بأنواعه المختلفة مثل : عدم الانتخاب ، وكشف الأخطاء والفضائح . . . إلخ.
- الرشوة : من رشوة جماعية من خلال الأحزاب ، أو الرشوة الفردية.
- المقاومة السلبية عن طريق عرقلة العمل أو التوقف عن العمل (الاضراب والمظاهرات).
- وأخيراً العنف واستعمال القوة.

عدد الدكتور صلاح زرتوقه فى كتابه «أنماط الاستيلاء على السلطة فى الدول العربية» أسباب أهمية عملية انتقال السلطة فى الدولة، فانتقال السلطة يعد مؤشراً لحالة الاستقرار السياسى للنظام ومقياس لمدى التطور الديمقراطى . نوه الدكتور زرتوقه على مقولة توماس هوبز: «لا كمال فى الحكم ما لم يتم الترتيب للخلافة القادمة فى ظل الحكم الحالى» وذلك لتفادى حالة الفوضى التى قد تحدث فى عملية نقل السلطة. تعرض الكتاب للخلافة فى الفكر السياسى الإسلامى : « الخلافة السياسية هى أول قضية انقسم حولها المسلمون ، وهى القضية التى أدى الخلاف حول جوانبها إلى ظهور فرق ومذاهب ومدارس وتيارات فكرية. . وفى الواقع ظهر فى الإسلام بخصوص هذه القضية ثلاثة نظم فكرية أساسية: أحدها الفقه الإسلامى - أحد النماذج الفقهية التى تمثل الحل الوسط ما قدمها الماوردى فى (القرن الحادى عشر الميلادى) من نموذج للخلافة الإسلامية وتمثل فى ثلاث مدارس أو اتجاهات : السنة والخوارج والشيعة، والثالث النظرية السياسية ويمثله ابن خلدون. . . . يأتى ابن خلدون فى القرن الرابع عشر الميلادى، وقد عرف الخلافة بأنها حمل الكافة على

مقتضى النظر فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به، ويحلل ابن خلدون دور (العصبية) فى نقل السلطة السياسية، فيؤكد على ضرورتها لإقامة هذه السلطة سواء داخل الجماعة، أو فى المجتمع ككل» . أما عملية الخلافة فى الفكر الماركسى كما جاء فى المرجع السابق: «يرى الماركسيون أن خلافة الحكام على المستوى الرئاسى، لا قيمة لها، ما بقيت الطبقة محتفظة بالسلطة، . . . . أصبحت معالم الطريق إلى السلطة السوفيتية العليا واضحة وتبدأ بالتسلق من خلال بيروقراطية الحزب عادة، ونادراً ما تكون من خلال الجيش أو الحكومة، وحرص المتسلق إلى السلطة من ضمان علاقة وطيدة مع شخص له نفوذ فى المستويات العليا، لكنه لا يغلق قنوات الاتصال مع غيره من الأشخاص، تحسباً من عدم قدرته على مساعدته، ثم يحشد الأتباع والمؤيدين ويقتنص الفرصة المناسبة لامتطاء المكان المناسب، ثم يحاول تقسيم خصومة وإشاعة الفرقة بين منافسيه، وذلك عن طريق الاستخدام البارع والذكى للأيدلوچية، والتهديد باستخدام الأسلحة أو البوليس والسجون».

إذا كانت الخلافة على السلطة تتم عن طريق الوراثة، أو التعيين، أو الكارزما الفردية، أو القوة، فان الانتخاب التنافسى الحر من كافة فئات الشعب هو من أهم دعامات تثبيت النظام الديمقراطى . ذكر الدكتور صلاح زرتوقه فى مرجعه السابق ما قاله ميرون روش: « فى أى نظام ديكتاتورى فردى أو طاغية هناك حقيقة واحدة مؤكدة هى أنه سوف تكون هناك أزمة يوماً ما ، ففى الديكتاتورية تتحقق عناصر الدائرة الثلاث، وهى: نظام ديكتاتورى مستقر، ثم أزمة خلافة - عندما لا يعرف المتنافسون على السلطة طريقه لحل تنافسهم إلا اللجوء إلى القوة - ، ثم حسم الأزمة أو تحلل النظام، وفى معظم التجارب الديكتاتورية تحققت الدائرة بعناصرها الثلاث».

سيظل الإنسان حتى نهاية هذه المنظومة الكونية / الحياتية القائمة على التباين والاختلاف، يجادل ويتصارع، يغير ويبدل ، من أجل الإثارة التى بدونها يعيش الإنسان فى كآبة وملل. وبالرغم من شكوى الإنسان من الصراع والصدام، ومن

الظلم والجور، ومن الاستبداد والاستعباد فإنه مستمر فى تشكيل هذه المنظومة بالصورة التى هى عليها. يتطلع بعض من البشر فى بعض من الزمان والمكان إلى الحرية والديمقراطية ، ويهرب منها فى بعض آخر خوفاً وطمعاً. قد يوجد السلوك المتدنى والأخلاق الوضيعة فى حضارات راقية لتبدأ دورة الانحدار والانهيار، كما يوجد أيضاً الضوء الخافت من عقل متفتح وسلوك متحضر وعزم للتحدى والصراع داخل الحكم الديكتاتورى لتبدأ دورة التحرر، والصعود والرقى، أنها حتمية المنظومة الكونية / الإنسانية - حتى الآن - التى قدّر لنا أن نحيا فيها من تباين واختلاف، وصعود وهبوط ، وصراع وسلام، وحب وكره، وعناد وتسامح، إلى آخره من عناصر الكون المتضادة.

الشخصية المصرية/ العربية

تعرف شخصية شعب ما، أو ما يسمى بالشخصية القومية بأنها السمات والصفات النفسية، والاجتماعية، والثقافية لهذا الشعب، والتى تتسم بثبات نسبى، واستمرارية على مدى زمنى طويل، ويمكن من خلال الشخصية القومية التمييز بين أمة وأخرى، والتعرف على ثقافتها وحضارتها، والسلوك العام السائد بين أفرادها. للتعرف على الشخصية القومية الحاضرة لدولة / لشعب ما، يجب الرجوع إلى جذورها التاريخية لدراسة منابعها وأصولها ولتحليل الأسباب التى أدت إلى تكوين هذه الشخصية.

لن نمكث طويلاً إذا عدنا إلى الوراء خمسة آلاف عاما منذ بدأت الحضارة الفرعونية القديمة، حيث كان المصرى القديم يشكله الدين والبعث وحياة الآخرة. لقد كان المصريين كما قال ول ديورانت فى موسوعته (قصة الحضارة) أشد الأمم استمساكاً بالقديم، لم تتبدل حالهم رغم ما طرأ عليهم من أحداث. كان يحكم ويسود أعلى الهرم الاجتماعى الفرعون، صورة الله على أرض مصر، ثم يأتى الكهنة ورجال الجيش يشكلون النخبة القيادية ، ثم يليهم الكتبة - أى الموظفون- ثم العامة من التجار وباقى طوائف الشعب . كانت هذه هى جذور البداية والتى مازالت تغذى شجرة الشخصية المصرية حتى الآن. لقد طرأ على المصرى الفرعونى أحداث كثيرة من غزوات الهكسوس والسومريين والأغريق والرومان، ثم العرب والأتراك والأوروبيين، فامتزج الجنس المصرى بأجناس عديدة، وعاشت فى مصر الأديان السماوية الثلاثة بعدما سادت الديانات الفرعونية لأكثر من ثلاثة آلاف عام ، وعرف المصرى القديم التوحيد فى عصر أخناتون قبل نزول الأديان السماوية.

جاء فى كتاب (وصف مصر) من تأليف علماء الحملة الفرنسية على مصر والذى صدر المجلد الأول منه عام ١٨٠٩م ، فى الجزء الخاص بطباع المصريين فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى، (أن المصرى خجول بطبعه، وهو يتفادى الخطر

بقدر ما يستطيع . لكنه - ما أن يجد نفسه وسط المخاطر بالرغم من حيطته - يبدى همَّه ما كنت تظن فى البداية أنها لديه . وليس ثمة ما يساوى رباط جأشه، وفى نفس الوقت تواكله». يتسم المصرى كما جاء فى (وصف مصر) بالرياء، فالمصرى يلقى الهوان فى طاعة الكبار الذين يعرفون تماماً معنى تلك السلطة التى فى حوزتهم والتى لا حدود لها، فالمصرى يحمل بين جوانبه روحاً منكسرة تشى عن نفسها فى كل حركاته وإيماءاته ، فيتذلل ويتحسس كلماته مع كل من يخشى قوتهم ونفوذهم. وعندما يتاح له أن يدرج فى مصاف الأثرياء، فإنه يعمل على إشعار البؤساء بوطأة استعلائه وتحكمه. ولا يستحى الفلاح أو الحرفى من أن يستجدى، بل أنهم يفعلون كل ما فى وسعهم ليظهروا أمام الناس بمظهر البؤس والعوز قدر الإمكان.

ساق الدكتور جمال حمدان فى موسوعة (شخصية مصر) سمات الشخصية المصرية بالوصف التالى: المرح والصفاء، الميل إلى الحزن ، الإنبساطية التى لا تميل إلى الفردية ، البساطة والتعاون ، حب الأسرة والأسلاف، التدين والنزعة الروحية والنزوع الدينى، الغيبيات، القدرية، التواكلية أو الاتكالية، الرضا، القناعة، الطاعة التى لا تدعو إلى التمرد والثورة، الدعة والوداعة، الصبر، السلبية، كثرة الخضوع والشعور بالتبعية، اللامبالاة، القهر وكف العدوان، المحسوبية والمحاباة، النفاق، واصل الدكتور جمال حمدان تحليل شخصية الإنسان المصرى مستعيناً بما كتبته الدكتورة نعمات فؤاد فى نفس المجال: « فأما التدين ، فسمة مصرية أصيلة وقديمة قدم الأديان، بل سابقة هى للأديان، ولعلها هى التى منحت المصرى قوة داخلية ومقاومة خارجية وصلابة غير عادية ضد الكثير من الأخطار والمحن والمآسى التى تعرض لها عبر التاريخ، سياسية كانت أو اجتماعية، خارجية أو داخلية، من استعمار الغزاة أو قهر الطغاة. غير أن هذه الخاصية كانت أيضاً مهرباً إلى حد ما من الصدام مع تلك الأخطار والتحديات، ومن ثم قد فى النهاية تقضى بنا إلى خاصية السلبية أو تؤكد شخصيتها. إن التدين والنزوع الدينى إذا جاز أن يرد فى دوافعه إلى الزراعة وطبيعة الحضارة الزراعية، على الأقل جزئياً، فلعله أن يكون بدوره دافعاً جزئياً مثلها وبجانبها إلى الصبر والدأب والجلد والتحمل، وهى الصفات التى تبدو

عريقة القدم والجذور فى التاريخ المصرى عامة والفلاح المصرى خاصة. أما المحافظة، بل والمحافظة الشديدة ، فتعنى أن المصرى مقيم على القديم والتراث والتقاليد والموروثات، ولا يقبل على الجديد بسهولة. وهذا يعنى بدوره أنه تقليدى مقلد، غير ثورى غير مجدد، بل أنه – عند عباس العقاد – إذا ثار على الإطلاق فإنما ليحافظ على القديم والموروث، أى أنه ثورى من أجل المحافظة وفى المحافظة وعدم الثورية، خطوة قصيرة ومنطقية إلى الاستقرار . فالاستقرار نتيجة المحافظة ، ولكنه بالمقابل يعود فيدعمها. ومن هذه الحلقة المفرغة يتحقق الاستمرار إلى أبعد حد وينتفى التغير إلى حد بعيد. وهكذا تنتهى الدائرة مرة أخرى لتعود بنا حيث بدأنا بالمحافظة على القديم وعدم التجديد» .

وفقاً لتحليل الدكتور جمال حمدان للشخصية المصرية فان الاتجاه العام يميل إلى افتقاد الثورة، على كل تقاليده الموروثة أكانت هذه الموروثات سلبية أو إيجابية. ويستطرد الدكتور حمدان ناقدا الشخصية المصرية : « روح من السماحة والدماثة هى المسئولة عن واحد من أخطر عيوب مصر وهى أنها تسمح للرجل العادى المتوسط ، بل للرجل الصغير بأكثر مما ينبغى وتفسح له مكاناً أكبر مما يستحق، الأمر الذى يؤدى إلى الركود والتخلف وأحياناً العجز والفشل والإحباط. فى الوقت نفسه، فإنها على العكس تضيق أشد الضيق بالرجل الممتاز، فشرط النجاح والبقاء فى مصر أن تكون اتباعياً لا ابتدعياً، تابعاً لارائدا، تقليدياً لا مخالفاً ، وموالياً لا معارضاً. ولذلك فإن مصر ليست ولا يمكن أن تكون ثورية حقاً، وبالتالى غير خلاقة» .

ويصف د. جمال حمدان الدواء فى قوله :« ما ينقص مصر إذن بالتحديد هو قدر معتدل من العنف، وأكثر منه من العنفوان، قدر من القوة وإرادة القوة بل وعبادة القوة، سواء على مستوى الفرد أو الوطن، سواء فى الداخل أو فى الخارج، تضمن بل ترد لها جميعاً الكرامة المفقودة والعزة الوطنية الضائعة والشعور بالانتماء والفخار والمجد القومى. فالعنف الحميد إذن، العنف الثورى، قليل منه يصلح الأمة ، كما أن كثيره يضرها. ومن غيابه بالذات جاءت السلبية الواضحة والمحزنة فى سجل مصر عبر التاريخ وعلى كل المستويات. إن سلبية المواطن الفرد إزاء الحكم جعلت الحكومة

هى كل شىء فى مصر والمواطن نفسه لا شيء، فكانت مصر دائماً هى حاكمها، وهذا أس وأصل الطغيان الفرعونى والاستبداد الشرقى المزمن حتى اليوم أكثر مما هو نتيجة له . فهو بفرط الاعتدال مواطن سلس ذلول، بل رعيه ومطية لينة، لا يحسن إلا الرضوخ للحكم والحاكم ولا يجيد سوى نفاق السلطة والعبودية للقوة. . إن ما تحتاجه مصر أساساً إنما هو ثورة نفسية، بمعنى ثورة على نفسها أولاً، وعلى نفسيتها ثانياً، مطلوب تغيير جذرى فى العقلية والمثل وإيدلوچية الحياة قبل أى تغيير حقيقى فى حياتها وكيانها ومصيرها».

جاء فى كتاب (أفاق الإبداع الفنى) لعالم النفس المصرى الدكتور أحمد عكاشة: «لقد تغيرت ثياب المصريين ومهنهم ومساكنهم ووسائل انتقالهم. . لكن لم تتغير سماتهم وخصائصهم أنهم يحبون الاختلاط ويتمتعون بالدفء العاطفى، قلوبهم طيبة، يتحملون مسئوليتهم العائلية، يتمسكون بالدين وينتمون للأسرة، يتناسون الإساءة، ويجنحون للنسيان والغفران، وفى الوقت نفسه هم محافظون فى حياتهم الاجتماعية ، مقلدون فى حياتهم العملية ، يميلون إلى الاعتماد على غيرهم، سلبيون فى الحياة العامة ولا يتحملون مسئولياتها، انفعاليون، حماسهم لا يعيش طويلاً، ويمكن أن يحبوا فى لحظة ويكرهون فى اللحظة التالية، يسهل التأثير فى مشاعرهم، يفضلون الهروب من المواجهة ، تصوراتهم عن التدين فى بعض الأحيان خاطئة، يدرسون العلم لكنهم يؤمنون بالخرافة، صوتهم يسبق خطواتهم».

يرى المفكر المصرى عباس محمود العقاد أن الفلاح المصرى كان دائماً متحفزاً للتغير، غير أن الفلاح فى ثورته يريد أن يرى الصفوف حوله ولا يحب أن يخاطر وحده. ان الفلاح عنيد ودؤوب وصبور فى صراعه من أجل استعادة حقوقه ولكن يستمد قوته من خلال الجموع وليس من خلال فرديته. لقد ثار الفلاح المصرى منذ عهود الفراعنة ضد مظالم الدولة المركزية وأجهزتها ، وحاول أمراء الأقاليم الانفصال عن الدولة المركزية، وتمرد الفلاحون المجندون للعمل فى المحاجر فى عهد رمسيس الثانى. وثارت المسيحية المصرية ضد حكم الرومانيين والبيزنطين ، واستمرت ثورات الفلاحين المصريين فى عهد الولاة الأمويين وفى العهد المملوكى، ولكن لم تكن الثورة سمة المصرى التقليدى، بل انفجار الضغط هو الذى أدى إلى ثورته وتمرده.

ذهب الدكتور طاهر عبدالحكيم فى كتابه (الشخصية الوطنية المصرية - قراءة جديدة لتاريخ مصر)، مع الدكتور جمال حمدان إلى تأثير النظام النهرى (نهر النيل فى مصر، دجلة والفرات فى العراق، . .) على الشخصية الفردية وعلى نشأة الدولة المركزية. فالنظام النهرى المتمثل فى توافر المياه للشرب والرى يدعو الفرد إلى الاسترخاء والافتقاد إلى السعى والثورة، أما فى مجال الدولة المركزية فقد كتب دكتور طاهر عبدالحكيم: «قد لا يختلف الباحثون حول آلية نشأة الدولة المركزية فى المجتمعات الشرقية، ولكنهم ينقسمون إلى مدرستين فيما يتعلق بدوافع نشأة هذه الدولة: المدرسة الأولى وهى المدرسة الأيكولوچية (البيئية) والثانية هى المدرسة الاجتماعية - الاقتصادية. فمركزية الدولة مرتبطة بالنظام النهرى للرى، وقوة الحكومة المركزية هى الضمان لازدهار الأعمال الهندسية الخاصة بحسن الإدارة المائية والضبط والربط فى تطهير الترع وبناء الجسور والقناطر. وكذلك فان الانقسام الطبقى فى المجتمعات الشرقية القديمة أدت إلى مركزية الدولة كما ذهب كارل ماركس وفردريك انجلز فى كتاباتهما».

ورث النظام الإدارى المصرى بيروقراطية فرعونية عتيقة، دعمتها بيروقراطية الاحتلال الإنجليزى فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين. عدد الدكتور إبراهيم شحاته فى كتابه (نحو الإصلاح الشامل) أسباب الخلل فى النظام الإدارى المصرى فى النقاط التالية:

- افتقاد النظرة الاستراتيجية الواضحة حول دور الجهاز الإدارى، أى عدم استقرار مفهوم الخدمة المدنية، ليس فقط كمؤسسة تتمتع بمستوى مهنى عال وبالحيدة السياسية وإنما أيضاً كجهاز تناط به وظائف محددة لخدمة أهداف اجتماعية عامة تساعد على تحقيق الاستقرار والتنمية.

- الجمود الشديد فى نظام التعيين والترقية.

- تعدد الوزارات والأجهزة المسئولة عن القطاع الواحد وما يترتب على ذلك من تضارب فى السياسات وأساليب التنفيذ.

- التوسع المبالغ فيه فى المناصب والألقاب كوسيلة غير مباشرة لزيادة المرتبات، والتعدد فى أنواع التعويض المالى التكميلى للمرتبات مثل الحوافز وبدلات طبيعة العمل.

- الانخفاض المستمر فى القيمة الحقيقية للأجور التى لا تتناسب زيادتها مع معدلات التضخم.

- عجز الجهاز الإدارى فى المواقع النائية بالرغم من الحجم الضخم للعمالة الحكومية الإجمالية.

- الالتجاء إلى أنظمة فى التشغيل لا تتناسب مع قدرة الاقتصاد الوطنى أو حاجة الجهاز الإدارى.

- عدم استقرار مفهوم تعارض المصالح مما جعل بعض الموظفين يجمعون بين عملهم الحكومى وأعمال تتعارض بطبيعتها مع خصائص وظائفهم.

- عدم الاهتمام بصيانة المبانى الحكومية وبتوفير المعدات المكتبية.

نضيف إلى الأسباب السابق ذكرها انخفاض عدد ساعات العمل الفعلية، وانخفاض إنتاجية العامل والموظف نتيجة لعدم الانتماء، وعدم الرقابة الجيدة، وإدخال المحسوبية والعاطفة كعامل رئيسى فى سياسة الثواب والعقاب. تحولت أجهزة إدارية وإنتاجية وتعليمية كثيرة فى الدولة إلى تجمع عائلى يصعب فيه تطبيق أساليب المحاسبة مما أدى إلى انخفاض الآداء فى هذه الأجهزة. لقد أهملت المؤسسات التعليمية فى الوقت الحاضر غرس القيم فى نفوس الطلاب، فتحول هدفهم إلى الحصول على أعلى درجات علمية تؤهلهم إلى الالتحاق بالتعليم العالى، دون التسلح بثقافة أخلاقية حضارية، وقيم نبيلة. قد يرجع ذلك إلى المستوى الاقتصادى المنخفض، وتطلع الطبقات الوسطى إلى تعليم أبنائها تعليم عالى من أجل رفع مستواهم المادى، فتركز الاهتمام إلى التحصيل الدراسى دون التحصيل الأخلاقى، ثم نافس أبناء الطبقة الثرية فى هذا السباق، فتدنى مستوى القيم الأخلاقية، والسلوك الحضارى، وتحول النفاق والرياء واللامبالاة والتلوث البيئى. .إلخ إلى ثقافة عامة سائدة.

مازال النمط الاستهلاكى حتى فى حالات الكساد وتدنى الاقتصاد هو السائد فى الشخصية العربية عامة، والمصرية خاصة. إن الاسراف فى الاستهلاك يؤدى فى الدول التى تعتمد على الاستيراد إلى اختلال الميزان التجارى وانخفاض قيمة العملة المحلية، وكذلك إلى انخفاض الميل الحدى للادخار، فالثقافة العربية مازالت تتباهى بالكرم الحاتمى وبسياسة (أصرف ما فى الجيب)، فأقمنا المشاريع التى تمجد الشخص ولا يعود منها بالنفع على الاقتصاد القومى، وبالغنا فى الحفاوة بالضيوف حتى الأجانب الموسيرين، وأسرفنا ونحن نمد أيدينا لطلب المنح والمعونات. بالرغم من انخفاض الناتج القومى فى كثير من الدول العربية فإن القصور مازالت تشيد، والسيارات الغالية الثمن ما زالت تستورد وساد الإسراف بين الأفراد والحكام والمؤسسات المختلفة للدول العربية.

أصبح التلوث البيئى فى الحضارات الشرقية والغربية المتقدمة قضية عامة أخذت جانب كبير فى الاهتمام لدى هذه الشعوب التى تنادى بأحقيتها فى العيش فى بيئة نظيفة: من هواء نقى، وماء وطعام غير ملوثين، وبحار وأنهار نظيفة لا تحتوى على السموم الكيماوية أو البيولوجية، وشوراع خالية من القاذورات، وسكون يريح الأعصاب، وخضرة تملأ رئة المواطنين بالأكسچين النقى.

لقد تدنى سلوكيات شعوبنا التى أصبحت لا تعطى للبيئة أى اهتمام، وأصبحنا غير مبالين أو مهتمين بالآثار الناتجة أو المترتبة عن تلوث البيئة، وتأثيرها على الصحة العامة للإنسان، وبالتالى على راحته ورفاهيته، وكذلك التأثير السلبى على الاقتصاد القومى.

لم يعيش الإنسان العربى ثقافة العمل من خلال الجماعة، والانتماء والاندماج فى أنشطتها، بالرغم من أن كثير من الأحياء السكانية فى المجتمعات العربية مكتظة بالسكان إلا أن العربى يعيش منعزلا فى داخله. كتبت الكاتبة الأمريكية اللبنانية الأصل سنية حمادى فى كتاب نشر عام ١٩٦٠ تحت اسم (Temperament and chararcter of the Arabs) ما يفيد ضعف العلاقـــات الاجتماعية بين العرب:

«إن العرب يظهرون فى علاقاتهم الاجتماعية قدراً كبيراً من العداوة . . والقاعدة عامة فمشاعرهم العدوانية لا تحول للداخل، ولكنها توجه للآخرين. . ان انعدام الثقة فى الغير صورة أخرى من الصور التى تتحقق فيها الفردية العربية. . وقد أظهر العرب عجزاً عن الوحدة المنظمة والوثيقة . . والمناخ الذى تسوده النزاعات هو الذى يميز البيوت العربية . . والعرب قد تمرسوا على قدرات الحماس الجماعية، ولكنهم لايستطيعون المتابعة الجماعية الدؤوب لنشاط ما . . إن الوعى الجمعى للعرب ليس ناضجاً، ووعيهم الاجتماعى ضعيف، وارتباطهم بالدولة مهزوز، وتوحدهم مع القادة ليس قوياً. . العربى نادراً ما يضع أهدافه فى خدمة أمته» . ان الأسباب التى أدت إلى سلبية وعدم انتماء الشخصية العربية إلى الجماعة يعود إلى الطغيان والقهر الذى عاش فيه العربى منذ أكثر من أربعة آلاف عاماً والذى يؤدى إلى الانفصال بين الحاكم والمحكوم ، وعدم الثقة بين الفرد والآخر، والتمتع باللحظة الراهنة، ما دام الغد خارج قدرة الفرد فى تشكيله.

انفصل العقل العربى خاصة داخل الطبقات الشعبية عن الواقع، وأصبح يلهث وراء وهم آماله وخيال عجزه وفقره وحرمانه. أصبحت شركات توظيف الأموال هى المنقذ من الفاقة، وتحول الطاغية الذى يداعب أحلامه إلى بطل أسطورى سوف يقود الأمة العربية إلى السيطرة على بلاد العالم أجمعين. تعلقت مجموعات كبيرة من الشعب العربى بالمذيع أحمد سعيد أثناء حرب ١٩٦٧ ، كما ارتبط كثير من المشاهدين بوزير الإعلام العراقى محمد سعيد الصحاف أثناء حرب العراق عام ٢٠٠٣ لقد كانا يرددا الكلام الذى يتمنى العامة أن يسمعوه، لاغين عقولهم، يعيشوا فى عالم وردى من أحلام اليقظة وآمال نابعة من التخلف والقهر. لقد هتفت هذه الطبقة للطاغية تفديه بالروح والدم بدل الهتاف للوطن. لقد ألغت العامة عمل العقل، ناسية ومتناسية تجارب سابقة فى سبيل أمل لن يتحقق إلا بعد كسر قيود العبودية.

تتميز الشخصية الشرق أوسطية بصفة عامة، والشخصية المصرية / العربية بصفة خاصة بالتسبب فى الضوضاء والتعايش معها. الغالبية غير مدركة أضرارها، ومن

يدرك الأضرار معظمه سلبى لا يتخذ موقف إيجابى لمحاربة فوضى التلوث البيئى. كتب د. حسن شحاتة فى كتابه (التلوث الضوضائى) : « يتأثر الجهاز العصبى بالضوضاء فى صورة تنبيهات كهربية تعبر الألياف العصبية حتى تصل إلى لحاء المخ فتهيج خلايا هذه المنطقة التى تسعى إلى التعرف على الخواص المختلفة للضوضاء، وتثير التنبيهات الكهربية مناطق تحت لحاء المخ، ولا سيما تلك التى تعرف بالتكوين الشبكى. وينجم عن هذه الإثارة تهيج فى الجهاز العصبى اللاإرادى ، خاصة الجهاز السمبثاوى، الذى يؤثر بالتالى على الكثير من أعضاء الجسم، فيسرع القلب فى دقاته مما يسبب زيادة فى النبض، كما يرتفع ضغط الدم، وتتقلص بعض عضلات الجهاز الهضمى . وتتأثر إفرازات المعدة وغيرها من إفرازات أخرى. فنجد أن إفرازات الغدد الصماء، مثل الأدرينالين ترتفع فى الدم لتصل إلى أعضاء الجسم المختلفة لتسهم بدورها فى التأثير عليها، ومؤازرة فعل الجهاز السمبثاوى، وهكذا، فإن التغيرات التى تحدث فى الجسم بفعل الجهاز الهضمى، و الهرمونات تحدث الضرر البالغ بالصحة إذا ما طال مداها». لقد أكدت الأبحاث وجود تأثير الضوضاء المزعجة على ضعف السمع ، وكذلك وجود علاقة بين زيادة الضوضاء والازدحام، وبين زيادة التوتر العصبى لدى الإنسان واحتمال إصابته بأمراض القلب، والأمراض الأخرى التى لها صلة بالتوتر العصبى لدى الإنسان واحتمال إصابته بأمراض القلب، والأمراض الأخرى التى لها صلة بالتوتر العصبى مثل الضغط العالى والقرحة. لقد ابتلينا بثقافة إزعاج أنفسنا وازعاج الآخرين بالصوت العالى فى الحديث والسماع إلى أجهزة الإعلام وفى استخدام النفير.

بدأ المصرى الخروج - بكثافة نسبية - من واحته داخل حدود مصر إلى دول المهجر (الولايات المتحدة الأمريكية ، كندا ، استراليا - البرازيل ، الأرجنتين) بعد حرب ١٩٦٧ مع إسرائيل وسماح السلطات المصرية فى ذلك الوقت بالهجرة، بل بتشجيعها بعد حرب ١٩٧٣ ومع ارتفاع أسعار البترول وتدفق الأموال على دول الخليج العربى، بدأت الهجرة الثانية إلى دول الخليج (المملكة العربية السعودية، الكويت، دول الإمارات العربية، قطر، البحرين، سلطنة عمان) وذلك للمشاركة

فى بناء البنية الأساسية، وأعمال المصارف والبنوك والعمل فى المجال الطبى. ثم بدأت هجرة ثالثة إلى العراق وليبيا فى نهاية السبعينيات وفى ثمانيات القرن الماضى وترك الكثير من الفلاحين حقولهم ليزرعوا ويحصدوا فى أراضى غيرهم. لقد تأثرت شخصية المصرى المتوسط الدخل الذى امتلك معظم أدوات الرفاهية والراحة من سيارة وأدوات منزلية، وبدأ جزء كبير من هذا القطاع الإنفاق والسفر، والتعرف على ثقافات أجنبية مختلفة . فى العقد الأخير من الألفية الثانية ومع ثورة الاتصالات وزيادة الأقمار الصناعية التى تبث إعلام وثقافات الدول المتقدمة، ثم لحقتها الدول النامية، بدأت الدعوة إلى العولمة، وسارت معظم الدول العالم نحو عالم واحد ذو ثقافات مختلفة، وأصبحت جميع الثقافات متاحة من خلال الأقمار الصناعية، بالطبع حدث السريان الثقافى من الدول المتقدمة مثل الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية إلى ثقافات الدول النامية والدول المتخلفة . ولكن حدث أيضاً سريان سريع ومؤثر من ثقافات دول الخليج، ومن المشاركة فى الجهاد فى الحرب اللبنانية/ الإسرائيلية، والحرب الأفغانية / الاتحاد السوفيتى السابق، وانتشرت الدعوة إلى الأصولية، والعنف الذى لم يكن من سمة الشخصية المصرية . انتشرت الأصولية (Fundamentalism) فى معظم البلاد العربية، تشد الإنسان العربى إلى الوراء ضد تيار التاريخ والتقدم، وأصبح الكثير منهم أسرى لماضى ذهب وانتهى. رفض الأصولى الحوار الديمقراطى فالتهب العنف وتوالد من الإرهاب المجازر وتصفية الأرواح.

ماذا عن المستقبل ؟ . . سوف يحدث حتماً بل حدث فعلاً فى عام ٢٠٠١ صراع بين الثقافات أو كما كتب المفكر الأمريكى صمويل هنتنجتون صراع بين الحضارات. لقد جاء فى كتابه (صراع الحضارات -- إعادة صنع النظام العالمى) : «ميزان القوى بين الحضارات يتغير ، فالغرب يتدهور فى تأثيره النسبى. الحضارات الآسيوية تبسط قوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية. الإسلام ينفجر سكانياً مع ما ينتج عن ذلك من عدم استقرار بالنسبة للدول الإسلامية وجيرانها، الحضارات غير الغربية عموما تعيد تأكيد ثقافتها الخاصة. ان نظام عالمى قائم على الحضارة يخرج

إلى حيز الوجود، المجتمعات التى تشترك فى علاقات قربى ثقافية تتعاون معاً، الجهود المبذولة لتحويل المجتمعات من الحضارة إلى أخرى فاشلة، والدول تتجمع حول دولة المركز أو دولة القيادة فى حضارتها. ان مزاعم الغرب فى العالمية تضعه بشكل متزايد فى صراع مع الحضارات الأخرى وأخطرها - من وجهة نظر الغرب - مع الإسلام والصين».

بالرغم من الصراع المحتمل حدوثه مستقبلاً، ستبدأ الأمور فى الاستقرار بعد قيام الكثير من التغيرات. سوف يشعر الجنس البشرى بقسوة الصراع والحروب ولو إلى حين قد يطول إذا طال أمد الصراع، ففترة الصراع الطويلة تعقبها عادة فترة سلام وسكون طويلة . سينتهى الأمر بتعارف الثقافات أو الحضارات المختلفة بعضها البعض، ويحدث تقارب أو على الأقل تعايش لفترة من الزمان. سيؤثر التفاعل الحضارى على شخصية الإنسان المصرى وستتحول الشخصية التقليدية التى صاغها الدكتور جمال حمدان والدكتور أحمد عكاشة إلى شخصية ثورية، تميل إلى استخدام العقل والمطالبة بالمزيد من الحرية والديمقراطية ، والتفكير المنطقى والعقلانى. ولكى لا نكون متفائلين فلن يحدث هذا التغير فى العقود القليلة القادمة. قد يستلزم التغير نصف قرن أو قرن من الزمان ، ولكنه أكثر احتمالاً هو قادم بخطى بطيئة.

دعنا نوسع الدائرة ونخرج إلى المجال العربى. ترجع أصول الثقافة العربية إلى الشخصية القبلية الصحراوية فى الجزيرة العربية والأردن وشعوب شمال غرب أفريقيا، وإلى الشخصية النهرية فى مصر والعراق وسوريا، وإلى الشخصية الساحلية فى لبنان وفلسطين وعمان واليمن، وإلى العقائد الدينية السماوية الثلاث النابعة من أرضها.

كانت الجزيرة العربية مهد الجنس السامى، حيث عاش البدوى فى صحراء جدباء، يعمل بالرعى ويمكنه العيش على التمر واللبن، يقضى حياته فى عراك ونزاع وغزوات ، شديد الاهتمام بالمرأة والخيل والبعير. فى هذا المناخ القاصى والجاف

تكونت الشخصية الصحراوية ونشأت الأسرة الأبوية بما فيها من طاعة لرب الأسرة أو رب القبيلة ، أو أمير أو ملك أو سلطان، أو حاكم أياً كان، فأمن العربى القديم بالقدرية والجبرية، وتحلى بالكرم والشجاعة، والصرامة، وعدم المرونة.

كتب الدكتور حسين الحاج فى كتابه (حضارة العرب فى صدر الإسلام) عن عرب الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام :« كانت الجزيرة على صلات وثيقة مع جيرانها عن طريق التبادل التجارى والثقافى . فقد كانت طريقاً للتبادل التجارى بين الممالك المتاخمة . . المرأة فى الجاهلية كانت ضحية تقاليدهم الظالمة والمهينة، فقد كانت عرضة للسبى فى الغزوات وعرضه للوأد فى السلم . . تميز العرب بسذاجة علمية تتصف بضعف التحليل، وعدم ربط العلة بالمعلول ربطاً علمياً ومنطقياً. . تميز البدوى ، بنظرته الجزئية إلى الأمور، بعيدة عن الشمولية كما كانت الحال عند اليونان مثلا. من هنا اتسم إنتاجهم الأدبى بضعف المنطق فى غالبيته وعدم الترابط بين الأفكار» . من المقتطفات السابقة نستطيع استنباط بعض جذور ثقافة عرب الجزيرة العربية، المتمثلة فى التجارة أكثر من الزراعة أو الصناعة، وفى نظرتهم للمرأة، وفى النظرة الجزئية القريبة المدى للأمور، فابتعد مثل معظم الشعوب العربية الأخرى بثقافاتها المختلفة عن التخطيط طويل المدى.

تشكلت الشخصية الساحلية على الساحل الشرقى لحوض البحر الأبيض المتوسط وعلى خليج عدن ، فاشتغل الفينيقيون - على سواحل لبنان وفلسطين - بالتجارة عبر البحار ، يبيعون ويشترون، يساومون وينتهزون ، يهاجرون ويعودون، كما اعتبرهم المؤرخون قراصنة العهود القديمة .

امتلك أهل عمان وعدن أسطول بحرى كبير فى منتصف الألفية الثانية، وغزا الساحل الشرقى لأفريقيا يتاجرون فى كل شىء حتى فى العبيد. أما الشخصية النهرية فقد جاء ذكرها بالتفصيل فى تحليل الشخصية المصرية.

تتكون الدول العربية فى القرن الواحد والعشرون من اثنين وعشرين دولة (جمهورية وملكية) متضمناً جزر القمر وفلسطين وهى: (سوريا، لبنان، فلسطين،

العراق، الأردن ، اليمن ، الكويت، المملكة العربية السعودية، الإمارات العربية، البحرين، قطر، عمان، الصومال، جيبوتى، مصر، السودان، ليبيا، تونس، الجزائر ، المغرب، موريتانيا، جزر القمر). تتشكل الدول العربية بمساحة إجمالية تقدر بحوالى ١٣,٢ مليون كيلو متر مربع، وتعتبر السودان أكبر الدول مساحة (حوالى ٢,٥ مليون كيلو متر مربع). الدول العربية متصلة جغرافياً فى قارتى آسيا وأفريقيا ماعدا الصومال وجيبوتى وجزر القمر. يصل إجمالى سكان الدول العربية حول ٢١٠ مليون نسمة عام ٢٠٠٢ ، وتعتبر مصر أكبر الدول العربية تعداداً (حوالى ٧٠ مليون نسمة) . يشترك العرب فى لغة واحدة (اللغة العربية) ، الأكثرية فيها تدين بالإسلام ، يشترك العرب أيضاً فى ثقافات متقاربة وثلاثة أنماط رئيسية للحياة وهى المدنية والريفية والصحراوية، وماض حاضر فى الأذهان والوجدان، متمثلاً فى نشأة الدين اليهودى والدين والمسيحى على أرضه، وظهور الإسلام فى الجزيرة العربية ، وعصور مجدهم بداية من الغزوات الإسلامية فى سنواته الأولى، ثم عهد الخلفاء الراشدين ، ثم عصور الخلافة الأموية والعباسية، ثم تشترك معظم البلاد العربية فى محنة الاحتلال التركى لأراضيها، ثم الاحتلال الأوروبى متمثلاً فى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا. يتباين الناتج القومى السنوى للفرد فى بداية القرن الواحد وعشرون ما بين ثلاثة وعشرون ألف دولار فى بعض الدول، وأقل من ألف دولار فى دول عربية أخرى. قد يصل أو يزيد عن ١٧ ألف دولار للفرد سنوياً فى بعض البلاد النفطية مثل الكويت والإمارات وقطر، وينخفض عن ألف دولار سنوياً فى بلاد أخرى مثل اليمن والسودان والصومال وجيبوتى وجزر القمر.

أنشأت الدول العربية عام ١٩٥٤ جامعة الدول العربية من سبع دول عربية مستقلة ، ثم انضمت إليها بعد ذلك باقى الدول العربية. حدد للجامعة العربية هدفاً رئيسياً هو تعزيز الروابط بين الدول الأعضاء وتنسيق برامجها السياسية، والاقتصادية والمالية، والثقافية . تتكون مؤسسات الجامعة العربية من مجلس الدول العربية، والجهاز التنفيذى، تنظيمها الدائم، الأمانة الفنية التى تنبثق منها اللجان الدائمة.

قامت الدول العربية أيضاً بإنشاء منظمات مشتركة مثل الصندوق العربى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، المصرف العربى لإنماء أفريقيا، وصندوق النقد العربى ، واتحاد المصارف العربية، ومنظمة البلدان العربية المصدرة للنفط.

ماذا نريد نحن العرب.. هل لدينا هدفاً قومياً أو ايدلوجية عربية محددة؟ .. نحن العرب حتى الآن لم نتفق على أولويات معظمة المنفعة ، هل هى: القبيلة أو القرية / تجمع الأقليات الطائفية من العرقية والدينية/ الدولة / القومية العربية، أو الكيان العربى الواحد - الذى لم يتحقق حتى الآن - بمعنى أن الفرد أو الجماعة عندما تتخذ قرار يعود بالمنفعة إلى كيان ما فإنه يضع معيار للمنفعة . من البديهى أن تكون المنفعة الفردية لأن الإنسان بغريزته محب لذاته، ولكن حب الذات قد يحتم على الإنسان أن يكون معيار المنفعة للمجتمع لأن الفائدة التى تعود على الفرد من خلال المجتمع قد تفوق المنفعة فى حالة إذا كان المعيار هو الفرد فقط. فالإنسان يحصل على الدعم والحماية والقوة من خلال الجماعة، والفرد من خلال الجماعة قد يحصل على فائدة اقتصادية ومالية أكثر، فطبيعة اقتصاديات حجم العمل (Economy of Scale) تقوم على خفض التكلفة - وبالتالى زيادة الربح - فى حالة الحجم الأكبر.

تطرق الدكتور سعد الدين إبراهيم فى كتابه (النظام الاجتماعى العربى الجديد) إلى تأثير الحضارة الغربية الحديثة التى بدأت فى القرن السابع عشر على العالم العربى: «منذ صدمة إعادة اكتشاف الغرب، التى عاشها العرب فى نهاية القرن الثامن عشر، وما أعقب ذلك من تغلغل الغرب نفسه فى الوطن العربى، تركت أربع موجات عاتية من التغير الاجتماعى آثارها العميقة على البنية الاجتماعية العربية. أما العلامات البارزة التى تتجسد فيها هذه الموجات الأربع، فتتمثل فى التجربة الاستعمارية ، والعلم والتكنولوچيا الحديثة، والنضال الوطنى والقومى من أجل التحرر، وأخيراً الظاهرة النفطية، وكل هذه الموجات ارتبط بعدد من الاستجابات والآثار التى لا تزال فاعلة فى سياق عملية التحول التى يتعرض لها المجتمع العربى».
إذا كان الاستعمار الغربى فى صورته القديمة قد ترك أثراً سيئاً لدى العرب أدى إلى

النضال الوطنى والتحرر، فالاستعمار والتغلغل الاقتصادى والثقافى الحديث بعد ظهور النفط بكميات تجارية واقتصادية مع ارتفاع أسعاره أدى إلى ظهور الأصولية والإرهاب. لم تنهل الدول العربية من التكنولوچيا العالية التقنية إلا النذر القليل بسبب تحكم الغرب ومنعها تصدير هذه التكنولوچيات إلى الدول التى لا تمارس الحرية والنظم الديمقراطية ، متجاهلة أنها السبب فى ظهور هذه النظم ومدعمة لها حتى الآن ما دام لا تعارضها. ورد فى كتاب (شرعية السلطة فى العالم العربى) للكاتب الصحفى أحمد بهاء الدين : « التكنولوچيا لا يشتريها المال ولا ينقلها عشرات أو مئات من الخبراء الذين يتعلمونها فى الخارج، هذه وسائل مساعدة. ولكن التكنولوچيا لا تنتقل حقاً وتصبح لها جذور إلا فى تربة صالحة ومهيأة لذلك. والتربة لا تكون صالحة إلا إذا توافرت لها ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية معينة. . . ».

لقد كان الغرب من الذكاء لتغير صورة الاستعمار التقليدى من التدخل المباشر فى الحكم عن طريق قوة الجيوش ، إلى فرض سيطرتها عن طريق المؤسسات الاقتصادية والمالية العملاقة، وتصدير منتجات الرفاهية ، وتصدير ثقافة غربية من خلال إعلام وإعلان مدروس وموجه. تغنى الغرب فى العقود الماضية بألحان الحرية والديمقراطية ، حقوق الأقليات، الشيوعية ضد الدين، الإرهاب والأصولية، صراع الحضارات، محاور الشر، وذلك ليداعب ، ويلاعب ، ويبتز شعوب ونظم حكم تخلفت عن ركب الحضارة، مستغلاً ضعف البعض ، وجهل بعض آخر، وأنانية بعض ثالث، وشهوة السلطة والمادة عند بعض رابع، ومنافقين يلعبون على الطرفين: غربى وعربى. يجب ألا نلوم الغرب فى منظومة بشرية قائمة على الصراع، ولكن اللوم يجب أن ينصب على من رضى وارتضى بالجهل والأنانية والخنوع والشهوة والنفاق.

عاشت فى القرن العشرين طبقة من اليسار والمثقفين فى العالم العربى تحت تأثير صورة ذهنية نقلتها بقصد أو بدون قصد إلى مجموع الجماهير ، بأن العالم العربى يحاط بالمؤامرات الإمبريالية عن طريق الاستعمار الأوروبى المباشر (انجلترا وفرنسا

وإيطاليا) والاستعمار غير المباشر من خلال النفوذ الأمريكى، وان الإمبرالية الغربية مع الكيان الصهيونى تطعن العالم فى العلن والخفاء ، وتوجه له الضربات العسكرية والاقتصادية ، وتدس فيه سم المؤامرات وطعنات الخيانة، محاولة بشتى الطرق إجهاض الصحوة العربية القومية تارة، أو الصحوة الإسلامية تارة أخرى. نعم العالم كله يعيش فى صراع، كل بلد يحوى على كم من الصراعات الداخلية، وكل كيان أو عقيدة يواجه صراع من معارض أو مناهض ، أو من كيان أو عقيدة أخرى مختلفة ومتعارضة فى المصالح، وبالصراع ترتقى الدولة / الكيان / العقيدة، أو تضمحل وتزول. الولايات المتحدة الأمريكية كدولة، والحضارة الغربية، والعقيدة المسيحية فى الغرب، كلها تعيش منظومة الصراع. الولايات المتحدة الأمريكية مليئة بالمتناقضات السياسية والعرقية وصراع الكيانات الاقتصادية المختلفة والمتعارضة. والحضارة الأوروبية تحوى قوميات مختلفة كلا يعتز بكيانه ظاهرا النعرة القومية فى كثير من المواقف ، الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت ما زال قائماً فى ايرلندا، بالرغم من هذا لم تنتهى أو تضمحل الحضارة الغربية. ما أسهل على النفس الضعيفة أنساب وإسقاط الخطأ إلى الغير وما أصعب الاعتراف بالخطأ وتجاوزه ثم العبور إلى الطريق الصحيح. إذا كان الكيان العربى قوى سيتغلب فى جميع محاور الصراع، ولكن إذا كان هشا ضعيفاً فسيلقى بمسئولية فشله على الغير.

أن من العيوب الظاهرة عند العرب أنهم لا يتعاملون مع الأمور والمشكلات بطريقة براجماتية (Pragmatic) أى طريقة واقعية وعملية، . فالسياسة البراجماتية الممكن أو الواقع وليس المستحيل أو المأمول . ان العربى لا يعى بعد فن المفاوضة السائدة فى الحضارة الغربية الحديثة والقائمة على التسوية والتوفيق Compromise وفقاً لإمكانيات وقدرات الطرف المفاوض.

خاضت اليابان الحرب العالمية الثانية ضد الولايات المتحدة الأمريكية، وقامت بينها وبين أمريكا والدول الغربية بعد ذلك صراع فى شكل مصالح متعارضة للمؤسسات الاقتصادية والمالية، ولم يؤدى الصراع إلى انهيار اليابان . خاض الغرب الرأسمالى صراع علنى وخفى مع الدول الشيوعية، وانهار كيان الاتحاد السوفيتى الشيوعية مع عدد من دول أوروبا الشرقية التى كانت تدور فى فلكها، ولكن لم تنهار

الصين الشيوعية ، لأن الانهيار ينبع من داخل الكيان. بالتأكيد يعجل الصراع بالانهيار ولكن البؤرة الجرثومية للتخلف والانهيار تنبع دائماً من داخل الكيان من خلال مكوناته من أفراد ومجتمع لهم / له سلوك متخلف وسيء وثقافة ضحلة وعفنة، مضى عليها الزمن واندثرت فى طيات التاريخ ، ومن خلال مؤسسات بيروقراطية هشة، ومن خلال أطماع قادة وديكتاتورية حكام.

تعرض المفكر الخليجى الدكتور محمد جابر الأنصارى فى كتابه (مساءلة الهزيمة- جديد العقل العربى بين صدمة ١٩٦٧ ومنعطف الألفية) لمسيرة العقل العربى فى الثلث الأخير بقوله : « أن أصدق ما ينطبق على الفكر العربى خلال الثلث الأخير من القرن العشرين، ومنذ هزيمة يونيو ١٩٦٧ بالتحديد، انه فكر تحت الحصار من قوى خارجية لا تريد لنا خيراً، وقوى داخلية معادية للتطور والاستنارة والعقل»، يرى الدكتور الأنصارى أن الفكر العربى الإسلامى لم يتحرر من حالات الحصار الخانقة ، إلا فى القرون الأولى من تاريخ الحضارة الإسلامية عندما استطاع التعامل مع أصوله الذاتية ومعطيات التراث الإنسانى بقدر من الحرية والعقلانية، كما يرى الدكتور الأنصارى أن التخلف هو جوهر الداء الذى ينخر فى عظام الأمة العربية. قسم الأنصارى التخلف إلى ثلاثة أنواع، أولهم التخلف المجتمعى المؤدى إلى تخلف العمل السياسى وتقليص القدرة الإنتاجية، والتخلف الذهنى المؤدى إلى تخلف الفكر والثقافة والإبداع العلمى، والتخلف الأخلاقى المؤدى إلى تخلف السلوك العام والقيم المدنية. يرجع التخلف المجتمعى فى رأى الدكتور الأنصارى إلى تكلس البنى المجتمعية التقليدية العربية من عشائر وطوائف وقرى وخلافه، فقشور التحديث هى فقط الظاهرة على السطح، مع بقاء تلك البنى دون إذابة حقيقية فى إطار المجتمع المدنى والمجتمع الوطنى، بوسائل التنمية الشاملة والمشاركة السياسية الحقيقية ، والنهوض الثقافى والحضارى . يعزو الدكتور الأنصارى التخلف العقلى / العلمى إلى ترسب وتكلس بنية ذهنية جامدة فى العقل الجمعى للمجتمعات العربية، وهذه البنية قد مرت عليها قرون طويلة من التجمد الثقافى والفكرى سادت خلالها حرفية النص على حرية وحركية العقل المجتهد ، وأسهم الاستبداد السياسى والاجتماعى

والفقهى والتربوى فى إنتاج كائن يستخدم ذاكرته الناقلة ولا يستخدم عقله الناقد. أما بالنسبة للتخلف الأخلاقى، ففى بيئة تستند فى ضبط السلوك إلى التخويف وإشاعة الرهبة فى النفوس، وفى تحويل تعاليم الدين ومقتضيات السياسية وتقاليد المجتمع وقيمه إلى وسائل للضبط الذى يتحول قهراً واستبداداً ، ولا يراعى حقائق الشعور بالإنسان ولا حق للتساؤل والمساءلة ولا حق الفرد فى الاعتراض والإبداع والابتكار وارتياد الآفاق الجديدة، فى بيئة مثل هذه تنشىء ازدواجية أخلاقية / سلوكية مدمرة تحكمها فجوة رهيبة بين مظاهر السلوك ولوازمه، وحقيقة السلوك الداخلى والمشاعر والأفكار الذاتية التى لا تتنفس غالباً إلا فى الخفاء. فثمة أخلاقية للعلن وأخلاقية أخرى مناقضة للخفاء. أخلاقية العلن هى أخلاقية الجماعة المتجبرة فى فضائلها والمنسوبة إلى إرث معنوى مستمد من الآباء والأجداد غير قابل للمراجعة والتصحيح. وأخلاقية الخفاء هى السلوكية الحقيقية والفعلية للفرد المكبوت، وعليه يتحتم على الإنسان العربى أن يحيا حياتين ، حياة لغيره وحياة لنفسه. ان استبداد الجماعة أكثر عنفاً وبطشاً وأعمق أثرا من استبداد الفرد، والجماعة الحرة تنتج رجالها أحرارا، لذلك فإن الطريق الحقيقى للحرية هو أن تتحرر الجماعة عن عبوديتها لذاتها، وتصبح جماعة حرة بالفعل - سلوكاً وفكراً ووجدانا - وعندئذ فقط يمكنها أن تتحرر من مستعبديها.

أرجع الكاتب الصحفى أحمد بهاء الدين فى كتابه (شرعية السلطة فى الوطن العربى) انفصام الشخصية العربية إلى التباين الثقافى بين فئة قليلة من المتعلمين والمثقفين ، وبين باقى الطبقات التى لم تحظى بنفس القدر من التعليم والثقافة الحضارية : «الأساس فى انفصام الشخصية العربية، هو وجود فئة متعلمة مثقفة وفئة غائبة تماماً عن كل هذا الأمر الذى يجعل الحوار فى داخل الأمة - حوار طرشان - وينتج تمزقات وتصادمات فى القيم والعادات والأهداف والمثل العليا». إذا كان القليل من فئة المثقفين قد حطم حاجز الخوف للجهر بآرائه وأفكاره، محاولاً رفع الغشاوة عن الفكر المعتم لفئات كثيرة مشوشة الأفكار، متدنية السلوك، فالسلبية والخوف، أما من الحكم الديكتاتورى أو من طغيان الرجعية قد اعترى أكثرية مفكرى العالم

العربى. دأبت النظم الحاكمة فى العالم العربى على تسيس المثقفين واستمالتهم للدفاع عن هذه النظم. ان طبيعة المثقفين والمفكرين يجب أن يكون الرفض من أجل التغيير إلى الأفضل، فإذا أصاب العطب القوة الدافعة لهم فهذا معناه إما الجمود أو التخلف، وغالباً سيكون التخلف لتتولى طبقة اللاعقلانيين قيادة الشعب إلى طريق الانحدار والانهيار.

لم يتبنى التطور الفكرى العربى الثورة الفكرية مثل ما نهجت أوروبا فى بداية الحضارة الأوروبية الحديثة فى القرن الثامن عشر، بل اتبع الفكر العربى الطابع المحافظ دون تجديد أو انقلاب ثورى على الأفكار والأساطير التى عاش بها سعيداً منتشياً بأمجاد وحضارات قديمة أصبحت تراثاً تاريخياً تملأ كتب تاريخ العالم العربى، وأصبح المجتمع المحافظ يواجه المتاعب كما قالت الكاتبة كارين آرمسترونج فى كتابها (معارك فى سبيل الإله) : « فهذا المجتمع المحافظ إما يخضع لسيطرة الفكر الغربى الحديث فى الواقع الفعلى، أو يمر بمرحلة الانتقال العسير من الروح المحافظة إلى الروح الحديثة، ويعتبر جانب كبير من الأصولية بمثابة رد فعل على هذا التحول الأليم».

تطرق د. فؤاد زكريا فى كتابه (الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل) إلى تدهور الاعتراف بحقوق الإنسان فى الوطن العربى بالرغم من الاتجاه العالمى إلى المزيد منه: « والانتقال من الحقوق السلبية إلى الإيجابية، ومن إقرار حقوق الفرد إلى تأكيد الحقوق الجماعية» . ان من يتهاون فى حق ذاته يستحق الإهانة والظلم، والقهر والهوان، فالحرية والسيادة لا يتم الحصول عليها إلا بالكفاح الطويل والتضحية بالوقت والمادة وبالنفس ذاتها. لا تسود الحرية والديمقراطية والعدل فى مجتمع خاضع لفساد ساسته ، وراض عن جميع أحوال حكمه. لا مكان للخانع فى مجال المعارضة الحقيقة فهو دائماً يتقبل القهر والظلم فى استكانة وذل.

عدد الدكتور فؤاد زكريا أسباب تدهور حقوق الإنسان فى عالمنا العربى: « ولكى تزداد الصورة وضوحاً، ينبغى أن نعرض لكل من جوانبها بقدر من التفصيل. ذلك

لأن العالم العربى لا يشكل ، من حيث طريقة الحكم، وحدة متجانسة . فهناك أنظمة شبة ليبرالية، وأنظمة قبلية مبنية على حكم العائلة وأنظمة عسكرية. . فالأنظمة شبه الليبرالية تتحول بالتدريج إلى اتباع سياسة العنف والقضاء على الخصوم بأساليب قد يكون لها أحياناً مظهر قانونى ولكن فى حقيقتها استبدادية. . أما الأنظمة القبلية فإن سيطرة عائلات معينة على الحكم تؤدى إلى نوع من الخصوصية والازدواجية فى الحكم تكاد ترقى إلى مستوى وجود قانونين: أحدهما للخاصة والآخر لعامة الشعب. وكثيرا ما تسن قوانين صارمة يقصد بها ردع الغالبية العظمى من السكان ، على حين تعلم الأقلية الحاكمة أنها معفية أصلاً من الالتزام بها، وهكذا فإن الولاء العائلى يفوق فى تأثيره الالتزام القانونى. . وأخيراً فإن مشكلة حقوق الإنسان فى العالم العربى المعاصر تظهر أوضح ما تكون فى المجتمعات التى تحكمها أنظمة عسكرية، وهى أهم المجتمعات العربية وأكثرها سكاناً. ففى هذه المجتمعات دساتير لا يعمل بها فى أغلب الأحيان، أو تعدل دائماً وفقاً لرغبات الحاكم، وفيها تحل القوة محل الحق، وفيها يمكن أن يفقد الإنسان أهم حقوقه بمجرد إثارة شبهه غير مؤكدة وغير محققة حوله. وأكثر الحقوق معاناه هو حرية التفكير والتعبير، لأن الأنظمة العسكرية بطبيعتها لاتصمد أمام المعارضة المنطقية العاقلة، وهى تستخدم أحدث أساليب الإعلام والتأثير فى العقول من أجل المحافظة على أشكال من الطغيان عفا عليها الزمان».

كان ختام هذا الجزء من كتاب د. فؤاد زكريا ثوريا ، فالحق كل الحق ان استمرار القهر يدفع الإنسان إلى الاستكانة فيتحول الخنوع إلى ثقافة مميزة تنتشر وتتفشى فتثب من المستوى الفردى إلى المستوى الشعبى. فى هذا المجال يستطرد د. فؤاد زكريا: «والأخطر من ذلك أن الخضوع المستمر للقمع قد أفقد الإنسان العادى الإحساس بحقوقه. فبالتدريج أخذ انتهاك الحق القانونى يصبح شيئاً طبيعياً، وأخذ الناس ينظرون إلى هذه التصرفات على أنها جزء من طبيعة الأشياء، وبالتالى أخذت تقل قدرتهم على المطالبة بحقوقهم. وهذا أكبر خطر يمكن أن يتعرض له مجتمع فى ميدان حقوق الإنسان، عندما ينهزم من الداخل، ويفقد القدرة على الثورة من أجل

حقوقه المسلوبة ، بل لا يشعر - من فرط الطغيان - بأنه قد سلب منه شيء» .

كتب الدكتور فؤاد زكريا فى كتابه (كم عمر الغضب؟) : « ان من يعتز ببلده وتاريخه حقاً هو ذلك الذى يعلن فى كل مكان، وأمام الجميع، أن مصر ليست مسئولة عن أخطاء حكامها، وينزه بلده عن تلك النقائص التى يمكن أن يتصف بها هذا الحاكم أو ذاك» . ان أى دولة بدون شعبها هى مجرد مكان فى كوكب يمكن أن يصف خصائصه وأبعاده الدارسين لعلم الجغرافيا. إذا كان د. فؤاد زكريا يقصد المصريين بكلمة مصر، فإن المصريين فعلاً هم المسئولون عن أخطاء حكامهم، فالشعب وافق برضاه أو مجبراً على أن يحكمه حكامه بالرغم من الزعم من أن الحكم الديكتاتورى لا يسمح للشعب بأن يعبر عن رأيه بصراحة وإلا سيكون مصير المعارض القتل، أو السجن أو التشريد، لقد رضى الشعب الخانع بالخنوع، وارتضى الحكم الديكتاتورى ولم يثر ضد جلاديه مثل شعوب أخرى ثارت من خلال ثورة العقل دون إراقة الدماء مثل الشعب البريطانى وبعض الشعوب الأوروبية، أو من خلال ثورة العقل والجسد، مضحية بأرواحها مثل الثورة الفرنسية.

بالرغم من أن الإنسان المصرى القديم كان يخطط لمستقبله فإن التواكلية وعدم التخطيط للمستقبل وعدم الالتزام بالمواعيد المتفق عليها أصبحوا سمة الإنسان المصرى/ العربى الحديث. حلل الدكتور فؤاد زكريا أسباب عدم اتجاه الشخصية العربية إلى التخطيط للمستقبل : « فمن الضرورى أن نبحث عن الأسباب التى تؤدى بالعقل العربى - على المستوى الشعبى والرسمى ، وكذلك على المستوى الفردى والجماعى - إلى تجنب الاقتراب من منطقة المستقبل وتركيز كل جهوده فى اللحظة الراهنة وفيما هو وقتى مباشر، وترك الميدان المستقبلى للظروف دون محاولة للتدخل المسبق فيه، ويبدو لى أن تحليل هذه الأسباب سيكشف لنا عن ثلاث فئات رئيسية: أسباب دينية، وحضارية، واجتماعية». فى جرءة مشوبة بالحذر خاض د. فؤاد فى تحليل الأسباب الدينية وأرجعها إلى التواكلية والإيمان بالمكتوب والمحتوم، وان المستقبل ليس شيئاً يصنعه الإنسان، وإنما يدخل فى نطاق المجهول. إلى حد ما يمكن أن يكون هذا التصور صحيحاً، ولكن الدين يدعو أيضاً بالعقلانية (اعقلها وتوكل)

كما يدعو الدين إلى العمل مع التدين : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)، بل يزيد على ذلك بالعمل حتى آخر لحظة فى حياة الإنسان، فعلى الإنسان أن ينهى عمله ويغرس فسيلة حتى لو علم أن (القيامة) قد قامت . فان دعى الدين إلى الإيمان بالقدر فإنه يدعو أيضاً إلى استعمال العقل والعمل العقلى والبدنى، ولكن نحن أصحاب الثقافة الشرقية قد تشربنا بحتمية القدر (الرزق المكتوب حتى بدون عمل) . كان الدكتور فؤاد محقاً - من وجهة نظرى- فى أسبابه الاجتماعية (أو الثقافية) والسياسية، فقد ساعدت الثقافة الموروثة عبر آلاف السنين الماضية وكذلك الحكم على أن تترك الساسة / القادة - وحتى على مستوى الفرد - التخطيط المستقبلى المتوسط المدى والطويل المدى، حتى التخطيط على مدى اليوم التالى لا نعطيه أهمية، فأصبحنا مشهورين بإضاعة الوقت وعدم الالتزام بالمواعيد أو الاتفاقيات لنهو عمل ما أو مشروع معين لاهين عن معنى الوقت الذى هو فى الواقع عمل - أياً كان نوعه - يجب أن ينجز ، مبنياً عليه أعمال أخرى، فتراجع الاقتصاد وتعثرت الأعمال، وتراكمت الفوائد والديون وأصبحت معظم المشاريع التى تنتهى غير مجدية اقتصادياً ومالياً.

عامل آخر كان له تأثير فعال على تكوين الشخصية العربية وهو الحكم الديكتاتورى الذى بدأ وتفشى منذ عهود طويلة. قام فرانسيس فوكوياما فى المرجع السابق ذكره بتحليل أسباب إرساء وتثبيت الحكم الديكتاتورى: « الافتقاد إلى الشرعية عند الشعوب ككل لا يعنى أزمة فى شرعية النظام ما لم تنتقل عدوى السخط وعدم الاعتراف بالشرعية إلى الصفوة المرتبطة بالنظام، وخاصة الصفوة التى تحتكر أدوات القمع، كالحزب الحاكم، والقوات المسلحة، والشرطة. . إن شرعية الديكتاتور قد تنبثق عن مصادر عديدة، كالولاء الشخصى من جانب جيش مدلل، أو إيدلوچية محكمة تبرر حقه فى الحكم» . لقد عانت كثير من الدول العربية إما من استخدام القوة ممثلة فى الجيش أو الشرطة، أو من استغلال صفوة الحزب الحاكم فى تمرير القوانين والتمويه على الفساد. لقد تكررت لعبة التضحية ببعض الصفوة كل حين كنوع من إلهاء الشعب عن باقى الصفوة التى تهيمن وتسيطر على المؤسسات السياسية

والاقتصادية والاجتماعية، تعيث فساداً ونهباً فى ثروات البلاد التى تحكمها، تاركة باقى الشعب فى ضنك ومعاناة ، حيث لا تهمه الحرية والديمقراطية بقدر ما يهمه احتياجاته الأولية من طعام وكساء وسكن.

فى الارتباط بين الحرية وحكم الطغيان، كتب الدكتور إمام عبدالفتاح إمام فى مقدمة كتابه (الطاغية) :« ما لم يحصل المواطن على حقوقه السياسية كاملة غير منقوصة ، وعلى نحو طبيعى ، فلا تكون منّة أو هبة، أو منحة من أحد، بل يعترف المجتمع أن للفرد حقوقه الطبيعية، وكرامته بل وقداسته، من حيث هو إنسان فحسب. . ، ما لم ينل المواطن حقوقه كاملة : حقه فى الحياة الآمنة، وفى أن يملك، وفى أن يعتنق ما يشاء من آراء، وأن يفكر ويعبر عن أفكاره بحرية، وأن يعمل العمل الذى يهواه، وأن يشارك مشاركة فعالة فى حكم نفسه عن طريق المجالس النيابية ، فلن يؤدى واجباته على نحو طبيعى - أعنى بالتزام داخلى ينبع من ذاته، بل أنه سيؤدى ما يؤديه منها بسبب الخوف من العقاب، والخوف هو المبدأ الذى يرتكز عليه حكم الطغيان والاستبداد كما أشار مونتسكيو ، بحيث تظهر كل الرذائل فى سلوكه إذا أمن شر العقاب، فلا مانع من أن يكذب، ويسرق ، وينافق ، ويغش ، ويخون. . . إلخ، كلما سنحت له الفرصة! ذلك لأن الالتزام الأخلاقى الذى ينبع من داخل الفرد يحتاج إلى وعى ذاتى - أى إلى شخصية إنسانية متكاملة، فى حين أن النظام الاستبدادى يسرق هذا الوعى ، فلا يجعله يرتد إلى نفسه، ولا يكون لدينا، فى هذه الحالة ، سوى وعى ذاتى ذات إتجاه واحد. ولهذا ذهب هيجل إلى أن الشرقيين لم يبلغوا قط مرحلة الوعى الذاتى بسبب الاستبداد الشرقى الشهير الذى ما زال البعض منا يتشكك فى وجوده ويعتبره خرافة. . الفرد ينافق الطاغية كما تنافقه الجماهير أيضاً، وفى الحالتين انهيار واضح للأخلاق! فلا أخلاق بدون شخصية إنسانية متكاملة نالت حقوقها السياسية، وأصبح لها قيمة وكرامة يعترف بهما المجتمع اعترافاً واضحاً يتجلى فى السلوك اليومى». ارجع الدكتور إمام السلوك السيء والمتدنى للشعوب الشرقية إلى الاستبداد الذى عانينا منه خلال عصور طويلة.

العبد يظل دائماً خانع وذليل، منافق وسلبى، يهدم ولا يبنى، يحطم ولا ينجز، يسرق بلا هواده، يخرب فى بلده بلا ضمير أو إحساس.

برزت الحركات القومية الفردية فى مصر بعد ظهور الملكية الفردية، وتجلت فى ثورة ١٩١٩ ، ومع سقوط الليبرالية فى مصر انتقلت قيادة الحركة القومية من طبقة الملاك الزراعيين إلى فئة التكنوقراط من خلال ثورة ١٩٥٢ ، وهمدت مع انتشار رأسمالية الاقراض/ الاستقراض (الاقتراض من البنوك أو من الأفراد ثم الهروب - شركات توظيف الأموال) . وتحت وطأة الضغوط الاقتصادية، والعزف المستمر على معزوفة العولمة، انهارت فى مصر وفى معظم الدول العربية حمية الطبقة الوسطى التى كانت تدعو إلى القومية العربية، والتى دأبت على قيادة صحوة التغير والتطوير عبر التاريخ الحديث ، وبانهيارها فقدت مصر ومعظم الدول العربية الوقود المطلوب لثورة العقل.

فرق الدكتور السيد عليوة فى كتابه (إدارة الصراعات الدولية) بين البحث عن الذات، والعودة إلى الذات التى تعنى العودة إلى الماضى ونحو الداخل، فحين ينحسر المد القومى تظهر التطلعات الطائفية وتكتسب قوة وكذلك تشتد حدة التيار الدينى (الإسلامى) . قام الدكتور عليوة فى نفس المرجع، بتحليل أسباب تشجيع بعض الدول العربية للاتجاه الدينى فى أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧ والذى أرجعه إلى الحفاظ على مكاسب سلطوية ومادية من قبل الحكام: « ومع تضخمات الثروة والفقر زاد ميل الحكومات العربية إلى تشجيع الاتجاه الدينى.. إذ لا جدال أنه كان من المتوقع أن تتسبب الثروة المفاجئة فى إحداث تغيرات اجتماعية سريعة وأنه فى غياب قوة منظمة أو فكرة سياسية تحظى بالرضا العام ، قد يكون الدين أفضل الأدوات التى يمكن مواجهتها فى مواجهة التوترات الاجتماعية الناجمة عن الثروات الطائلة، سواء داخل كل قطر على حدة، أو على مستوى العالم الإسلامى ككل. ولا يخفى أن ثورة التطلعات وتصاعد موجة الاستهلاك الترفى أو بغرض الاقتناءات أدى إلى اتساع شقة الفروق الطبقية فى إطار مجتمع استهلاكى يتبنى سياسة الباب المفتوح فى التجارة الخارجية، وقد حدث هذا فى مناخ مجتمع مهزوم عسكرياً وسياسياً

واقتصادياً ومصاب بالإحباط ثقافياً وحضارياً، كل هذا أصاب آلاف الفتيان والفتيات وبالأخص فى أوساط الشباب الجامعى، بإحباط قاس ويأس باد، فاندفعوا زرافات ووحدانا إلى عباءة الدين، يلتمسون بين طياتها الدفء والحنان. جملة القول ان عدم التحديد الواضح لهذا البعد الفكرى - تحديد الذات - تترتب عليه أزمة هوية حادة، تأخذ بتلابيب الجميع ، أفراد ومجتمعات، جماعات كبرى أو خلايا صغرى».

فى أسلوب تحليلى منطقى يرى الدكتور فؤاد زكريا فى كتابه (الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة) وجود علاقة بين أسلوب الحكم العسكرى ذى الرأى الواحد وبين انتشار التطرف والعنف الدينى: « أن هناك علاقة عضوية وثيقة بين أسلوب الحكم الذى سارت عليه ثورة ٢٣ يوليو ، وبين انتشار التطرف والعنف الدينى . ذلك لأن أسلوب الحكم هذا كان يتجه بطبيعته إلى أن يطبق على الشعب كله نفس القيم السلوكية المطبقة فى الجيش، ويميل إلى جعل العلاقة بين الحاكم والمحكوم أشبه بالعلاقة بين القائد وجنوده، لا بين مواطنين أكفاء عقلاء متساوين. وهكذا كان المواطن الذى اتجه عهد الثورة إلى تشكيله هو المواطن المطيع، الذى يمتنع قدر الإمكان عن التحليل والمناقشة والتفكير المستقل، والذى يفكر له الزعماء والقواد، وما عليه إلا التنفيذ . ومن هنا فإن ما بين الحكم العسكرى والتطرف الدينى ليس إلا شعره . . ففى الحالتين نجد تفكيرا سلطوياً، وطاعة عمياء، واعتقاداً بامتلاك الحقيقة المطلقة ، ورفضا للرأى الآخر، بل معاملته على أنه خيانة أو كفر، وفى الحالتين تسود القوة على المنطق ، وتحسم المعارك بالتصفية لا بالحوار، ويصادر حق العقل فى الاعتراض واتخاذ موقف مستقل، وتختص المنابر الإعلامية التى تنمى فى الناس ملكة التفكير النقدى» . انتقد كثير من المفكرين الليبرالين التطرف والعنف الدينى وعددوا أسبابه، وقاموا بتحليل الدوافع التى أدت إليه، خاصة فى مصر التى كانت بعيدة بحكم تكوينها العرقى والنفسى وشخصيتها المميزة عن هذا التطرف وهذا العنف.

عانى العالم من صراعات ايدلوچيات - أفكار ومذاهب - متعددة (بعثى / ناصرى / علمانى / اشتراكى / قومى / أصولى / . .) ومتنافرة وغير مؤثرة، فلم توجد الأيدلوچية التى لها طابع القبول الشعبى، والطابع التنظيمى والتكتيكى على

المدى القصير والمدى الطويل. نتج عن هذا التفتيت والضعف الإيدلوچى انهيار فى الانتماء العربى، وإنماء لدعوات التخلف والعودة إلى الماضى والسلف الغابر، وتوارى العقل - غير مأسوف عليه - من جموع تسود وحكام تقود . لقد أصبح التطرف الدينى والأصولية هما الشرنقة التى يفرزها الإنسان العربى لحماية نفسه من غزو الثقافات الغربية، وتأكيدا لذاته التى امتهنت فى الداخل وفى الخارج، وتدنى الاقتصاد، وإشباع الاحتياجات . تعيش الشعوب العربية حالياً فى مرحلة انتظار لقيام ايدلوچية سائدة وبعث فكرى جديد، لا يتحقق إلا بالتضحية بعد القيام من سبات التخلف والخنوع.

من أجل حضارة عربية جديدة

كان كتاب الفيلسوف الأغريقى افلاطون (الجمهورية) فى القرن الخامس قبل الميلادى أول الكتب التى تبحث فى المدينة المثالية الفاضلة، كما كان كتابه الذى لم يتمه (القوانين) قواعد لقوانين يمكن أن تطبق فى مدينته الخيالية. كان أفلاطون يرى أن أول ما يجب عمله فى المدينة الفاضلة هو البحث عن ملك صالح، ثم إبعاد جميع الكبار من المدينة، لأن أساليب الكبار تفسد الشباب وتطبعهم بطابع الماضى. أطنب أفلاطون فى أساليب التعليم والعمل وحل المنازعات فى مدينته الفاضلة التى لا يسمح فيها بوجود العبيد. واستمرت مسيرة الإنسان ولم ينس أن يحلم بمدينة الأحلام. لولا الحلم ما كان الأمل الذى به نحيا، شاحناً الطاقة النفسية اللازمة لاستمرار الحياة، متغلباً على ألم الصراع والفراق.

فى القرن السادس عشر صور توماس مور فى أسلوب تخيلى جزيرة يوتوبيا التى تحوى على المدينة الفاضلة والجمهورية المثالية. اشتقت كلمة يوتوبيا (UTOPIA) من مقاطع يونانية قديمة ومعناها البلد الذى لا وجود له، ان البلد الخيالى فى اللامكان، الذى تمنى وجوده توماس مور وصار بعد ذلك حلم يأمل فى تحقيقه دون جدوى سكان كوكب الأرض البائسين . كتب مور كتابه عن مدينته الخيالية يوتوبيا لينقد ويصلح الأوضاع الخاطئة فى ذلك العصر، ويشير بتهكم إلى ما يسود انجلترا خاصة وأوروبا بصفة عامة من مساوئ اجتماعية وأخلاق ذميمة. لقد رسم توماس مور صورة خيالية لدولة مثلى ليقارن بين العادات والأخلاق الحميدة السائدة فى مدينة أحلامه، وفساد الأخلاق والقيم والعادات السيئة فى مجتمعه.

فى جزيرة يوتوبيا يتكلم الناس بلسان واحد، ويلبسون طرازاً واحداً، ولهم جميعاً خلق واحد، وتسود مدنها نظام واحد. يختار أبناء كل مدينة ثلاثة من الشيوخ يمثلون المدينة، ويجتمع شيوخ مدن الجزيرة معاً للتشاور فى شئون الدولة. تنقسم

المدينة إلى أسر، تختار كل ثلاثين أسرة ممثلاً لها، ثم يختار كل ثلاثين ممثلاً رئيساً، ويشترك الممثلون جميعاً فى انتخاب أمير البلاد الذى يظل فى منصب الحكم طوال حياته، إلا إذا ارتكب خيانة تستحق العزل. فى حالة الخصومة بين الأفراد ينظر فى شأنها قاضيان من الرؤساء . تعرض أمور الدولة جميعها على مجلس الشورى. واجب دولة يوتوبيا ان تكلف كل فرد بعمل يؤديه، ومن حق الفرد أن يتصرف فى وقت فراغه كما يريد على ألا يشوب سلوكه رذيلة أو سوء. يتناول أفراد الشعب طعامه فى قاعات فسيحة حيث يأكلون معاً طعاماً واحداً. من يريد السفر إلى مدينة غير مدينته فعليه أن يستئذن. السلطات المختصة فى المدينة هى التى تسمح له بالمدة التى يجوز له أن يقضيها فى رحلته، وليس ما يدعو المسافر إلى أن يصطحب معه زاداً أو متاعاً، فأينما حل هو بين أهله وعشيرته على شرط ألا يمكث بغير عمل فى مكان ما أكثر من يوم واحد، فإن أراد البقاء أكثر من ذلك عليه أن يزاول مهنته فى المدينة الجديدة، فإن زاد الإنتاج فى مدينة ونقص فى مدينة أخرى، سد النقص بالزيادة التى توافرت فى المدينة التى بها إنتاج زائد.

أهم ما يعنى دولة يوتوبيا سعادة الإنسان، فكل إنسان له الحق فى أن ينشد سعادته على شرط ألا تكون سعادته الفردية على حساب سعادة المجتمع. شعب يوتوبيا لا يحب الذهب ولا يسعى إليه، والذهب يقيم بما يساوى الحديد. فى يوتوبيا يعد من علامات الجنون أن يجد الإنسان سعادته فى إذلال غيره. ترجع سعادة يوتوبيا إلى السعادة الروحية التى يلتمسونها فى البحث عن الحقيقة، السعادة الجسدية التى يجدونها فى الاحتفاظ بصحة الأبدان، وهم لا يقرون وجهة النظر التى تدعو إلى تحقير الجمال وتدعو إلى التقشف والزهد، فهم يهتمون بصحتهم ، لذلك فهم يمتلئون نشاطا وقوة. كل من أجرم من شعب يوتوبيا يصبح عبدا لا تحل عنه الأغلال، ويكلف بأشق الأعمال. وترجع هذه القسوة إلى أن الدولة قد هيأت للجميع كل الفرص الممكنة لعمل الفضيلة وطاعة القانون، فإن أغرت الرذيلة أحد بارتكابها رغم كل ذلك فهو خليق بأن يستذل بدون رحمة. أما المرضى فيجدون فى يوتوبيا كل عناية ورعاية وعطفا، فإن أصيب المريض بمرض لا يرجى شفاؤه، سارع

الجميع إلى مجالسته ومؤانسته ليرفهوا عنه. ان أهل يوتوبيا يرفضون المرأة التى تحتقر الجمال الطبيعى فتصبغ وجهها وجسدها بألوان الطلاء والمساحيق، لقد علمتهم التجربة أن حب الزوج لزوجته لا يتوقف على جمال الوجه بقدر ما يتوقف على الشرف والفضيلة والسلوك المتحضر والأخلاق الكريمة. ان فضيلة المرأة وطاعتها لزوجها هما اللذان يعملان على بقاء الحب ودوامه. ان المحبة والاحترام يسودان معاملة الناس بعضهم لبعض، ولا فضل لرئيس على مرؤوس ، فلا زهو وكبرياء ولا رياء ونفاق.

قوانين دولة يوتوبيا قليلة العدد جداً، لأن الشعب الذى يبلغ درجة عالية من التقدم والرقى لا يحتاج إلا لأقل القليل من مواد القانون، وهم يعيبون على سائر الشعوب التى تزيد وتطيل فى قوانينها حتى تملأ بها المجلدات، وهم لا يجيزون أن يلجأ أحد إلى محام يدافع عنه أمام القضاء، فكل فرد يحفظ القانون ويدافع عن نفسه، وأهل يوتوبيا يمقتون الحرب لأنها نكبة على الإنسانية، فالحرب همجية ووحشية ، وهم لا يعتبرون الفوز فى الحروب نصراً، ولكنه قضاء على عدوان، بالرغم من ذلك فإنهم يدربون أبناءهم جميعاً، ورجالاً ونساء على القتال حتى يحافظوا على استقلالهم وحريتهم.

فى أرض يوتوبيا أديان وعقائد كثيرة ومختلفة ، ولكن الغالبية تعتقد فى إله قوى قادر، أبدى خالد، وإليه ينسبون الخلق. إذا هاجم فرد أو جماعة احدى الأديان أنزلت به أو بهم الدولة عقاباً صارماً، قد يصل إلى أبعاد من يهاجم دين الآخرين من الجزيرة، فدولة يوتوبيا تبيح لكل فرد أن يعتنق ما يشاء من العقائد، وأن يبشر الناس بمذهبه ما استطاع، بشرط أن يكون ذلك من غير اعتداء على من سواه من الأفراد فى ديناتهم وعقائدهم . يرجع ذلك إلى مؤسس دولة يوتوبيا الذى وجد البلاد ممزقة بالخلاف الدينى، فشرع للشعب الحرية فى الدين، فإن لم يستطع الفرد أن يقنع غيره بالقول والحجة، فلا يجوز له البتة أن يلجأ إلى القوة والإرهاب. ليس بين أهل يوتوبيا من يخصص نفسه لدراسة الدين كى يجعل الدين مهنة وصنعة، إذ الشائع عندهم أن السعادة فى الدار الآخرة مرهونة بشىء واحد، هو العمل المنتج والمثمر.

دور العبادة عندهم تلائم العقائد على اختلافها، وليس فيها شارات الدين بعينه، لذا فالناس جميعاً يحتشدون فى دور العبادة جنباً إلى جنب ، وان اختلفت الإله المعبود، كل يصلى لربه، وذلك كى يآخوا بين العقائد ما أمكن ذلك.

يوتوبيا أيتها الدولة الخيالية ، المثالية، التى يحلم بها جميع البشر، الدولة التى تنتشر فيها السعادة والحرية، الإخاء والمحبة. لا يوجد بها شر، حتى الضرر أو المرض يعتبروه قدراً، يتعايشوا معه ويحيوا به. الجميع يعملون من أجل المجموع وليس من أجل الفرد. لا نفاق ولا رياء، لا طغيان ولا استعباد، إلا لمن فسد وأجرم. بلد يسود فيها العدل والمساواة، فلا فرق بين كبير أو صغير، ولا غنى أو فقير، لا حراسة للحاكم، أو استخفاف للمحكوم، لا تلوث بيئى من أصوات مزعجة وقاذورات فى الطرقات، وصراخ وشتائم وسباب. لا بيروقراطية عفنة يعذب بها الإنسان أخيه الإنسان، لا حقد أو ضغينة، معايير ثابتة للتقييم، شفافية فى العمل والمحاسبة. خيال قد يستطيع الإنسان أن يحوله بالفكر والعمل إلى حقيقة إن أراد الجميع أن يعيشوا فى محبة وسلام، ووفاق ووئام.

دعنا نهبط من جنة الأحلام إلى أرض الواقع، والذى حولناه نحن البشر إلى واقع كله عناء وشقاء ومرارة. ما الهدف الذى يجب أن يسعى إليه الإنسان ، كفرد ، وكعضو فى المجتمع. ما هو الغرض من العمل إلا النمو والتقدم وتطوير أسلوب معيشة الإنسان إلى الأفضل، ذلك للوصول إلى أكبر قدر من السعادة والرفاهية فى إطار حضارة متقدمة وراقية. محاولة تحويل حلم المدينة الفاضلة يوتوبيا إلى واقع ملموس نعيش فيه فى سلام وأمان.

إن الإنسان يعلم أن عمره محدود، فكان من الأدعى أن يشكل هدفه ويتحقق من أبعاده فى سنوات عمره الأولى بعد أن يكتمل إنماء عقله. من سخرية النظام البشرى أن نسبة كبيرة من البشر تعيش وتموت دون أن يكون لها هدفاً أو معنى للحياة، ونسبة قليلة تتعرف على أهدافها وأحلامها المؤجلة ولكن بعد أن يمر العمر ويقترب الإنسان من النهاية. فى القرب من النهاية تتراكم داخل الإنسان تجارب

وخبرات ومعرفة تؤهله لتكوين أفكار وأهداف ذات معنى، وقد تكون عميقة المغزى والمنفعة. ان استخدام العقل البشرى بكفاءة فى بكارة عمر الإنسان المحدود، وكذلك توسيع دائرة الإدراك العقلى يزيد من تعميق معنى حياة الإنسان وينئيه عن ضحالة المضمون الكلى للحياة. عندما يقترب الإنسان من النهاية ويقوم بتقييم الإضافات أو القيمه المضافة (Value Added) التى قام بها للنظام البشرى تتوالد عند كثير من البشر الشعور بعدم الرضا لأنه لم يضف شيئاً، أو لأنه لم تكن لحياته معنى، يصبح الإحباط واليأس من الأسباب الرئيسية التى تعجل من نهاية الإنسان، وبعده عن سعادة كان من الممكن أن يعيش فيها من اجترار ذكريات العمل البناء الذى كان من الممكن القيام به، والإضافة التى كان من المفروض منه أنه يغذى بها النظام البشرى. السعادة ليست فقط فى أن يعيش الإنسان فى سلام يوتوبيا الخيالية، ولكن فى أن يحيا فى صراع وتحدى من أجل تحقيق هدف القيمة المضافة، وينتصر ويفوز فى النهاية، منتشياً بشعور السعادة لتحقيق هدفه / أو أهدافه.

فى مرتبة أعلى من ذلك يأتى الإنسان القوى (ذهنياً وروحياً ونفسياً) الذى يستمتع بالسعادة من خلال الصراع الإيجابى، أى الصراع من أجل تحقيق الأهداف البنائة التى ينتج عنها تطوير الفرد والمجتمع معا. أنه العقل الذى يعمل بكفاءة عالية فيبنى ويطور فى مجالات التكنولوچيا، والعقل الذى يمكن أن يجلب للإنسان سعادته إذا تعرف على قدراته ووائمها مع أهدافه، وقام بالتوزان والتكامل بين الجسد، الروح، والتفكير المنطقى. فلسفات كثيرة أبدعها الإنسان بعقله، ولكن استفاد منها القليل، ولم يتعرف عليها أو يطبقها الكثير من البشر خاصة فى مجتمعاتنا العربية فأصبحنا نعيش فى ضحالة من الفكر، والبطء فى التطوير، والسعى إلى التخلف والنظر إلى الوراء.

السعادة هدف سامى يتمنى تحقيقه البشر. إذا كان الدستور الأمريكى ينص على أن البحث عن السعادة هو هدف مشروع، فإن الصراع المادى، والتفوق العسكرى الذى يؤدى إلى الصراع والهيمنة يسودا حالياً. أما بالنسبة للأفراد فيختلف الإحساس بالسعادة من فرد لآخر وفقاً لشخصيته وميوله، فيصف البعض السعادة بالشعور

بالرضا والقناعة ، ويصفها البعض الآخر بإشباع الاحتياجات أو الشعور بالبهجة والاستمتاع بالحياة أو اللذة بأنواعها المختلفة. يرتبط الرضا العام بالحياة ارتباطاً قوياً بعنصرين، وهما تقدير الذات (Self Esteem) ، والشعور بالضبط الداخلى ، أى تحكم الإنسان فى سلوكه وأفعاله، والبعد عن العصبية والعدوانية، أى بصفة عامة البعد عن السلوك الرد فعلى السيء. أن الإنسان السعيد هو المتفائل، الغير مكتئب الذى لا يصل القلق لديه إلى الدرجة الحرجة التى تخرجه من مرحلة الاهتمام والكفاح ومواصلة الرحلة الحياتية إلى درجة الاكتئاب والتعاسة والسلبية والانزواء والتقوقع. يكون الإنسان أسعد عندما يعيش فى صدق مع نفسه، وينعدم عنده الصراع الداخلى الذى قد ينشأ من التفاوت الكبير بين الطموح والإنجازات، أى اتساع الفجوة بين الهدف والإنجاز. يتمتع ذو القدرة على التحمل والقدرة على التحدى ومواكبة التغيرات بصحة نفسية تستطيع مقاومة الضغوط النفسية. فالإنسان السوى هو الذى يؤمن بأن التغير وليس الاستقرار هو الأمر الطبيعى، وان أحداث الحياة الشاقة والكفاح هما الأساس فى نموه وتطوره . ان السعادة ليست نقيض التعاسة وان كانا هذان العاملان لا يلتقيان معاً فى نفس الوقت، فيوجد بعض الاحتياجات التى لو حرم منها الإنسان يصبح تعيسا ولو تم الحصول عليها لا يكون سعيداً، وأيضاً توجد بعض المصادر المسببة لسعادتنا ان حرمنا منها لا نصبح تعساء، مثل : الالتزام ، وتنظيم الوقت، ووجود أهداف سامية يسعى الفرد لتحقيقها. ان الإنسان لا يشعر بالسعادة من عامل الصحة فقط ولكن يكتئب إذا أصابه المرض، وتعتبر الحياة الاجتماعية والأنشطة الترفيهية والرياضية من مصادر السعادة ولكن عدم إشباعها لا تصل بالإنسان إلى درجة التعاسة.

ماذا كانت نظرة العالم النفسى سيجموند فرويد بالنسبة للسعادة من منظوره الخاصة بالغرائز ، والرغبات ومبدأ اللذة؟ كتب فرويد فى كتابه (الحب والحرب والحضارة والموت) : « إن الناس تروم السعادة . . تريد أن تسعد، وأن تبقى سعيدة، ولسعيهم هذا جانبان، أحدهما إيجابى والآخر سلبى، فالناس تجاهد للحد من الآلام والمتاعب من ناحية ، وتسعى لتحصيل لذة موعودة من ناحية أخرى. وما

نسميه سعادة ، بمعناها الضيق، محصلة للإشباع، الفورى فى كثير من الأحيان لحاجات ملحة شديدة الوطأة، لكنها مؤقتة بطبيعتها، ولو طالت السعادة، وهو مطلب مبدأ اللذة، لما ارتاح لها الإنسان كثيراً، فنحن بحكم تكويننا يسعدنا أن نجرب اللذة على فترات، ونحن لا نستطيع تحملها لمدة طويلة، وليس بوسعنا أن نتحمل السعادة الشديدة ، وإمكانياتنا للسعادة محدودة منذ البداية بحكم تكويننا ، وإذا كان تحقيق السعادة صعباً فإن الكدر يأتينا أسهل مما تأتينا السعادة، وإننا لنعانى من ثلاث جهات: من أجسامنا الصائرة إلى فساد وتحلل، والمقدور عليها أن تعانى القلق والآلام ولا يمكنها أن تستغنى عنهما لأنهما بمثابة المؤشرات أو أجراس الإنذار التى تنبه الجسم إلى ما ينتظره من أخطار، نعانى من العالم الخارجى الذى يمكن أن يثور علينا ويهاجمنا بأعتى وأقسى وسائل الدمار، ونعانى أخيراً من علاقاتنا بالناس والآخرين، وربما كان الشقاء الذى يأتينا من جهة علاقاتنا بالآخرين أكثر ألماً من أى شقاء يأتينا من أى من الجهتين الآخريين، رغم أننا لا نعتبره شقاء أساسياً، ونظنه شقاء إضافياً، وهو فى الواقع شقاء مقدور علينا مثل أى من الشقائين اللذين يأتيانا من الجهتين الآخريين» . أكد فرويد بعد أن قام بتعرية النفس البشرية من غطاء الفضيلة الوهمى على أن الإنسان هو العامل الرئيسى لشقاء أخيه الإنسان، أو كما قال الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر: « الجحيم هو الآخر» . ان أساس السعادة تبدأ بالإنسان وتنتهى عند الإنسان، الذى بمقدوره بشيء من الحكمة أن يصل إلى هدف السعادة.

ترتبط الدراسات الاجتماعية الحديثة، السعادة بعوامل كثيرة ومختلفة ، ولكن يمكن تلخيص هذه العوامل فى النقاط السبع الرئيسية التالية:

- الصحة والنشاط.
- الشخصية والذكاء.
- الحياة الأسرية من زواج وأولاد وترابط أسرى.
- الحالة الاقتصادية من دخل مادى وسكن، ووسائل انتقال ، وخلافه.

- مناخ العمل والدرجة الوظيفية.

- ملء وقت الفراغ، والأنشطة الاجتماعية والرياضية والترفيهية.

- البعد قدر الإمكان عن الصراع الذى يسبب الضغوط النفسية والعصبية.

يعتبر الاكتئاب الوجه الآخر للسعادة ويتمثل فى الإحساس بعدم التركيز والتعب والملل والأرق، ويصل فى حالته المرتفعة إلى التوتر والحزن والغضب والقلق الشديد، وقد ينتهى إلى الانهيار العصبى والاضطراب العقلى . لقد استطاع العلم الحديث التغلب على الكثير من مشاكل الحياة، واستطاع الإنسان أن يحافظ على أداء الجسم لوظائفه باستخدام العقاقير والجراحة، كما استطاع أن يستغل الطاقة بأنواعها المختلفة ، والتقدم فى نظم الاتصالات ليجعل كوكبنا مثل قرية صغيرة. استطاع الإنسان أن يخفف من ملله بإشباع غريزة حب الاستطلاع عن طريق المذياع والتليفزيون والتليفون والأقمار الصناعية، ولكنه فشل أن يضع يده على مكنون السعادة الدائمة فى منظومة كونية قائمة على كل من الصراع والسعادة.

كانت الحضارات القديمة مثل الحضارة الفرعونية، والبابلية، والآشورية، وحضارات أخرى فى بلاد الشام وفارس والهند والصين، ثم فى بلاد اليونان والرومان، كانت هذه الحضارات تقوم وتبنى على المجهود العضلى للإنسان أو الحيوان، فالحروب والغزوات التى تشن من أجل مكاسب اقتصادية مادية يلزمها قوى بدنية وخيول ، وجمال وأفيال. كان من السهل أن يتعرض جسد الإنسان للقهر بالعذاب والحرمان. يستطيع الطاغية المستبد أن يجبر شعبه على بناء الصروح الضخمة والقصور والمعابد، وشق الطرق والترع وأعمال الرى. كانت الأرقاء تستعبد فى الزراعة والحصاد، وفى خدمة المنازل والترفيه عن الأسياد. حضارات سالفة كانت قائمة على الجبر بقوة السيد أو الطاغى أو المستبد . أما الحضارات الحالية فهى حضارات عقول ومعرفة، ومن الصعب بل من المستحيل إرغام العقل على التفكير والتطوير، والإبداع والاختراع، والابتكار والتحسين وذلك بدون إرادة صاحبه. صاحب العقل الحر يستطيع أن يتغابى ويتكاسل فى ظل مناخ يسوده القهر

والاستعباد، أنها المقاومة السلبية أو ما يسمى المقاومة بالحيلة ، فصاحب العقل الحر هو الذى يمكن أن يبدع أما الإنسان المقهور فأقصى ما يمكن تحقيقه هى أحلام اليقظة.

هاجم كثير من الفلاسفة والمصلحين رأسمالية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لخلوها من البعد الإنسانى واستغلالها للإنسان فى مجتمعات لديها عقيدة دينية وتاريخ موروث يدعو إلى الرحمة والتكافل. أدى الوجه البشع للرأسمالية المستغلة إلى ظهور النظام الشيوعى فى عديد من الدول فى القرن العشرين. بعد انتشار الشيوعية بدأ النظام الرأسمالى فى تحسين صورته بإدخال نظام تحديد ساعات العمل والتأمين على العمال وتطبيق بعض المزايا العلاجية والاجتماعية الأخرى مثل العلاج الطبى والرحلات الترفيهية، ودفع العامل إلى الاستمتاع بعطلته الأسبوعية والسنوية، ومشاركة العاملين فى تملك جزء من الشركة أو المصنع أو المؤسسة التى يعملون فيها كحافز للانتماء والعمل الجاد لتحقيق أكبر قدر من الأرباح يعم على الجميع من أصحاب رؤوس الأموال والأداريين والعاملين. فى نفس الوقت اتجه النظام الشيوعى إلى الفشل لانعدام الحافز الشخصى الذى يدفع العامل أو صاحب رأس المال لبذل أقصى جهده لنيل درجة أعلى فى السلم الوظيفى أو تحقيق ربح أكثر يعود عليه مباشرة ولورثته من بعده. من أسباب فشل النموذج اليوتوبى أيضاً، طبيعة المنظومة الإنسانية التى تورث غرائز العدوان وإثبات الذات من خلال جميع أنواع الصراعات ومنها الصراع المادى والصراع العقائدى والصراع الطبقى . بالصراع يستطيع الإنسان أن ينفث عن هذه الغريزة ويشبعها بالرغم من محاولة الإنسان كبتها أو التخفيف منها على قدر الإمكان، وأثبت التاريخ - حتى الآن - فشل القضاء على غريزة العنف والعدوان أو حتى التخفيف منها. فالصراع الفردى تحول إلى صراع جماعات ودول، والتصفية الجسدية الفردية تحول إلى إبادة جماعية.

ثم حدث فى النصف الثانى من القرن العشرين نوع من التقارب يميل إلى الالتقاء (Convergence) نحو نظام ليس بجديد هو النظام الاشتراكى، وهو نظام واسع المدى فى التطبيق من حيث ميله إلى النظام الرأسمالى أو النظام الشيوعى، كما حدث أيضاً احتكاك أو اتصال ثقافى بين الشرق والغرب. يأتى الدين كعامل أساسى

فى المنظومة الإنسانية، خاصة فى الشرق لعوامل تاريخية كثيرة منها بزوغ الأديان السماوية فى مناطق متقاربة، فى شبه الجزيرة العربية وامتدادها شمالاً فى القدس . حتى الأديان الغير سماوية من ديانات فرعونية وديانات بلاد بين النهرين والديانات الأخرى من هندوسية وسيخ وزرادشتيه ومانويه، والكنفوشيه، وبوذيه ، فقد نبعت هذه الديانات فى مناطق مختلفة من الشرق: من مصر فى شمال شرق أفريقيا إلى الهند والصين، مروراً ببلاد فارس. إذا كانت بعض الفلسفات الإصلاحية الإلحادية تدعو إلى محامد الأخلاق دون الدين، فأن الخوف من العقاب والأمل فى دخول جنات خالدة يظلان حافزين هامين للبعد عن الخطيئة والتمسك بالأخلاق والسلوك الطيب. فطبيعة الإنسان المتمردة والجانحة للعصيان والتحرر، مع غرائز ورثها الإنسان فى جيناته من شهوة جنسية ، وميل إلى العنف والعدوان، تؤدى إلى الهدم وتدمير ما قد اكتسبه الإنسان من مكارم الأخلاق والسلوك الاجتماعى المتسامح (وليس المتساهل أو المتسيب) والمحب للغير. ان طبيعة الشرق تميل إلى الحل الوسط، فالنظام الاقتصادى الاشتراكى مع التمسك بالتعاليم الدينية قد يكونا نموذج جيد ولكن ليس بالجديد. ان الجديد هو تفاعل الحرية والديمقراطية والمساواة، والقوة فى إبداء الرأى دون خوف، والمرونة فى تقبل الرأى الآخر، مع نظام اشتراكى فى إطار الأديان السماوية دون التحيز لدين ما، فجميع الأديان السماوية تدعو إلى المبادئ الصحيحة والأخلاق الحميدة والسلوك الطيب، ويتبقى أسلوب عبادة الإنسان لخالقه والتى تختلف من دين لآخر بالتسامح والمرونة وحب الإنسان لأخيه الإنسان يتقبل كل منا الآخر المختلف عنه فى أسلوب عبادته ما دام لا يتدخل الآخر فى شئون عبادته وعلاقته مع ربه.

تميزت النظم فى مصر منذ بدء الحضارة الفرعونية بالبيروقراطية النابعة من المركزية. لقد أسهب الدكتور/ جمال حمدان فى موسوعته (شخصية مصر) فى تحليل المركزية الوظيفية أى البيروقراطية: « هناك عامل هام يدعو إلى مزيد من المركزية وهو العامل الوظيفى، فالبيئة فيضية، والمجتمع مجتمع هيدرولوجى ولهذا أصبح الرى مرادفاً للتنظيم، والتنظيم المركزى الذى يخضع فيه الجميع طواعية لسلطة عامة

مطلقة . ولئن كان هذا من أقوى عوامل ظهور الوحدة السياسية المبكرة فى مصر، كما أنه علم الشعب النظام أساس الحضارة، إلا أن هذا أيضاً بدأ دور الحكومة الطاغى وأرسى نواة الموظفين الثقيلة، وأصبحت البيروقراطية المركزية عنصراً أصيلاً فى مركب الحضارة المصرية، بل ثقلا عنيداً فى موكبها . أصبحت مصر مجتمعاً حكومياً، فالحكومة وحدها هى التى تملك زمام المبادرة وإمكانيات العمل، العمل الكبير على أية حال. وقد كان لهذا قيمته فى بعض المراحل والمشاكل، ولو أنه ربما خلق فى جميعها شيئاً من روح التواكل والتكاسل والسلبية وخنق ملكات المبادأة وحوافز التلقائية فى السكان. وهنا مرة أخرى نجد أن الحكومة المركزية الأولى فى التاريخ ليست ميزة صافية بلا شوائب ولا كانت مكسباً بلا ثمن» . من بين المركزية التركيبية والمركزية الوظيفية، تخرج لنا - كما كتب الدكتور جمال حمدان فى نفس المرجع -القمة النهائية المجسدة للمركزية فى مصر ، فمنذ عرفت مصر العواصم الموحدة (منف - طيبة - الاسكندرية - القاهرة) والعاصمة تمثل مركز الثقل الذى يسود ويشكل الثقافة المصرية بصفة عامة.

طالما استمر النظام المركزى، فإن النظام الفرعونى فى الحكم سيظل قائم مستقبلاً، ولكن يمكن كسر حدة المركزية وطغيان حكم العاصمة بتقسيم البلاد إلى أقاليم تتمتع بالحكم الذاتى، يجمعها حكومة فيدرالية تنسق ولا تحكم، لها صفة السيادة فى شئون الدفاع والشئون الخارجية. لكل أقليم أو ولاية أو محافظة أياً كانت التسمية - مجلس وزراء مصغر يقوم بحكم وإدارة الأقليم الذى له قوانينه ونظمه التى قد تختلف إلى حد ما عن قوانين ونظم الأقاليم الأخرى وفقاً لوضع وثقافة الأقليم. فثقافة سكان القاهرة الكبرى إلى حد ما مختلف عن ثقافة بلاد جنوب مصر، وعن قرى ومدن الريف المصرى، وعن بدو سيناء . قد يكون التقسيم : أقليم القاهرة الكبرى، وثلاثة أقاليم فى جنوب مصر ومثلها فى الدلتا وأقليمين فى الساحل الشمالى، وأقليمين فى الساحل الشرقى من بورسعيد إلى حدود مصر الجنوبية، وأخيراً أقليم شبة جزيرة سيناء.

ان نظام الاتحاد الفيدرالى كما جاء فى كتاب (النظم السياسية فى العالم المعاصر) للدكتورة سعاد الشرقاوى: «مجموعـــة من الـــدول أو الولايـــات أو الأقاليم

أو الإمارات . . تربط بينها علاقات قانون داخلى ، هو القانون الدستورى . والحكومة المركزية تحتجز لنفسها أهم اختصاصات السلطة العامة ، بحيث تمثل السيادة ، خاصة فى مجال العلاقات الخارجية وفى مجال التشريع ، وفى مجال القضاء . ان السلطة العليا تحتفظ لنفسها بحق مد اختصاصاتها ، على حساب اختصاصات الدول (أو الأقاليم أو الولايات المتحدة) وذلك إما بواسطة قانون فيدرالى ، وإما بواسطة تعديل نصوص الدستور الفيدرالى . يوجد نظام الاتحاد الفيدرالى فى دول عديدة مثل الولايات المتحدة الأمريكية ، وكندا ، والمكسيك ، والبرازيل ، والأرجنتين ، وجنوب أفريقيا ، وتنزانيا ، والهند ، واستراليا ، والإمارات العربية المتحدة» .

كتب الكاتب سلامة أحمد سلامة فى مجلة وجهات نظر - العدد السادس والعشرون - مارس ٢٠٠١ ، عن تسائل المثقفون والمفكرون والسياسيون فى العالم العربى عن تخلف البلاد العربية عن العالم المتقدم ، واتساع الفجوة بين حضارة غربية تسير بخطى سريعة وحضارة عربية متجمدة فى ظل حكم الحزب الواحد أو الحزب القائد ، والخضوع لنظام سلطوى ، قيادات تتحجج بالصراع العربى الإسرائيلى تارة ، وبمقاومة الإرهاب والتطرف تارة أخرى ، والقضاء على أعداء الشعب تارة ثالثة . . مبررا لإبقاء الأوضاع الاستثنائية التى تحد من الديموقراطية ، وتسمح بفرض قوانين الطوارئ . وتساءل الكاتب : « ألم يحن الوقت لكى يثق الحكام العرب بشعوبهم ، ونثق بقدرة المواطن العادى على تحديد مصيره وتقدير ما يراه صالحاً لنفسه ، فنعطيه من ثم الحق فى استشعار قدراته واستثمارها فى خدمة نفسه ومجتمعه؟ ألم يئن الأوان لكى تتحول الرقابة الخارجية من جانب السلطة أو الحكومة أو مقص الرقيب إلى رقابة ذاتية داخلية ، تستمد قوتها من مبدأ أخلاقى أو وازع دينى ، بقدر ما تستمد فاعليتها من إحساس عميق بالمسئولية المدنية والاجتماعية ، وكلتاهما لا تنمو وتترعرع إلا فى جو من الحريات التى توسع مجالات الفكر والعمل ، وفى ظروف تسمح بنشاطها وازدهارها . هذه الثقة المفقودة التى تنبع من ادعاء ذوى السلطان على كافة المستويات ، من البيت إلى المدرسة إلى الجامعة ، ومن المؤسسة إلى الصفوة الحاكمة ، بأنها وحدها تملك الحقيقة وتحتكر القدرة على التفرقة بين الحق والباطل ، والصواب

والخطأ هى التى أنتجت شعوباً ضعيفة، ومن ثم حكومات مذعورة خائفة . سلسلة متصلة الحلقات تبدأ من الفرد الذى عجزت أساليب التعليم والتربية فى بيوتنا، ثم فى مدارسنا وجامعاتنا عن تنشئته على أساس من حرية التفكير والتعبير، والقدرة على النقد وتكوين شخصية مستقلة تملك روح المبادرة والشجاعة والاعتماد على النفس وانتهاج التفكير العقلانى. . وهى اللبنة الأولى فى بناء ديمقراطى ، يعتمد على قوة الشعوب وقوة الحاكم، ويشرك الشعب فى تحمل المسئولية ومواجهة تحديات العصر».

يتميز العالم العربى إلى حد كبير - وخاصة مصر - بالتجانس الإثنى واللغوى والثقافى والدينى. عدد الدكتور فوزى منصور فى كتابه (خروج العرب من التاريخ) الأقليات الاثنية واللغوية والدينية فى مختلف الأقطار العربية من مجموعات إثنية مختلفة فى جنوبى السودان وموريتانيا لا يتكلمون العربية، وثنيون أو مسيحيون، والدروز والأرمن فى لبنان وسوريا والأراميين والسريان فى سوريا، والعراق ولبنان، وأكراد العراق وسوريا، والأشوريين فى العراق، وإيرانيون دول الخليج وبربر وصحراويين دول المغرب العربى والنوبيين فى مصر، والمسيحيين بجميع شيعهم فى معظم الدول العربية.

تتميز الأقلية بالاختلاف الثقافى ، أو اختلاف اللغة، وهم عادة ميالون إلى الانفصال أو التقوقع السلبى وعدم الاندماج مع المجموع، فتعتبر الأقلية من أسباب ضعف الكيان القومى الواحد، إما لسلبية الأقلية وعدم تفاعلها مع المجموع أو لصراعها مع الأغلبية. كتب تيد روبرت جار كتابه (أقليات فى خطر Minorities at Risk) : تدفع الاضهادات السياسية والاقتصادية الجماعات العرقية إلى المطالبة بمزيد من الاستفادة من النظام السياسى ومزيد من الفرص الاقتصادية، بينما يدفع تاريخ الاستقلال الذاتى ببعض الجماعات أو محاولة الانشقاق، وتساهم الضغوط البيئية والديموجرافية فى المطالبة بوضع حل للشكاوى داخل النظام. . ان أعضاء الجماعات الطائفية المضطهدين لديهم ثلاثة خيارات بديلة وهى الخروج، الاحتجاج أو الولاء» . أيضاً يعتبر العامل البيئى والديموجرافى (Domography) -

علم السكان والمجموعات البشرية ، الذى كان ومازال عامل مؤثر فى الاستقرار السياسى لدول عديدة فى العالم العربى لاختلاف الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والثقافية بين مجموع السكان والأقليات.

تتميز مصر عن باقى الدول العربية الأخرى بالتجانس النسبى، فمصر كما ذكر الدكتور جمال حمدان فى كتابه (شخصية مصر) بوتقة كبيرة استطاعت صهر جميع الجماعات الأثنية واللغوية والثقافية الواردة من مناطق مختلفة من آسيا وأوروبا وأفريقيا - عدا يهود الخروج الذين خرجوا من مصر فى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد تقريباً على يد موسى عليه السلام. كانت طبيعة المصريين التى تميزت بالتسامح هى النار التى صهرت الجميع لتبرز الثقافة المصرية المميزة بالطابع الفرعونى ثم الفرعونى العربى، وأخيراً الطابع الفرعونى / العربى / الغربى. فى الفترة القادمة يجب أن تصدر مصر تسامحها المعهود وليس العكس باستيرادها التعصب الأعمى والمدمر للكيان المصرى الذى عاش آلاف السنين فى تسامح دينى وعرقى وثقافى . كتب العالم الأثرى المصرى الدكتور سليم حسن فى مقدمة ترجمة كتاب (فجر الضمير) للمستشرق الأمريكى جيمس برستيد: « أن فى مصر شعر الإنسان لأول مرة بنداء الضمير، فنشأ الضمير الإنسانى بمصر وترعرع. ان مصر أصل مدنيات العالم، ومنبت نشوء الضمير، والبيئة الأولى التى نمت فيها الأخلاق».

من أجل حضارة واعدة جديدة يجب أن تنكسر سلسلة الخوف والجبن ، وعدم الثقة فى النفس، يجب أن ينتهى النفاق والرياء، والتملق والمداهنة، يجب أن تفوق الشعوب من نشوة خمر التخلف والعبودية وتقضى على آفات كثيرة لها جذور تاريخية يتم إرضاعها إلى الأبناء ليتوارثها الأحفاد. يستلزم التغيير تضحيات كبيرة وكثيرة فالطاغية وصفوته الباغية ستمارس أسلوب القهر والاستعباد ، قد تبدأ التضحيات بالحرمان من العمل ومتطلبات الحياة الأساسية وتنتهى بالموت مروراً بالقهر والتعذيب والذل وإهدار الكرامة. هل تستطيع شعوب نهلت لسنين طويلة من نهر الخضوع والإذعان أن تشعر بمرارة التخلف والتبعية لحضارات جديدة وضعته فى حجمه الطبيعى كإنسان من عالم العبيد استعذب ذله وهوانه.

لا خوف من التفاعل مع الثقافات الأخرى لاكتساب سلوك أفضل وتطوير نظم متخلفة، فلن تستطيع ثقافة حتى لو كانت قوية صهر ثقافة أخرى راسخة منذ آلاف السنين، حتى لو كانت هذه الثقافة أضعف قـوة وأقـل حضارة، فالانصهـار أو الامتصاص التام فى الثقافة الأقوى يجابه بموانع كثيرة أولها كما كتب ت.س.إليوت فى كتابه «ملاحظات نحو تعريف الثقافة» غريزة كل كائن حى فى المحافظة على وجوده الخاص ، أو إثبات ذاته المستقلة وإن أدى ذلك إلى العصيان والمجابهة . ان الثقافة العربية المحافظة المرتبطة بحضارات شرقية تعود إلى أكثر من خمسة آلاف عاماً، وبأديان سماوية راسخة من حوالى ألفين من السنين، هى ثقافة لديها من القوة ما يمكنها من مقاومة الانصهار فى الثقافة الغربية المادية الأقوى حضارياً واقتصادياً فى وقتنا الحالى.

سيحدث مستقبلا تقارب يؤدى إلى التقاء جميع ثقافات كوكب الأرض فى ثقافة واحدة. لن يحدث هذا الالتقاء فى القريب العاجل، ولكن لطبيعة التطور السريع فى نظم الاتصالات والمواصلات فإن خط الاتجاه العام (Trend) سيؤدى إلى ثقافة مركبة من ثقافات ظلت منعزلة فى الماضى إلى حد ما. تعتبر دول المهجر مثل الولايات المتحدة الأمريكية وكندا واستراليا مثالا لما قد يحدث فى المستقبل، نعم فى هذه البلاد توجد الثقافة الغربية النابعة من الثقافة الأوروبية المسيحية، ولكن تتواجد أيضاً أيضاً ثقافات أخرى لأقليات من أفريقيا، والشرق الأوسط ومن الصين، وخلافه. فى المستقبل ستتواجد ثقافة واحدة ولكن لن تنتهى الثقافات الفردية وثقافات الجماعة لأن طبيعة النظام الكونى سيظل قائماً على الاختلاف والتنوع، وطالما يوجد أديان مختلفة، وعقائد متعارضة، وتاريخ ملىء بالأساطير المتنوعة والتى توائم الشخصيات المختلفة، ستوجد الثقافات المتباينة.

كتب الدكتور عبدالوهاب المسيرى عن مزايا وعيوب النموذج الحضارى الغربى. قد نتلاقى كثيرا ونختلف قليلاً عما جاء فى كتابه (العالم من منظور عربى) ، ولكن اعتقد أنه مع الاختلاف والاتفاق - وكلها سمات نظام بشرى - فان الجميع يتطلعون إلى حضارة عربية جديدة. قد يداهن المنافق أصحاب السلطة والسلطان علنا، ولكن

فى داخله يريد التغير من أجل أبنائه وأحفاده. يمكن تلخيص مزايا النموذج الحضارى الغربى فى النقاط العشر التالية:

مزايا النموذج الحضارى الغربى:

- إدارة المجتمع إدارة رشيدة عن طريق مؤسسات إدارية وسياسية، قادرة على حل المشاكل من خلال إجراءات ديمقراطية، وفصل بين السلطات.

- التحديد المتواصل للقيادات من الأجيال الصاعدة، ليحلوا محل القيادات القديمة. أى مزج ما بين حنكة وحكمة القديم المتمرس ذوى الخبرات الطويلة، والجديد المتحمس الملئ بالحيوية والنشاط الذى يقبل تحمل المخاطر المحسوبة.

- احترام حقوق وحرية الإنسان السياسية والفكرية وحرية العقيدة.

- السلوك الأخلاقى المتحضر من احترام الآخر، والتمسك بالنظام، والقوانين، والسلوكيات التى لا تضر أو تزعج الآخرين مثل التلوث البيئى والسمعى والنظرى، والمحافظة على نظافة الطرق والمنشآت العامة.

- إنشاء دولة الرفاهية التى تضمن للفرد الحد الأدنى من متطلباته، من نظم صحية وتعليمية مجانية أو شبه مجانية.

- العقلية النقدية دون حجر أو قسر، والتى تؤدى إلى التجديد والإبداع والشفافية فى اتخاذ القرار وتصحيح الخطأ دون مكابرة أو مواربة.

- تطوير المناهج التعليمية والبحثية لمواكبة التطور السريع والمتواصل للعلوم التكنولوچية والمعلوماتية.

- تشجيع ثقافة المعلومات المقروءة والمذاعة.

- البعد عن السفه فى الاستهلاك، واستخدام المنطق العقلى فى تدبير الأمور العامة.

- تطبيق أسلوب المنظومات المدروسة مسبقاً لتسيير الأنشطة الحياتية التى من خلالها يؤدى الإنسان عمله ويتفاعل مع أفراد المجتمع من أجل رفاهيته ونموه وتطويره.

لا يوجد شيء كامل إلا فى مخيلة الإنسان، حتى الكمال الإنسانى نسبى يصيغه الفرد حسب أهوائه وميوله، فالكمال المطلق، فقط صفة الله جل جلاله. فالحضارة الغربية لها عيوب أيضاً والتى يمكن تلخيصها فى النقاط الخمس التالية:

- البعد عن التواصل والتلاحم الإنسانى الذى يؤدى إلى إحلال البرود والبعد الإنسانى بدلاً من الدفء والقرب والمشاركة الوجدانية بين أفراد المجتمع.

- انتشار الموبقات من مخدرات، ودعارة، وأمراض خبيثة وعنف وجريمة وخلافه.

- التقييم المادى فى كثير من مجالات المعاملات الإنسانية، وتحويل الإنسان إلى شبه آلة مبرمجة.

- العنصرية التى تؤدى إلى التفرقة والتحيز إلى فئات معينة.

- السرعة المبالغ فيها فى أسلوب المعيشة والتى قد تؤدى إلى أمراض نفسية من توتر وقلق واكتئاب وخلافه.

ان هدف أى حضارة هو التنمية الشاملة التى تشتمل على أربعة محاور رئيسية:

الاجتماعى، والثقافى، والاقتصادى، والسياسى. ثم تجيء القوة العسكرية- من جيش قوى، وتكنولوچيا، ومعلومات استراتيچية ، وبنيه أساسية، ومصانع حربية، وروح معنوية عالية - لتحمى مكاسب التنمية . تعنى التنمية التطوير إلى الأفضل والأحسن للمجتمع دون تجاهل كون المجتمع كعضو فى منظومة بشرية تميل إلى التقارب والتأثير المتبادل بين المجتمعات المختلفة الكائنة على كوكب الأرض فى عصر أصبحت فيه وسائل الاتصالات والمواصلات عنصراً هاماً للتفاعل على المستوى الفردى والجماعى. يظهر فى مسألة التنمية الشاملة معضلة اختيار أفضل نموذج حضارى مبنى على منظومات متعددة، والتى تلائم وتناسب المجتمعات القائمة بحيث يحقق أعظم فائدة بالنسبة لمجموع هذه المجتمعات ولا يجابه إلا بأقل قدر من المعارضة والصراع. بالتفكير العقلانى المنطقى، وبالإرادة والتصميم يمكن

لمفكرى العالم العربى تصميم هذا النموذج ووضعه فى حيز التطبيق العملى، ولكن لن يتحقق هذا التطبيق إلا بعد الثورة داخل عقل الإنسان العربى، ثم ثورة النقد، ثم ثورة المطالبة بالتغير.

يرى الدكتور فوزى منصور فى كتابه (خروج العرب من التاريخ) ان التنمية الاقتصادية المعتمدة على النفس والمتمركزة نحو الذات هى أساس للتوحيد العربى: (كلما اندمجت اقتصاديات كيانات جغرافية كانت منفصلة من قبل من الناحية الاقتصادية، زادت قدرة الكيان الموحد الجديد على الاستفادة من الموارد المتنوعة التى توضع تحت تصرفه واتسعت سوق منتجاته، وتمتع الكيان الجديد بمزايا التكامل الاقتصادى الأخرى المألوفة، يصدق ذلك على البلدان العربية كما يصدق على غيرها. غير أن الأهم من ذلك بكثير فى حالة العرب هو أن الموارد المنتظر تكاملها موزعة الآن على أجزاء الوطن العربى المنفصلة بصورة غير متكافئة للغاية. فبعض البلدان تملك أراضى زراعية وفيرة بينما السكان مبعثرون للغاية على مساحاتها، ولا تملك سوى القليل جدا من رأس المال لزراعتها، وهناك بلدان أخرى كثافتها السكانية كبيرة، ولكن ما تملكه من الموارد الطبيعية ورأس المال أقل نسبياً مما يلزم لجعل العمل منتجاً بدرجة كافية. وهناك مجموعة ثالثة من البلدان، قد توجد فيها وفرة كبيرة من مورد طبيعى معين، يسهل تحويله إلى مورد رأسمالى، مثل النفط، لكن هذه المجموعة تفتقر إلى الموارد الطبيعية أو البشرية الأخرى التى يتكامل رأس المال معها.. وصفوة القول إذن هى ان وحدة عربية تقوم على خلق حياة اقتصادية مشتركة تهتدى باستراتيجية للتطور المعتمد على النفس المتمركز على الذات لا يمكن أن تتحقق إلا تحت قيادة قوى اجتماعية مختلفة عن الصفوة الحالية صاحبة الثروة النفطية والطبقات البورجوازية الحاكمة حالياً. والمهام المباشرة المطروحة أمام الشعب العربى هو تحديد هذه القوى الاجتماعية، لكل بلد وللوطن العربى ككل، وتعيين أهدافها التكتيكية والاستراتيجية، وإعداد أساليب عملها وتنسيق خطاها. والقيام بهذه المهمة ضرورى وكاف فى آن معاً لبقاء العرب كأمة مستقلة».

ورد فى كتاب الدكتور إبراهيم شحاته (نحو الإصلاح الشامل) ان جزءاً كبيراً من ثروة البلاد العربية النفطية يتجه إلى أنشطة غير إنتاجية والسبب كما صاغه فى نفس المرجع : « ان القيادات التى تريد فعلاً التنمية السريعة لبلادها كثيراً ما تفشل فى ترجمة هذه الأمنية إلى خطوات عملية مفيدة، إما لانتمائها الأصيل أو المستجد لمجموعات ليس من مصلحتها الحقيقية إحداث هذه التنمية ، أو لفشلها فى ابتداع ايدلوچية مقنعة للجماهير تدفعهم لتحمل تضحيات التنمية، أو لجهل فى الأساليب وتخبط فى التنفيذ يؤديان إلى تعدد التجارب الفاشلة مما يورث اليأس، وغالباً ما تجتمع هذه الأسباب المتشابكة كلها، وكثيراً ما تغلب المشكلات اليومية الملحة على كل شىء ويضيع فى غمارها التحدى الكبير لمواجهة المستقبل». فالدول العربية النفطية فى رأى الدكتور شحاتة دول متخلفة اقتصادياً وحضارياً، وأن كل ما تتمتع به ليس إلا سيولة لفترة من الزمن ستنضب بنضوب البترول والغاز الطبيعى. ان الحل لدى الدكتور شحاتة والذى يتوافق مع ما كتبه الدكتور فوزى منصور: « الاتفاق حول استراتيچية عربية للتنمية يتحدد فيها بصورة عامة الدور الذى تلعبه كل دول فى تحقيق الهدف المشترك فى تنميتها جميعاً سواء بما تفعله على انفراد أو بما تسهم به فى المجهودات المشتركة. ثم لتختط كل دولة لنفسها بعد ذلك ما شاءت من أساليب فى ضوء هذه الاستراتيچية». الكاتب هنا لا يتكلم كما قال عن وحدة سياسية أو وحدة اقتصادية، بل إلى استراتيچية عامة، ربما لتشائمه من صعوبة حدوث هذه الوحدة فى ظل الأوضاع القائمة حالياً.

واصل الدكتور شحاتة تحليل أسباب تخلف العرب وتوصياته للوصول إلى الإصلاح الشامل، فكتب فى دور الأيدولوچية: « إذا توافرت الاستراتيچية فلن يكن من السهل تنفيذها بنجاح دون إحداث تغيير شامل فى طريقة الحياة لدى المواطن العربى وبصورة خاصة إدخال عنصر الانضباط فى السلوك الفردى والجماعى. . الانضباط معناه أن نخضع فى تصرفاتنا لقواعد نظامية نعرفها سلفاً وتحظى باحترامنا وقناعتنا، وأن تسرى هذه القواعد على الجميع. . وواضح أن ذلك ليس بالأمر الذى يتحقق فجأة وبالأساليب التقليدية. فقد وصلنا إلى مرحلة من التسيب لا يرجى معها

تحقيق الانضباط السلوكى بغير انتشار إيدلوچية شاملة تبدأ بالانضباط الذاتى الذى ينعكس بعد ذلك على تصرفاتنا الخارجية. هكذا حقق العرب نهضتهم الأولى حين حولهم الإسلام بنظامه الصارم، من مجموعات غير منضبطة إلى أمة من أكثر الأمم الملتزمة فى التاريخ، غير أن التعاليم الصارمة للإسلام التى جعلت من البدو صناع حضارة عظمى، تحولت مع الوقت إلى ممارسات شكلية يندر أن تعبر عن مضمون حقيقى. وضاع جوهر العقيدة لدى العامة فأصبح العربى المسلم من أكثر الناس استهتاراً فى عمله بل وفى حياته الخاصة وإن التزم الصلاة خمس مرات كل يوم والصوم شهراً كل سنة!..».

انتقل الكاتب بعد ذلك إلى السياسة السكانية التى يرى أنها تحتاج إلى تخطيط للتحكم فى تكاثر السكان فى بعض البلاد العربية المكتظة بالسكان مع إعادة توزيع المناطق السكنية بالتدريج وفقاً لأسس مدروسة. انتقد الكاتب نظام التعليم فى العالم العربى: « يعكس الوضع التعليمى فى العالم العربى حقائق مؤسفة كثيرة، فمازالت الأغلبية من العرب تجهل القراءة والكتابة.. والتعليم الرسمى الذى ينتشر بسرعة نسبية يحل محل التدريب الذى كان يتلقاه أبناء الزراع وأبناء الحرفيين عن أبائهم». اقترح الكاتب مشروع عربى مشترك لتمويل التعليم العالى والتكنولوچيا، من أجل اللحاق بالعالم المتطور تكنولوچيا، مع الاهتمام بالبحوث فى المعاهد الأكاديمية.

إذا كنا نادى بالحرية والديمقراطية، فلا يستطيع فرد يعيش فى مجتمع أن يكون وحدة نموذج لحضارة مأمولة. النموذج ينبع من المجموع فى مناخ من الحرية والديمقراطية، والعدل، والمساواة. الإطار العام لا يختلف عليه الكثير، فلا اعتقد أن الإنسان لايريد حضارة يسودها الحرية والديمقراطية، والحب، والتكافل، والتعاون،.. إلى آخره من أخلاقيات طيبة وسلوك حميد يتفق عليها الجميع ولكن بدرجات متفاوتة من الشدة إلى اللين، أو من القوة إلى الضعف. أن تفسير الشدة واللين أو القوة والضعف نسبى يتغير من إنسان لآخر. فإلى أى حد يكون التكافل والتراحم، هل نتقاسم الثروة أو نعطى بقدر، وما هو مقدار هذا القدر. التحديد يتم من خلال طرح أفكار ومناقشتها للوصول إلى قرارات ديمقراطية آخذاً فى الحسبان أراء الأقلية.

لا ذنب للمعاق بدنياً أو عقلياً أنه ولد بعاهته، وليس ذنب الفقير أنه ورث الفقر، قد يتسبب الإنسان بتفكيره الخاطئ أو السيء المنحرف فى إهدار صحته أو كمال بدنه، أو فقد ماله، ولكن يجيء القدر أيضاً كعامل هام فى تغير سلوك البشر، وتجيء الوراثة أيضاً لتحديد مسيرة الإنسان، أنها الحتمية الكاملة أو الجزئية التى يعيشها الإنسان فى نظام بشرى قائم على الاختلاف والتباين، وعلى الصراع والسعادة. الإنسان هو جزء من منظومة كونية حتم عليه أن يعيش فيها بالصراع ، والألم ، والسعادة، وحب البقاء من أجل التطوير والتغير. ويأتى الدين كأعظم هدية للإنسان للتخفيف عن كاهله متاعب وصعوبات الحياة وموروثات لم يكن له يد فيها، وذلك من خلال التكافل والتعاون، والصبر على الحرمان ، ليلتمس كلا من الكامل والمعاق، الغنى والفقير ثواب الآخرة، الكامل والغنى إذا أعطا، والمعاق والفقير إذا صبرا.

إذا كان بعض الناس قد ورثوا الحرمان أو النقصان ، فالإنسان باختياره يمكنه التخفيف من هذا النقص أو هذا الحرمان، عقائدياً بالتكافل والزكاة، واقتصادياً بالضرائب المتصاعدة والدعم، وإنسانياً بالحب والرحمة. قد يتغير مفهوم قسوة الحياة فى حرمان البعض، ولكن سوف نتبصر مفهوم القسوة إذا نظرنا إلى التباين والاختلاف فى كونهما نظام كونى قدرى يجب أن نتعايش فيه وبه، شأنا أو لم نشأ، فالزمان يسير فى دالة متصلة من بداية الخلق إلى نهايته فى منظومة قائمة على التغير المستمر والمتواصل.

من الخطأ وضع نموذج ثابت - استاتيكى - لحضارة مأمولة فى مستقبل مجهول. ان العوامل التى تؤثر فى النموذج عديدة ومتنوعة ، يمكن للمخطط التحكم إلى حد ما فى عدد منها ولكن يظل الكثير من الذى لا يمكن أن نتحكم فيه لكونه صادر من قوى واتجاهات خارجية قد تتماشى مصالحها مع حضارتنا المأمولة، أو تتنافس فتتولد القوى المعاكسة. كل ما يستطيعه خبراء استراتيجيات المستقبل هو وضع أطر لنموذج مرن يمتص التغير ويتفاعل معه لإفراز أفضل ناتج ممكن. لا يختلف البشر على الأطر العامة، فنادراً ما ينادى أحد بالديكتاتورية والاستبداد

والطغيان، حتى من يمارسون هذه النظم غالباً ما يتغنون بالحرية، والديمقراطية، والعدل، والمساواة، والأخلاق، والضمير، إلى آخره من شعارات لا تطبق، وسياسات لا تنفذ. من ضمن التقسيمات الكثيرة التى وضعها علماء النفس والاجتماع، الشخصية الوصفية أو التصويرية (Descriptive) وهى شخصية تتكلم كثيراً وتحلل وتصف وتزين وتنمق دون فعل أو عمل، وعلى النقيض تجىء الشخصية التنفيذية (Executive) التى تنفذ وتنتج، وتتعاظم الشخصية السوية بالدراسة والتحليل أولاً ثم التنفيذ الدقيق ثانياً، ثم يأتى دور المتابعة وتقييم التنفيذ بعد ذلك. ان التنفيذ المخطط والمدروس عملية شاقة تستهلك الكثير من المجهود الذهنى، وكثيراً ما يتراخى الشعب الكسول المثبط الهمة فى السير فى طريق العمل الذهنى والتنفيذى ويتحول إلى شخصية وصفية فقط، فلا ينتشله من مستنقع الأحباط واليأس إلا قائد متحمس، ذكى ومخلص لشعبه.

الحضارة الجديدة التى نود أن تقوم، تبدأ بثورة الإنسان على نفسه، ثورة العقل على التخلف والأساطير، والكبت والقيود، نزعة راديكالية لا تعنى - كما كتب انطونى جيدنز - فقط مجرد أحداث مطلوب تغييرها، بل وأيضاً ضبط هذا التغير والتحكم فيه. ومن خلال تناثر الآراء، واختلاف الأفكار الثورية تظهر طبقة من المثقفين ذوى العقول المتفتحة، الحالمين بمستقبل مشرق، وحضارة ناهضة واعدة جديدة. يختار من هذه الطبقة فئة قليلة من أصحاب إنكار الذات، العاملين فقط من أجل المجموع، فى مناخ من الشفافية والصراحة، ويبدأ العمل الشاق من قيادة وعمل للوصول إلى الأهداف المدروسة والموضوعية مسبقاً، ومن خلال منظومات حديثة تلائم ثقافات شعوبنا وتتواكب مع الثقافات الأخرى، يبدأ العمل من أجل بناء ثقافة جديدة تتماشى مع التغيرات المنتظر حدوثها فى المستقبل، ثقافة تفوق تطورا ورقياً الثقافات الشائعة على كوكب الأرض.

كتب الدكتور فؤاد زكريا فى المرجع السابق ذكره: « فما أسهل أن يقال، مثلا، إن ما ينقصنا، من أجل علاج مشاكلنا الراهنة، هو ذلك الإيمان المتوقد الذى أتاح للمسلمين الأوائل أن يهزموا أعظم أمم الأرض وأضخم أمبراطورياتها. ولكن

الواقع يشهد بأن هذا الإيمان المتوقد لابد أن يكمله اقتصاد قوى، ويسنده علم متقدم، وتدعمه تكنولوچيا راقية، ويحافظ عليه نظام سياسى متين».

تمثل الصناعات الحديثة القائمة على المعرفة التكنولوچيا المتقدمة عنصراً هاماً فى ميزان القوى العسكرية وفى الإضافة الكبيرة فى القيمة المضافة (Value Added) للنظام الاقتصادى. ان تكلفة المواد الخام من حديد وألمونيوم ونحاس، وخلافه واللازمة لتصنيع الطائرة أو الدبابة أو المصنع أو محطة القوى الكهربية أو الآلات التامة التصنيع تمثل نسبة ضئيلة من التكلفة الكلية، فالنسبة الأكبر تخصص للمعرفة (Know- How) فتكلفة تشغيل العقل فى التكنولوچيا الحديثة لها ثمن عالى جداً. ان بداية الخروج من صوبة التخلف هى تغير الإنسان الكامن داخل الصوبة، ليتعلم العقل كيف يثور ويبحث ليجد طريقاً للخروج من صوبة ظل بها مغموراً ومحبوساً سنوات طويلة. البداية الثورة والتمرد على السكون، ثم تطوير السلوك المتخلف وسط عالم لا يرحم سيء السلوك، الضعيف البنية: الاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والنفسية.

ان النظام البشرى قائم على الصراع، فمن يملك استخدام العقل الاستخدام الأمثل يمتلك مكونات القوة التى تمكنه على تبوء مكانة متقدمة فى النظام الدولى. تتمثل القوة فى العصر الحالى فى أربعة محاور رئيسية :

المحور الأول : وجود تكنولوچيا متطورة وعالية التقنية (High Technology) للوصول إلى اقتصادى قوى وناتج قومى مرتفع، قادر على تحمل تبعيات الصراع.

المحور الثانى : العنصر المادى من خامات، وطاقة، وأيدى عاملة، وبنية أساسية يعول عليها خلال فترات الصراع.

المحور الثالث : المعرفة والمعلومات فى جميع المحاور المتعلقة بالصراع.

المحور الرابع : الإرادة الشعبية والتى تعتبر الدرع النفسى الذى يحمى الأمة من الانهيار الداخلى، والدافع لمواصلة الصراع. عرفت بعض الكتب الإرادة بأنها الطاقة

الحيوية التى تدفع الإنسان للوصول إلى ما يصبو إليه ويتمناه، متغلباً على الصعوبات والمقومات الخارجية والداخلية.

يبدأ تحقيق هدف الوصول إلى حضارة ثقافية مميزة بالتربية، هذه العملية المستمرة بدون انقطاع من الولادة حتى الموت. قد تتفاوت جرعة التعليم حسب قدرات الفرد أو حسب العمر ولكن فى النهاية هى عملية يتعلم من خلالها الفرد أساليب ثقافته «من سلوك وقيم وعادات وعقائد، . . ، ومهن وحرف وتكنولوجيا، . .)، ويكتسب شخصيته الخاصة به، وكيفية التعامل مع الآخرين فى المجتمع للوصول إلى التكامل والتوفيق بين رغباته ومثله العليا، وبين القيم السائدة فى المجتمع. إذا فالإنسان يكتسب ثقافته / سلوكه من المجتمع المحيط ليكون شخصية مميزة عن الآخرين وتؤثر أيضاً فيهم. وعليه يكون الخروج من النمط الثقافى السائد فى المجتمع عملية صعبة وتحتاج إلى زمن طويل لإحداث التغير. تتمثل صعوبة عملية التغير فى قلة عدد التربويين أو المثقفين الذين سيحملوا على كاهلهم تغير ثقافة المجتمع. فالمطلوب رواد ذوى ثقافة حضارية راقية لديهم الجرأة وقوة التحمل والرغبة فى بذل أقصى مجهود - دون انتظار للعائد المادى - فى سبيل تحقيق هدف تغير وتطوير ثقافة المجتمع الذى يعيشون فيه إلى الأفضل . تتصاعد صعوبة المسألة إذا كان المجتمع المطلوب تغيره له جذور عميقة فى ثقافة متدنية خانعة، ويعيش تحت حكم غير ديمقراطى تحكمه نخبة تقاوم أى تغير. إذاً لتسهيل عملية التغير لابد من ثورة للعقل تبدأ من شرارة الرواد تنتشر بسرعة رياح الحاجة إلى التغير، وتغذى من الكبت والضغط الاقتصادى والنفسى الذى يعانى منه المجتمع المراد تغيره.

سيحتاج التغير عدة أجيال من بداية ثورة العقل، فالجيل الأول سيعاصر مقاومة الجيل المتشدد، المتصدى للتغير. أيضاً ستواجه ثورة العقل أصحاب المصالح فى بقاء الوضع كما هو عليه. سوف يتأثر الجيل الأول بتيارين متضادين أحدهما ثائر على القديم ينشد الإصلاح والتقدم، والآخر متشبث بثقافة الجمود والتخلف. سيكون صراع الجيل الثانى أخف وطئاً إذا انتصر تيار ثورة العقل، ليبدأ الجيل الثالث فى

التطوير والتحسين برؤية وثقافة جديدة. بعد تطوير النظم الدستورية والتشريعية، لضمان عدم الاعتداء على حرية الفرد والنظام الديمقراطى، ستبدأ الأجيال القادمة فى إدراك خطورة مشكلة تزايد السكان، ومشكلة تلوث البيئة (سمعى - بصرى - غازات تؤثر سلبياً على صحة الإنسان .. إلخ). ستسعى أجيال المستقبل لاندلاع ثورات تابعة لثورة العقل مثل ثورة فى التعليم، وفى سياسة الإسراف الاستهلاكى الذى يؤثر سلبياً على البيئة ويعجل بنضوب موارد كوكب الأرض. يبدأ التطوير فى نظم التربية والتعليم من البيت من خلال أسرة تحرص على بذر السلوك الطيب والأخلاق الحميدة والقيم الراقية وطريقة التفكير السليم والعقلانى، والحد من الإسراف المبدد لطاقتنا وأموالنا ، ويستمر التعليم والتحديث فى المدرسة ثم الجامعات وفى المعاهد البحثية، وفى العمل، بحيث يتكامل الجميع فى منظومة مترابطة ومتناسقة ، أى منظومة متناغمة.

القومية العربية :

تعتبر القومية العربية حتى الآن مجرد قومية للشعب العربى، ولكنها لا تمثل بعد مصالح ومطامع أمة عربية لها وجود. تكونت القومية العربية كصورة ذهنية بعد نشوء الإمبراطورية العربية / الإسلامية فى القرن السابع الميلادى، ثم كفكرة بعد ذلك كلما تعرضت هذه الأمبراطورية - التى انقضى عهدها - للنوائب والغزو الخارجى مثل الحروب الصليبية ، وغزوات التتار، والغزو العثمانى ، والغزو الأوروبى فى القرن التاسع عشر ، ثم أخيراً مع احداث انشاء دولة إسرائيل والحرب العربية / الإسرائيلية، ولكن لم تتحول القومية العربية أبداً وحتى الآن إلى حركة مؤثرة، حتى فى الفترة الناصرية (الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين).

لم يكن الزعماء العرب فى الحقيقة يريدون إنشاء دولة عربية موحدة ، ولكنهم كانوا يتطلعون إما إلى تقوية الكيان العربى، أو كسب مصالح شخصية وشعبية. لم تتمكن الحركة القومية العربية على مر العصور من تحويل الشعوب العربية إلى أمة عربية واحدة بالرغم من طمع أطراف أجنبية عديدة فى ثرواتها ، بل على العكس

فقد حدث الكثير من التقسيم والانفصال لدول عربية كانت قائمة وموحدة، أو لشعوب كانت تعتبر نفسها دولة واحدة. لقد استطاع زعماء اليهود تجميع يهود الشتات المتناثرين وسط شعوب مختلفة الثقافة والدين واللغة، فى دولة قومية واحدة وهى إسرائيل، واستطاع الألمان توحيد شطرية، كما استطاعت معظم دول أوروبا الغربية فى إيجاد كيان واحد لدولها ، بينما فشلت القومية العربية على مدى نحو ألف وثلاثمائة عاماً فى إنشاء دولة عربية واحدة. لقد وجد نوع من الاتحاد فى أثناء حكم الدولة الأموية والعباسية وغيرها من الدول الإسلامية ولكنها لم تصل إلى إنشاء دولة عربية واحدة.

مرت الدول العربية حديثاً بتجارب فاشلة فى مجال الوحدة، فقد اختار السودانيون فى عام ١٩٥٦ أن يكون السودان دولة مستقلة فى استفتاء عام، وبذلك انتهت وحدة وادى النيل. أما الوحدة الثانية التى انتهت بالفشل فهى وحدة مصر وسوريا التى ولدت عام ١٩٥٨ وتوفيت عام ١٩٦١ . حاولت بعض الدول العربية فى العقد الأخير من القرن العشرين قيام بعض الوحدات فى دول المغرب العربى ولكنها باءت بالفشل. مرت الدول العربية أيضاً بتجارب ناجحة فى هذا المجال، منها تجربة الإمارات التى وحدت سبع إمارات وهى: أبو ظبى، ودبى، والشارقة، وعجمان وأم القوين والفجيرة ورأس الخيمة، فى دولة واحدة عام ١٩٧١ . أما التجربة الناجحة الأخرى فهى توحيد اليمن بشطريه الجنوبى والشمالى. إذا كانت الدول الأوروبية قد توحدت فى كيان واحد - عكس الدول العربية - بالرغم من وجود لغات مختلفة ، وأنظمة سياسية مختلفة من جمهورى وملكى مثل ما هو كائن فى البلاد العربية ، إلا أن الدول الأوروبية الغربية يحميها نظام ديمقراطى واحد تجعل من الشعوب هى صاحبة القرار.

هل من الممكن قيام قومية عربية ممثلة فى دولة عربية موحدة؟ احتمالياً نعم من الممكن، ولكن الاحتمال الضعيف فى المدى القصير، وذلك للأسباب التالية:

١ – عدم وجود نظم سياسية قائمة على الديمقراطية ، وحرية الفكر ، فى معظم الدول العربية. لكى تتحول فكرة القومية العربية إلى فعل، يجب أن تكون النظم السياسية متقاربة فى البلاد العربية. ان المفكرين والزعماء غير الرسميين لهم دور هام فى قيام مثل هذا الكيان العربى الموحد، والمناخ السياسى لا يسمح فى الوقت الحاضر أو المستقبل القريب بقيام الثورات الفكرية، الخالصة النيات، النائية عن النفاق والرياء للحكام ، البعيدة عن المصالح الشخصية وجنى الثروات. عندما لا ندفن رؤوسنا فى رمال وهم أن الوضع الحالى هو أفضل الأوضاع، وعندما تتغير النظم السياسية القائمة على الرأى الواحد وأن من لا يتجاوب ويتماشى مع أرائنا فهو ضدنا (وليس منا) وضد مصلحة البلاد، وعندما يتقبل الحاكم والمحكوم رأى الأغلبية ومراعاة الأقلية، فسوف تتغير الثقافة السياسية بما يسمح بقيام ديمقراطية حقيقية.

٢ – وجود تفاوت اقتصادى بين الدول العربية ناتج من توافر المنتجات البترولية فى بعض الدول العربية. يجب أن تختفى الفروق الكبيرة لدخول الشعوب العربية المختلفة، حتى لا يحقد الفقير على الغنى فيحاول اغتياله أو شن الحرب عليه، وحتى لا يتعالى الغنى على الفقير، أو يحمى نفسه بقوة السلاح حتى لو أدى الأمر الاستعانة بجهات أجنبية لحمايته. لن يحدث ذوبان للفروق الملموسة فى الدخل القومى إلا بعد نضوب المنتجات البترولية، أو انخفاض أسعارها.

٣ – الصراع القائم بين المذاهب الدينية: إسلامية/ إسلامية، إسلامية/ مسيحية، وأيضاً الصراع بين القوميات المختلفة. من حق كل فرد أو جماعة أن تكون لها عقيدتها الخاصة وأرائها المختلفة. يجب أن تعى جميع الأطراف ان اختلاف العقيدة أو الأفكار أو الأيدولوچية لا يعنى أن الآخرين لا يعملون لمصلحة الوطن، أو غير مخلصين لإنشاء الدولة العربية الموحدة . يجب أن يعرف كل طرف دوره دون الاتهام بالخيانة والعمالة، أو بالكفر والإلحاد.

فى العلاقة ما بين العروبة والإسلام كدين وبين القومية العربية، كتب الفرنسى فرانسوا بورجا فى كتابه (الإسلام السياسى) :« فى البدء كانت العروبة، ومع أن

العروبة خرجت من أحضان الإسلام الذى كان أول من جمع القبائل والمدن المتناثرة وسمح لها بتكوين امبراطورية فى العصور الذهبية، فهذا لا يمنع أن العروبة - عندما أصبحت القومية العربية - بدأت تبتعد شيئاً فشيئاً عن إطارها المرجعى الدينى، ويرجع ذلك قبل كل شيء إلى استخدامها فى التعبئة ضد السيطرة العثمانية - أى ضد سيطرة دينية - ثم يرجع أيضاً إلى مدى مشاركة الصفوة المسيحية فيها. وعادت العروبة إلى الساحة مع اليسار العربى فى نهاية النصف الأول من هذا القرن - القرن العشرين - وقد ساعد على بلورتها نشأة الدولة الصهيونية والأهمية المتزايدة للمسألة الفلسطينية فارتفعت العروبة - التى تزايد تلونها بالصبغة الاشتراكية وخاصة من طرف مؤسسى حزب البعث - إلى مستوى خطاب الدولة بفضل جمال عبدالناصر قبل أن يؤكد جوهريتها القصوى ووصول حزب البعث السورى إلى السلطة » . كما شرح الكاتب فى نفس المرجع انحسار الدعوة إلى القومية العربية مع تزايد تأثير الإسلام السياسى، أى أن الدعوة إلى كيان إسلامى موحد هو البديل عن القومية العربية من وجهة نظر الكاتب.

كما تفتت الكيان الشعبى فى أمم صغيرة ، وممالك وإمارات، كلما أمكن استغلال ثروات هذا الكيان لمصلحة فئة قليلة. لقد استغلت القوى الخارجية فى النصف الأول من القرن العشرين نقاط ضعف كياننا العربى وساعدت على تجزئة هذا الكيان ، وعزفت على أوتار التعددية القبلية والقومية والدينية. كتب لطفى الخولى مقدمة فى كتاب (عرب؟ نعم. وشرق أوسطيون أيضاً): « اللافت للانتباه أن تحول العروبة أو القومية، كما نعيشها اليوم فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين ، إلى قوة تمزيق لا وحدة، وعامل ضعف لا قوة، يأتى مواكباً لأحداث جسام من حولنا سواء على مستوى الوضع العالمى أو الوضع الإقليمى. بالنسبة للوضع العالمى، نلحظ تعاظم الاتجاه نحو الكتل السوقية الكبيرة العابرة للدول. نلمس ذلك فى الاتحاد الأوروبى ، وفى كيان النافت - الذى يضم الولايات المتحدة وكندا والمكسيك ، وفى مجموعة الأسيان التى تحتضن ما يسمى بالنمور الصغيرة فى آسيا، بمعنى أن هذه الدول، الداخلة فى تكتلات اقتصادية - اجتماعية ضخمة، تتجه على الرغم من

تقدمها الذاتى الذى حققته - نحو التجمع، إن لم يكن التوحد فى بنى اقتصادية - اجتماعية منسقة ، أكثر قوة وأكثر تنوعاً وأكثر اتساعاً. ذلك أن احتياجات مواطنيها تتزايد ونفقات الإنتاج التكنولوچية تتزايد أيضاً. وهى تدرك أن قوتها الذاتية بسوقها الوطنية المحدودة، لن تتمكن - وحدها - فى عالم القرن الواحد والعشرين أن تغطى هذه الاحتياجات المتصاعدة».

عندما يشعر المرء بفخر الانتماء للوطن العربى الذى يعيش فيه، ويعمل بتفاؤل فى مناخ من الحرية والديمقراطية ، ومن الشفافية والصراحة والأمان، من خلال رؤية مستقبلية واضحة المعالم، نستطيع القول بأننا قد مهدنا الطريق للسير فى طريق الحضارة العربية المطلوبة بعد أن أزلنا معوقات التحرر والعطاء. إذا كانت المسيرة تبدأ بثورة العقل فإنها لا تنتهى بالوصول إلى الأهداف ، فأهداف الأمة - دائماً متواصلة ومستمرة فى مستقبل لن ينتهى إلا إذا شاء الله.

خاتمة

الإنسان الكائن الحى الذى جمعته وشكلته جيناته ، فهى المسئولة عن الشكل والهيئة التى هو عليها، وعلى جزء قد يصل إلى النصف من قدرته العقلية أى ذكائه وذاكرته، وعن لون بشرته ولون عينيه، وعن حد ما أو نسبة عالية عن سلوكه وتصرفاته، وعن كثير من أمراضه وجزء من عجزه. يكمل الجزء المتبقى مما سبق ذكره تأثير البيئة من مجتمع محيط، بثقافته وحضارته، ونظم تربية وتعليم، وطبيعة ديناميكية دائمة الحركة والتغير. الإنسان هو حصيلة تفاعل عوامل وأسباب كثيرة تقرب من اللانهاية ، هو دالة عناصر بدأت مع خلق الكون، تشكلت وتغيرت ومستمرة فى التغير ، تتأثر وتؤثر فى منظمة لا يستطيع قدرات الكائن البشرى أن يدركها.

إذا كان الإنسان يؤمن بالإرادة الحرة، فله الحرية بأن ينادى بالإرادة الحرة ويدعو إلى الحرية. وان كان الإنسان يؤمن بالحتمية ، فمن المحتم على من ينادى بالحرية أن يدعو لها، وفى الحالتين يوجد من يؤمن بالحرية، كما يوجد الخاضع للغير الذى يهرب من مسئولية الحرية المرهقة، إلى راحة الخنوع والاستسلام.

إذا كان النظام الكونى قائم على الاختلاف والتضاد وبالتالى على صراع التضاد وصراع الاختلاف والتباين، فإن الحرية/ الديمقراطية مجال خصب للصراع السلمى. الصراع لن ينتهى إلا بنهاية الكون أو تغير جينات الإنسان للاستسلام للمفروض عليه، أى تحويل الكائن الحى إلى آلة بلا شعور أو إحساس، تعمل بالتحكم عن بعد أو عن قرب، فتنتهى أكثر منظومة الكون إثارة، من بهجة وتعاسة، وسعادة وشقاء، وخصام ووئام، ومحبة وعداء.

أن أمتع اللحظات التى يمر بها الإنسان هى الراحة بعد الإنجاز الإيجابى. يبدأ الإنجاز بفكرة ثم تحليل ودراسة وتخطيط من العقل ، ثم أداء عملى من الجسد بأعضائه المختلفة، للسمع والقراءة والكلام والحركة. إن من أجمل الإنجازات هو

تحرير العقل من موروثات عتيقة طغت عليه وحجبت عنه نور التطلع والتقدم، من أرقى الإنجازات هى الحرية والديمقراطية التى غابت عنا أو لم تشرق فينا بعد، ومن أفضل الثقافات هى السلوك الطيب والأخلاق والعادات الحميدة. الأخلاق تعنى مجموعة القيم والمثل العليا التى تحكم سلوك الفرد، والتى عندما تصبح سلوكاً عاماً للجماعة أو لمعظم أفراد المجتمع تصبح الطابع المميز لحضارة هذا المجتمع.

ان هدف الحضارة التى يجب أن نسعى إليها هو نشر السعادة التى يدعمها أمن العقل بحصوله على حرية الفكر والتعبير، وأمن الجسد، وتفادى الألم، والقضاء على العنف بجميع أشكاله، وكذلك احترام الذات الفردية. ان حقوق الفرد فى أى علاقة بينه وبين الآخرين تحدد استقلاله الذاتى ولكن لا تحدد التزاماته نحو الآخرين. أما الالتزام فهى عملية أخلاقية تهدمها اللامبالاة وتقبرها الفوضى والعبث بمصالح الآخرين.

إن أحداث الحياة لا تسبب السعادة، ولكن السعادة هى إحساس داخلى بالقناعة والرضا النفسى عن أية أحداث يتعرض لها الإنسان، أكانت هذه الأحداث داخلية مثل المرض ، أو أحداث خارجية ناشئة عن تحديات الحياة، أو مصائب أو كوارث. فى مجتمع الرفاهية الذى نتطلع إليه، وبعد الأمان العقلى والجسدى، وإشباع الحاجات الأساسية، وتحقيق الذات «بمعنى الرضا النفسى عما يفعله الفرد، واستثمار طاقاته النفسية من أجل الذات الفردية ومن أجل المجموع»، يجب أن يتعلم الفرد عن طريق ثقافة الصحة النفسية البعد عن القلق والتوتر، ليطور نفسه ومجتمعه، قادراً على مجابهة التحديات والمخاطر.

للسعادة أعداء كثيرة من كراهية، ويأس، وتواكل، وانهيار أخلاقى، والعيش فى ماضى أليم. ان النظام والالتزام واجب للقضاء على النمط الفوضوى للحياة. وجود الهدف النبيل الخلاق عامل هام ورئيسى من أجل أن يكون للحياة معنى وأثاره فى مسيرة تحقيقه. لتحقيق الحضارة المأمولة يمكن أن نتخذ من الأبعاد السبعة التالية أهدافاً عامة نسعى لتحقيقها:

- القضاء على تخلف النظم الاجتماعية ، والثقافية، والسياسية، والإدارية، والاقتصادية.

- مكافحة المرض، والفقر، والفروق الكبيرة بين الأفراد، لتفادى الأحقاد والثورات.

- التطبيق العادل والشامل للقيم الأخلاقية، وللحرية وللديمقراطية.

- الحد من أسلوب القوة والعنف، مع نشر أسلوب الإقناع والمجادلة السلمية.

- الحفاظ على البيئة وإثرائها.

- التخطيط للمستقبل للوصول إلى مجتمع الرفاهية.

- تفعيل وتأكيد الذات الفردية، مع الاحتفاظ بحق المجتمع ككل فى جميع نواحى الحياة من خلال التفاعل والتناغم الإيجابى بين الفرد والمجتمع لتعم السعادة على الجميع.

الحلم . . يجب ألا يخبو، والهدف لابد أن يتجدد ويستمر إلى مالانهاية. حتى بعد تحقيق ما نصبو إليه وتحقيق الهدف وتحويل الحلم إلى حقيقة، نتطلع إلى أهداف أخرى، فالنهاية تعنى البؤس والكآبة والسير وحيداً بلا معنى فى مفازة جرداء لا نهاية لها. روح الكفاح والمثابرة يجب ألا تنطفئ ، نغذيها بالأمل لتحقيق الحلم من خلال العمل الشاق والنضال والبعد عن روح الفردية من أجل الوصول إلى الهدف. الانتماء لأمتنا وحضارتنا المأمولة واجب فى هذا العصر العصيب بالنسبة لنا نحن الأمة التى تراخت فى تحقيق الحرية والديمقراطية ، وحضارة سلوكية وأخلاقية. من أجل أجيال جديدة هى أولادنا وأحفادنا . . بثورة العقل نبدأ المسيرة.

المراجـع

١ - (هذا هو علم البيولوچيا - دراسة فى ماهية الحياة والأحياء) - إرنست ماير - ترجمة د. عفيفى محمود عفيفى - عالم المعرفة - الكويت - يناير ٢٠٠٢.

٢ - (بعيدا عن اليسار واليمين - مستقبل السياسات الراديكالية) - انطونى جيدنز - ترجمة شوقى جلال - عالم المعرفة - الكويت - أكتوبر ٢٠٠٢.

٣ - (المخ البشرى - مدخل إلى دراسة السيكولوچيا والسلوك) - كرستين تمبل - ترجمة د. عاطف أحمد - عالم المعرفة - الكويت - نوفمبر ٢٠٠٢.

٤ - (استنساخ الإنسان - الحقائق والأوهام) - مارتاسى نسبوم وكاس سانشتين - ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٢.

٥ - (صدمة الديموقراطية) - صلاح الدين حافظ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠١.

٦ - (الإسلام السياسى - صوت الجنوب) - فرانسوا بورجا - ترجمة د. لورين ذكرى - دار العالم الثالث - ٢٠٠١.

٧ - (ملاحظات نحو تعريف الثقافة) - ت.س.إليوت - ترجمة د. شكرى محمد عياد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠١.

٨ - (الجينوم - السيرة الذاتية للنوع البشرى) - مات ريدلى - ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمى - عالم المعرفة - الكويت - نوفمبر ٢٠٠١.

٩ - (مقالة - النهوض من الهزيمة فى مسألة التخلف) - د. سليمان إبراهيم العسكرى - العربى - الكويت - عدد أغسطس ٢٠٠١.

١٠- (فجر الضمير) - جيمس هنرى برستيد - ترجمة د. سليم حسن - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠١.

١١- (العالم من منظور عربى) د. عبدالوهاب المسيرى - دار الهلال - ٢٠٠١.

١٢- (نهاية اليوتوبيا) - راسل جاكوبى - ترجمة فاروق عبدالقادر - عالم المعرفة - الكويت - مايو ٢٠٠١.

١٣- (قدر الإنسان بين الصراع والسعادة) - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠١.

١٤- (الجذور التاريخية للصراع العربى الإسرائيلى) - دكتور محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠١.

١٥- (الكون - بداية .. نهاية) - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠١.

١٦-(يوتوبيا) توماس مور - ترجمة د. إنجيل بطرس - الهيئة المصرية العامة للكتاب- ٢٠٠٠.

١٧- (معارك فى سبيل الإله - الأصولية فى اليهودية والمسيحية والإسلام) - كارين آرمسترونج - ترجمة د. فاطمة نصر ، ود. محمد عنانى - كتاب سطور- ٢٠٠٠.

١٨- (عقل جديد لعالم جديد) - روبرت أورنشتاين وبول إيرليش - ترجمة د. أحمد مستجير - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٠.
١٩- (تلوث البيئة - السلوكيات الخاطئة وكيفية مواجهتها) - د. حسن أحمد شحاتة- مكتبة الدار العربية للكتاب - ٢٠٠٠.
٢٠- (التلوث الضوضائى وإعاقة التنمية) - د. حسن أحمد شحاتة - مكتبة الدار العربية للكتاب - ٢٠٠٠.
٢١- (العقد الاجتماعى) - جان جاك روسو - ترجمة عبدالكريم أحمد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٠.
٢٢- (علم النفس - فلسفته وحاضره ومستقبله ككيان اجتماعى) - د. مصطفى سويف - الدار المصرية اللبنانية - ٢٠٠٠.
٢٣- (النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس) - إيان كريب - ترجمة د. محمد حسين غلوم، د. محمد عصفور - عالم المعرفة - الكويت - إبريل ١٩٩٩.
٢٤- (موجز تاريخ العالم) - هـ ج.ويلز- ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٩.
٢٥- (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية) - عبدالوهاب محمد المسيرى - دار الشروق - ١٩٩٩.
٢٦- (مفهوم الحرية فى الليبرالية المعاصرة) - د. ياسر قنصوة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٩.
٢٧- (بحثا عن عالم أفضل) - كارل بوبر - ترجمة د. أحمد مستجير - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٩.
٢٨- (ملاك الحقيقة المطلقة) - مراد وهبة - المؤسسة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٩.
٢٩- (الحضارة - دراسة أصول وعوامل قيامها وتطورها) - د. حسين مؤنس - عالم المعرفة - سبتمبر ١٩٩٨.
٣٠- (فخ العولمة - الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية) - هانس بيتر مارتين وهارالد شومان - ترجمة د. عدنان عباس على - عالم المعرفة - الكويت - أكتوبر ١٩٩٨.
٣١- (صدام الحضارات - إعادة صنع النظام العالمى) - صامويل هنتنجتون - ترجمة- طلعت الشايب - سطور - ١٩٩٨.
٣٢- (هوية مصر) - د. محمد نعمان جلال ود. مجدى المتولى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٧.
٣٣- (تقدم الإنسانية) - جوردون تشيلد - ترجمة محمد السيد غلاب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٧.

٣٤- (الطاغية - دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى) - د. إمام عبدالفتاح- عالم المعرفة - مارس ١٩٩٧.
٣٥- (الحسرية) - جون ستيورات مل - ترجمة طه السباعى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٦.
٣٦- (كتب غيرت الفكر الإنسانى - الجزء السادس) - أحمد محمد الشنوانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٦.
٣٧- (أسس الليبرالية السياسية) - جون ستيورات مل - ترجمة د. إمام عبدالفتاح إمام - مكتبة مدبولى - ١٩٩٦.
٣٨- (تحول السلطة) - الفين توفلر - ترجمة لبنى الريدى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٦.
٣٩- (الفكر الشرقى القديم) - جون كولر - ترجمة كامل يوسف حسين - عالم المعرفة - الكويت - يوليو ١٩٩٥.
٤٠- (أقليات فى خطر) - تيدرويرت جار - ترجمة مجدى عبدالحكيم وسامية الشامى - مكتبة مدبولى - ١٩٩٥.
٤١- (عرب؟ نعم. وشرق أوسطيون أيضاً) - لطفى الخولى - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ١٩٩٥.
٤٢- (حرية التعبير فى مجتمع مفتوح) - رودنى أ.سمللا - ترجمة كمال عبدالرؤوف - الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية - ١٩٩٥.
٤٣- (الفلسفة ما قبل عصر الفلسفة) - د. محمد عبدالرحمن مرحبا - مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٩٤.
٤٤- (معالم تاريخ الإنسانية) - هـ.ج.ولز - ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٤.
٤٥- (سماسرة الأفكار) - جيمس آلان سميث - ترجمة مجدى عبدالكريم - مكتبة مدبولى - ١٩٩٤.
٤٦- (الحضارة العربية) - جاك ريسلر - ترجمة خليل أحمد خليل - منشورات عويدات - بيروت - ١٩٩٣.
٤٧- (نهاية التاريخ وخاتم البشر) - فرانسيس فوكوياما - ترجمة حسين أحمد أمين- مركز الأهرام للترجمة والنشر - ١٩٩٣.
٤٨- (سيكولوچية السعادة) - مايكل أرجايل - ترجمة د. فيصل يونس - عالم المعرفة - الكويت - يوليو ١٩٩٣.

٤٩- (كتب غيرت الفكر الإنسانى - الجزء الثانى) - أحمد محمد الشنوانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٣.
٥٠- (موسوعة علم النفس والتحليل النفسى) - د. فرج عبدالقادر طه - دار سعاد الصباح - ١٩٩٣.
٥١- (المعتقدات الدينية لدى الشعوب) - جعفرى نارندر - ترجمة د. إمام عبدالفتاح إمام - عالم المعرفة - الكويت - مايو ١٩٩٣.
٥٢- (خروج العرب من التاريخ) - د. فوزى منصور - ترجمة ظريف عبدالله وكمال السيد - مكتبة مدبولى - ١٩٩٣.
٥٣- (علم النفس الاجتماعى) - وليم و. لامبرت وولاس أ. لامبرت- ترجمة د.سلوى الملا - دار الشروق - ١٩٩٣.
٥٤- (التحليل السياسى الحديث) - روبرت أ. دال- ترجمة د. علاء أبو زيد - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ١٩٩٣.
٥٥- (نحو الإصلاح الشامل) - د. إبراهيم شحاتة - دار سعاد الصباح - ١٩٩٣.
٥٦- (٢١ دولة لأمة عربية واحدة) - جان فرانسو نودينو - ترجمة د. خليل أحمد خليل - بيسان للنشر والتوزيع - بيروت - ١٩٩٣.
٥٧- (الفلسفة والفلاسفة فى الحضارة العربية) - الدكتور عبدالرحمن بدوى - دار المعارف للطباع والنشر - تونس - ١٩٩٣.
٥٨- (الحب والحرب والحضارة والموت) - سيجموند فرويد - ترجمة دكتور عبدالمنعم الحفنى - دار الرشاد - ١٩٩٢.
٥٩- (قصة الحضارة) - ول ديورانت - ترجمة زكى نجيب محفوظ - دار الجيل للطباعة والنشر - بيروت - ١٩٩٢.
٦٠-(الدولتان - السلطة والمجتمع فى الغرب وفى بلاد الإسلام) - برتران بادى- ترجمة لطيف فرج - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - ١٩٩٢.
٦١- (النظم السياسية) - دكتور عاصم أحمد عجيلة، ودكتور محمد رفعت عبدالوهاب - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - ١٩٩٢.
٦٢- (أنماط الاستيلاء على السلطة فى الدول العربية) - صلاح سالم زرتونه - مكتبة مدبولى - ١٩٩٢.
٦٣- (وصف مصر) - تأليف علماء الحملة الفرنسية - ترجمة زهير الشايب - دار الشايب للنشر - ١٩٩٢.
٦٤- (حضارة العرب فى صدر الإسلام) - الدكتور حسين الحاج حسن - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت - ١٩٩٢.

٦٥- (التحليل السياسى الحديث) - روبرت أ.دال - ترجمة د. علاء أبو زيد - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ١٩٩١.
٦٦- (الفلسفة وقضايا العصر) - جون بورر وميلتون جولد ينجر - ترجمة د. حمدى أحمد محمود - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٠.
٦٧- (الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل) - د. فؤاد زكريا - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - ١٩٨٩.
٦٨- (موجز تاريخ العالم) - مجموعة من المؤرخين السوفيت - ترجمة محمد عيتانى - دار الفارابى - بيروت - ١٩٨٩.
٦٩- (الفكر الأوروبى الحديث) - فرانكلين باومر - ترجمة د. أحمد حمدى محمود - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٩.
٧٠- (أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة) - انطونى دى كرسينى وكيديث مينوج - ترجمة د. نصار عبدالله - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٨.
٧١- (إدارة الصراعات الدولية - دراسة فى سياسات التعاون الدولى) - د. السيد عليوة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٨.
٧٢- (النظم السياسية فى العالم المعاصر) - الدكتورة سعاد الشرقاوى - دار النهضة العربية - ١٩٨٨.
٧٣- (العلم والاغتراب والحرية - مقال فى فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية) - د. يمنى طريف الخولى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٧.
٧٤- (موسوعة تاريخ الحضارات العام) - مجموعة كتاب فرنسيين - ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان - منشورات عويدات - بيروت - ١٩٨٦.
٧٥- (الشخصية الوطنية المصرية - قراءة جديدة لتاريخ مصر) - د. طاهر عبدالحكيم - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - ١٩٨٦.
٧٦- (الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة) - د. فؤاد زكريا - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - ١٩٨٦.
٧٧- (قصة الأنثروبولوجيا - فصول فى تاريخ علم الإنسان) - د. حسين فهيم - عالم المعرفة - الكويت - فبراير ١٩٨٦.
٧٨- (شخصية مصر) د. جمال حمدان - عالم الكتب - ١٩٨٤.
٧٩- (دراسات فى التنمية الاجتماعية) - د. السيد الحسينى، د. محمد على، د.علياء شكرى ، د. محمد الجوهرى - دار المعارف - ١٩٨٤.
٨١- (كم عمر الغضب؟) - د. فؤاد زكريا - دار القاهرة للنشر والتوزيع - ١٩٨٤.
٨٢- (شرعية السلطة فى العالم العربى) - أحمد بهاء الدين - دار الشروق - ١٩٨٤.

٨٣- (الأنثروبولوچيا - أسس نظرية وتطبيقات عملية) - د. محمد الجوهرى - دار المعارف - ١٩٨٣.
٨٤- (الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى - العقليون والذوقيون أو النظر والعمل) - الدكتور أحمد محمود صبحى - دار المعارف - ١٩٨٣.
٨٥- (فى الفلسفة الإسلامية - منهج وتطبيقه) - الدكتور إبراهيم مدكور- دار المعارف- ١٩٨٣.
٨٦- (علم النفس الفسيولوچى) - د. أحمد عكاشة - دار المعارف - ١٩٨٢.
٨٧- (التنمية والتخلف) - د. السيد الحسينى - دار المعارف - ١٩٨٢.
٨٨- النظام الاجتماعى العربى الجديد - دراسة عن الآثار الاجتماعية للثروة النفطية) - الدكتور سعد الدين إبراهيم - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - ١٩٨٢.
٨٩- (علم النفس الفردى - أصوله وتطبيقه) - د. اسحق رمزى - دار المعارف- ١٩٨١.
٩٠- (الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى) - د. مصطفى سويف - دار المعارف - ١٩٨١.
٩١- (الجماعات الضاغطة) - جان مينو - ترجمة بهيج شعبان - منشورات عويدات- بيروت - ١٩٨٠.
٩٢- (العقل والمعايير) - اندريه لالند - ترجمة د. نظمى لوقا - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٩.
٩٣- (التفكير العلمى) - د. فؤاد زكريا - عالم المعرفة - المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - الكويت - مارس ١٩٧٨.
٩٤- (العلم ومشكلات الإنسان المعاصر) - زهير الكومى -عالم المعرفة- الكويت- مايو ١٩٧٨.
٩٥- (الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلى والمفهوم العربى) - السيد يسين - مركز الدراسات السياسية والاستراتيچية - مطابع الأهرام - ١٩٧٤.
٩٦- (هيجل أو المثالية المطلقة) - الدكتور زكريا إبراهيم - مكتبة مصر - ١٩٧٠.
٩٧- (المنطق وفلسفة العلوم) - بول موى - ترجمة د. فؤاد حسن زكريا - مكتبة نهضة مصر - ١٩٦١.
٩٨- (مشكلة الفلسفة) - الدكتور زكريا إبراهيم - مكتبة مصر.

مطابع آمـون

٤ الفيروز من ش إسماعيل اباظة
لاظوغلى - القاهرة - ج م ع
ت : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦